

حكايت المساء

لطر حسين



دار العرب
تليستاف

حديث المساء

نظرة حسنين

الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية
رقم التصنيف : 892.74
رقم التسجيل : 2
تحقيق وتقديم ز. ن. التسجيل : 1984

✓ محمد سيد كيلاي

الدكتور - محاضر
طه حسي

الطبعة الأولى



المنشور National Organization of the Financial Library (GOAL)
القاهرة - مصر

دار العرب

للبيعتاني

٢٨ شارع الفجالة - ٩٠٨٠٢٥
القاهرة

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
١ - عهد	١٩
٢ - خصومتان	٢٣
٣ - موقفان	٢٦
٤ - كلام	٣٠
٥ - عناد	٣٣
٦ - الشهداء	٣٧
٧ - استقلال	٤١
٨ - ائتلاف	٤٧
٩ - خلاف	٥١
١٠ - موقعة	٥٦
١١ - إقدام	٦١
١٢ - محاولة	٦٥
١٣ - درس	٧١
١٤ - مقاومة	٧٦
١٥ - غيوم	٨١
١٦ - زيارتان	٨٧
١٧ - استجواب	٩٤
١٨ - وداع	١٠٠
١٩ - غموض	١٠٥
٢٠ - أحلام	١٠٩

١١٥	٢١ - عدوان
١١٩	٢٢ - صراحة
١٢٣	٢٣ - خاتمة
١٢٨	٢٤ - نذير ...
١٣٢	٢٥ - وداع *
١٣٦	٢٦ - جلسة
١٤٠	٢٧ - أزمة
١٤٥	٢٨ - مؤتمر
١٥٠	٢٩ - سجين
١٥٥	٣٠ - تبعة
١٦٠	٣١ - قمر
١٦٤	٣٢ - توسع
١٦٦	٣٣ - معضلة
١٧٦	٣٤ - مسكينة
١٨١	٣٥ - تنبه
١٨٧	٣٦ - أحاديث
١٩٢	٣٧ - أنباء
١٩٨	٣٨ - العفو
٢٠٤	٣٩ - غرور
٢٠٨	٤٠ - ناد
٢١٤	٤١ - قلق
٢١٩	٤٢ - راحة
٢٢٢	٤٣ - خطأ
٢٢٦	٤٤ - دعاية
٢٣٠	٤٥ - مدرسة

مقدمة

أرادت وزارة اسماعيل صدقي أن تكسب الرأي العام أو على الأصح خيل إليها أنها قادرة على ذلك إذا هي أقصت طه حسين عن الجامعة وذكرت أنها تفعل ذلك تحقيقاً لرغبة الأمة التي أبدتها حينما نشر طه كتابه « في الشعر الجاهلي » ، ولم تجد مسوغاً قانونياً لفصله فاكثفت بنقله إلى ديوان وزارة المعارف ليشغل وظيفة كبير مفتشى اللغة العربية التي كان يشغلها الشيخ محمد حسنين الغمراوي بك الذي كان سيحال على المعاش في ١٩٣٣/٥/٢١ ، وذكرت بعض الصحف أنه سيعهد إلى الدكتور طه بحث مناهج اللغة العربية ووضع تقرير عن الكتب المقررة لتدريسها متضمنة ما يراه من التعديلات التي يجب ادخالها .

إلا أن الدكتور طه عميد كلية الآداب رأى في نقله إلى وزارة المعارف اعتداء صارخاً على استقلال الجامعة فرفض قرار النقل ، فقرر مجلس الوزراء بتاريخ ٢٠ مارس ١٩٣٣ فصله من هذه الوظيفة .

وتقدم عبد الحميد سعيد ومعه حافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى وعبد العزيز الصوفانى عضو الحزب المذكور ، ويحيى سليم أبوسحلى عضو حزب الشعب وآخرون باستجواب إلى وزير المعارف محمد حلمى عيسى باشا ولما حل موعد مناقشة الاستجواب ، نهض عبد الحميد سعيد فألقى البيان التالى :

نشأ هذا الرجل عدواً للدين وتعاليمه ، يشوه كل ما هو منسوب إليه . ومن يتتبع سلسلة حياته العلمية وجده يذهب فى كل مسألة تتعلق بالدين الإسلامى مذهب أعداء الدين وخصومه الألداء . إن ضرر الدكتور طه

بعقول الناشئة لم يقف عند حد الجامعة ومصر ، بل جاوزها إلى البلاد العربية المجاورة .

ثم ذكر أن الدكتور كان يكلف طلبته أن ينتقدوا القرآن ، وأن يسجلوا آراءهم في كراسة فيذكرون أن هذه الآية ضعيفة وتلك ركيكة . وتلا عبد الحميد من كراسة لأحد الطلبة أن طه حسين ي بحث الطلبة على نقد القرآن ويذكر لهم أن في القرآن أسلوبين مختلفين كل الاختلاف ، أحدهما جاف وهو مستمد من البيئة التي نزل فيها القرآن أول ما نزل في مكة . ففي هذا الأسلوب تهديد ووعيد ، وزجر ، واستشهد على ذلك بآيات : «تبت يدا أبي لهب .. إلى آخر السورة .

وكان طه ي بحث الطلبة على أن ينظروا إلى القرآن كأى كتاب عادى يجرى عليه من النقد العلمى ما يجرى عليها ، وأن يغضوا النظر عند البحث عن قدسيته .

ولقد شاع هنا وفي البلاد العربية أن هناك صلة بين طه حسين وبين دعاة التنصير . وألقى عبدا الحميد الوم على الحكومات حتى بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطبيين .

قالت صحيفة (١) كوكب الشرق : ومن لطيف ما ذكره نائب الحزب الوطنى - أى عبد الحميد سعيد - أنه وصف نقل طه حسين من الجامعة إلى وزارة المعارف بمثابة نقل جيش الاحتلال من القاهرة إلى ضفة القنال .

وقد أرسلت صحيفة كوكب الشرق مندوبها لطفى عثمان إلى شارع المنيا بمصر الجديدة حيث كان يسكن طه حسين ، فأجرى معه الحوار الآتى :

س - جاء فى خطاب عبد الحميد سعيد أفندى أنكم كنتم تكلفون طلبتكم أن ينتقدوا القرآن ، وأنا يسجلوا آراءهم فى كراسة فيذكروا أن

هذه الآية ضعيفة (١) ، وأخرى ركيكة ، وأنكم تحثون الطلبة على نقد القرآن ، وأن في القرآن أسلوبين مختلفين ، أحدهما جاف وهو مستمد من البيئة التي نزل فيها القرآن أول ما نزل في مكة ، ففي هذا الأسلوب تهديد ووعيد وزجر . ولما هاجر النبي عليه السلام إلى المدينة تغير الأسلوب بحكم البيئة أيضاً إلى آخر أقواله . فما مبلغ ما ينسبه إليكم عبد الحميد سعيد أفندى من الصديق ؟

ج : هذا كذب وتزوير . وكل ما قلته هو ما يقوله العلماء المسلمون من أن السور المكية كانت قبل كل شيء سور إنذار وتبشير ، فكانت فيها شدة على المشركين ، بينما السور المدنية يغلب عليها التشريع فيظهر فيها الهدوء .

س : نسب عبد الحميد سعيد أفندى إليكم أنكم فسرتم للطلبة الحروف التي في أوائل السور في القرآن بعدة آراء ، منها أنها معميات ، ومنها أنها كانت في الأصل علامات مميزة لمصاحف الصحابة ، فهل هذا صحيح ؟

ج : المسلمون والمستشرقون مختلفون في فهم هذه الحروف ، فبعضهم يجد لها معاني ، وبعضهم يقول إنها من المتشابهات التي لا سبيل إلى فهمها . وبعض المستشرقين رأى رأياً شخصياً ، وهو أن هذه الحروف كانت

(١) في كتاب « في الصيف » لطله حسين ما نصه .

« إذا كان من حق الناس جميعاً أن يقرأوا الكتب الدينية ويدرسوها ويتذوقوا جمالها الفني ، فلم لا يكون من حقهم أن يعلنوا نتائج هذا التذوق والدرس والفهم ما دام هذا الإعلان لا يمس مكانة هذه الكتب المقدسة من حيث هي كتب مقدسة ، فلا يغض منها ، ولا يضعها موضع الاستهزاء والسخرية والنقد . وبعبارة أوضح : لم لا يكون من حق الناس أن يعلنوا آراءهم في هذه الكتب من حيث هي موضع للبحث الفني والعلمي بقطع النظر عن مكانتها الدينية » .
فعبد الحميد سعيد لم يكن كاذباً ولا مزوراً .

علامات لبعض المصاحف . فلم أزد في الدروس عن أن قلت آراء المتقدمين والمستشرقين ، ونددت بهذا الرأي السخيف كما ندد به العلماء من المستشرقين أنفسهم . فما يقوله عبد الحميد كذب وتزوير أيضاً ، ويمكنكم أن تستشهدوا بالطلبة أنفسهم .

س : يهتمكم أيضاً في خطابه بالطعن على الدين في كتبكم (في الأدب الجاهلي) و « حديث الأربعة » فهل تعتقدون أنه استطاع أن يفهم ما قرأه في هذين الكتابين قبل أن يكون هذا الرأي فيهما ؟

ج : لو عرفت أنه (١) يستطيع أن يفهم هذه الأشياء لناقشته ، ولكنه دون هذا . وكل ما أتمناه هو أن يريح الله المسلمين من أشدنا شراً على الإسلام ، وأكثرنا كيداً للدين : سواء أكان هذا الرجل النائب المحترم (!!) أم أنا .

س : يزعم عبد الحميد سعيد أفندي أنه شاع هنا وفي البلاد العربية أن هناك صلة بينكم وبين دعاة التبشير ، فإذا تقولون عن هذه الإشاعات ؟

ج : تستطيع أن تؤكد أن هذا كذب صراح ، وإن لا أعرف مبشراً ، ولم ألق مبشراً ، ولا ينتظر أن يكون بيني وبين مبشر ما صلة ما ، وتستطيع أن تسأل من شئت من المبشرين في أقطار الأرض جميعاً ، فستعلم علم اليقين أن الصلة لم توجد ولا يمكن أن توجد بيني وبينهم .

(١) في سنة ١٩٢٧ تشكلت لجنة في وزارة المعارف مكونة من محمد حسنين الغمراوي بك ، وأحمد للعوامري بك ، والشيخ محمد عبد المطلب وكتبت تقريراً عن كتاب الأدب الجاهلي وكان ما جاء فيه ضد طه حسين ، وذكرت أن كثيراً مما جاء في هذا الكتاب يناقض الدين الإسلامي في أصوله وفروعه .

ثم ألقت لجنة أخرى مكونة من محمد حسنين الغمراوي بك ، وعبد الحميد حسن ، وأحمد أمين ، فجاء في تقريرها أن الكتاب حوى نقطا تمس أصول الدين الإسلامي افطر كتابنا (طه حسين الشاهر الكاتب)

س : كلنا نعلم أن الخلاف القائم بينكم وبين وزارة المعارف ينحصر في أمر واحد فقط ، هو أن وزير المعارف أصدر قراراً بنقلكم من كلية الآداب إلى وزارة المعارف . والبحث يدور في : هل يملك الوزير حق نقلكم أم لا يملك ؟ فما الذي أخرج إذن هذا الخلاف القانوني إلى الجدل والمناقشة حول كتبكم وتعاليمكم ؟ وهل تظنون أن هناك من يعمل على إثارة هذه الضجة حولكم من جديد ؟

ج : لاتسلى عن هذا ، وسل الذين يشيرون هذه الضجة ، ماغرضهم منها ، وماذا يقصدون من وراءها .

وسئل طه حسين مرة أخرى عن رأيه في اتهامات عبد الحميد سعيد أولاً وشيخ الأزهر ثانياً وأخيراً فقال :
رأى أنهم قوم لم يبيعوا أنفسهم من الله ، وإنما باعوها من السلطان ، فهم يؤدون بهذه التجارة المنكرة ثمن ما يمنحهم صدقي باشا من المنفعة العاجلة ، ولقد ينطبق عليهم قول الله تعالى :

(فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويل لهم مما كسبت أيديهم ويويل لهم مما يكسبون).

وفي ١٩٣٢/٤/٧ أقام الطالب عزيز فهمي حفلة شاي في فندق ميناهوس تكريماً لطفه حسين ، حضرها حافظ إبراهيم ، والدكتور محمد حسين هيكل والشيخ مصطفى عبد الرازق ، والآنسة ملك . وطافت أباريق الشاي والحليب وصحاف الحلوى على الحاضرين .

واعتذر العقاد عن تخلفه بالبرقية الآتية :

أنتم أحق من يكرم (بكسر الراء المشددة) والأستاذ طه أحق من يكرم (بفتح الراء المشددة) ولكنكم أحق من يعتذر المتخلف عن واجب هو أول الساعين إليه لولا مانع يمنعه : وتحياتي إليكم أجمعين .

ونَهَضَ حافظ إبراهيم والقى بيتين استعيدا مرارا وهما (١) :

أجذبت دار الحجي والنهي بعدك من آرائك النافعة

أنصبت أرجاء مصر بمن صير مصر كلها جامعته

وأقام (٢) طلبة كلية الآداب حفلة تكريم لطفه حسين وأحمد لطفى السيد في كليتهم حضرها عباس محمود العقاد ، وألقى خطبة هذا نصها : إنكم تقيمون أستاذيكم ، وأنا أحبيهما ، ولست أخالف التقاليد في هذه التحية ، بل أنا سائر على سنة التقاليد المثلث . كل ثناء إلى الطلاب إنما هو ثناء يتجه إلى الأساتذة من أقرب طريق . إن أكبر فخر للأستاذ في معاهد التعليم العليا هو أن تكون الصلة بينه وبين طلابه صلة احترام قوامه محض الكفاية العلمية ، ومحض المناقب الشخصية .

وليس للأستاذ لطفى بك ، ولا للدكتور طه الآن سلطان عليكم ، وليس لهما إلا مكانة العالم بين أساتذته فأنتم الآن تقيمون الدليل على أنهما حقاً فخر الأساتذة في الجامعة .

أنتم تقيمون الدليل على منزلة هذين العالمين الجليلين بهذا الاجتماع الذى تقيمون ، لا مسخرين ولا مسوقين ، ولا مأجورين ، ولا مسحوبين كما يسحب الآخرون .

أنتم تقيمون الدليل بهذا الاجتماع الذى تعقدونه بمحض ارادتكم وبمحض الغيرة على الكرامة ، وعلى العلم ، لا تلك الغيرة الزائفة التى يدعيها مخلوقات ينتسبون إلى الآدمية ظلماً يا حضرات الإخوان .

(١) هذان البيتان لا وجود لهما في ديوان حافظ .

(٢) كوكب الشرق في ١٤/٤/١٩٣٢ عدد ٢٣٤٠ .

كل ما يحيط بنا في زماننا هذا يقول لنا إن الحياة حقيرة ، وإن الدنيا ضئيلة ، وإن هذه الحياة لا تستحق العناء ومشقة التفكير ، ولكن الذى أراه شيئا آخر .

أرى هنا وفاء واعجابا ، وما دام في الدنيا وفاء ففيها ولا شك سبل طلب الكمال وفيها أيضا سبل المثل الأعلى .

عندنا وفاء وقد أظهرتموه ، وعندنا ثقة في امكان الوصول الى المثل الأعلى في حياتنا ، فحسبنا من ذلك عزاء عما نحن عليه الآن .

أيها الإخوان : لقد أساء التصرف أولئك الذين تصرفوا في مسألة الجامعة ، ولكنهم أحسنوا من حيث لا يشعرون .

إن كل عالم عامل هو في الحقيقة جامعة تنتقل حيث ينتقل ، ويصدر عنها العلم حيث كان . واذن فصلة الجامعة الروحية بالأستاذين قائمة ، وهى صلة قوية لها في النفوس أبلغ الأثر ، وستظهر آثارها في دائرة التعليم الحر ، وسترونها قريبا إن شاء الله .

وألقي طه حسين الخطبة الآتية :

أصدقائي :

اسمحوا لي أن أهدي إليكم باسم أستاذنا الجليل لطفى بك السيد أجمل الشكر وأصدق التقدير لهذا الشعور الحى القوى الذى مهما تكن ثقة الأستاذ بي ، واعتماده على طلاقة لسانى فإنى عاجز عن أن أوفيه حقه ، ولكنى كما قلت قبل الآن لبعض الطلبة إنى لست فى حاجة لشكر الطلاب على شعورهم ، كما أن الأساتذة ليسوا فى حاجة لشكر الطلاب لهم ، لأننا معشر الجامعيين - واستعمل هذه الكلمة وإن رغمت أنوف - نؤمن بأن لا كلفة بين أعضاء الأسرة الجامعية .

لطفى السيد : تريبيان [TRES BIEN]

الدكتور طه : نعم ، لسنا فى حاجة لأن يشكر بعضنا بعضا ، ولكن لبعضنا على بعض حقوقا هى أن نبذل ما نستطيع من قوة ، بل أن نضحى حتى فى الحياة فى سبيل هذه الرابطة المقدسة التى جمعت بين المدير والأساتذة والطلبة .

إنها رابطة العلم وليست أملا من تلك الآمال التجارية . وأنا أذكر الأسرة الجامعية وأؤكد لكم أنى ما شككت لحظة مهما بلغت نقمة الناقمين علينا ، ومهما بذلوا من الحيلولة والتفريق بيننا ، ما شككت لحظة فى أننا جامعيون وأنا من أسرتكم وفى أن لنا اليوم وغدا من الحقوق مثل ما كان لنا عليكم بالأمس وصدقونى فيما سأخبركم به ، فقد حسبوا أيضا أنهم يتخذون الجامعة فيما يتخذونه من الإجراءات لكى يحملوا رجلا أيا كالأستاذ لطفى بك على أن يستقيل .

كانوا يكرهون مكان الأستاذ من الجامعة . وكانوا يكرهون مكانى فى كلية الآداب بعد خيبة أملهم فى ، وقد أظهرت ما يختص بى . وأما خيبة أملهم فى الأستاذ فكم كنت أود أن أخبركم عنها لولا أن الأستاذ لم يسمح بذلك بعد .

ثقوا بأنهم كانوا يكرهون مكاننا فى الجامعة والكلية ، وثقوا بأنهم كانوا يدبرون هذا من زمن بعيد .

وما كنا نلتقى نحن الملحدين إلا ونردد الآية الكريمة :

(وإذ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (١) .

لقد قرأت بعض ما كتبت بعد أن أخرجت من الجامعة فلاموني لأنى لم أكن رفيقا بالحكومة . نعم ، ولقد تحدث إلى فى ذلك بعض الأصدقاء ، وقالوا لى إنهم ائتمنوك على أسرار فأذعتها ، وكنت للسر خائنا . هذه هى سيئتنا عندهم .

ولكن لو جاءك رجل ينبئك بأنه قاتلك غداً ، وأمرك بالألا تخطر النيابة ، أف تكون خائنا للسر إذا أنت أخطرتها ؟

تلك هى سيئتنا الخلقية أيا الأصدقاء ، ولكنها بيئة مصطنعة متكلفة . أما السيئة الخلقية الحقيقية فهى نفاقهم هذا النفاق الذى يتخذ وسيلة لإفساد الناس وإضلال العقول والقلوب ... هذا النفاق الذى تستخدم فيه أدنا الوسائل وأحطها .

ولقد حاول بعض الأصدقاء أن يمنعوني من التصريح بالحقائق فقلت لبعض أولئك الذين حدثوني إننى لم أعود قبل اليوم أن أكون مومساً ، ولن أكونه اليوم لأجل أن أبقي عميداً لكلية الآداب .

ولقد لامنى أستاذى مدير الجامعة لأنه من أشد الناس سيطرة على نفوسهم وسيطرة على ألسنتهم .

هو يعبر بلغة أرسطو ، وأنا أعبر بلغة الشعراء ، جاهلين أو إسلاميين .

أيا السادة ، إنى لسعيد جدا بأن أتيحت لى هذه الفرصة لأؤكد لكم بأننا وإن بعدت المسافات بيننا وبين الجامعة فنحن فيها دائماً ، وليس أدل على هذا من قصة أسردها عليكم لتعلموا أن الأستاذ لطفى بك لا يستطيع أن يكون بعيدا عن الجامعة . كان الأستاذ وزيراً مستقبلاً (١) ، وكان الحكم

(١) كان أحمد لطفى السيد وزيراً للمعارف فى وزارة محمد محمود الأولى سنة

١٩٢٩ مع احتفاظه بمنصب مدير الجامعة . ولما استقالت هذه الوزارة خلفتها وزارة عدلى يكن باشا المحايدة ، وعاد لطفى إلى إدارة الجامعة .

لدولة عدلى يكن باشا . وكنت وكيلا لكلية الآداب . ، وظهر أن عالما ألمانيا مستشرقاً قد توفى وترك مكتبة فخمة ، وأن هذه المكتبة تعرض للبيع وأن أمريكا تريد أن تشتريها .

بحثت فإذا ميزانية الجامعة لا تسمح لنا بشرائها ، وإذا نحن على أبواب فتح البرلمان ، فإذا ما انتظرنا البرلمان يبعث المكتبة إما لأمريكا وإما للهند .

ذهبت إلى مدير الجامعة السابق (١) وأنبأته النبأ ، فلم يحتج إلى تفكير ولكنه طلب منى رفع مذكرة بذلك ، وذهب إلى رئيس الوزراء توا ، وتحدث معه فى هذا الشأن ، وبعد أيام صدر المرسوم باعتماد المبلغ اللازم لشراء المكتبة . من ذلك ترون أنهم مهتما باعدوا بيننا وبين الجامعة فنحن لها وفى خدمتها . لكم حياتنا العلمية تستطيعون أن تفعلوا بها ما تشاءون .

أيها السادة :

لقد سمعتم تهتفون حين نهض الأستاذ العقاد بحياة البطل السياسى : ولعلى هتفت معكم ، ثم كررت الحثاف بحياته كبطل جامعى أيضا . فإن له عندكم من حيث إنكم جامعيون يدا سابقة ، وله عندى هذه اليد ، فهو الذى وقف فى البرلمان .. البرلمان الذى يمكن أن يسمى بهذا الاسم ، وقف يدافع بطبيعته عن حرية الرأى ، وعنى أنا وعن حرية الجامعة واستقلالها .

أما بعد فقد أطلت عليكم فإذا لم تسمح لنا الظروف اليوم أن نتحدث ونطيل الحديث فثقوا بأن ظروفنا مقبلة ستضطرنا إلى أن نتحدث ونتحدث طويلا . أما الدين فأنتم تعلمون أنى كنت أتحدث إليكم عنه فى كلية الآداب ، وكنا نتحدث عن القرآن ونعجب بما فيه من جمال . وما أرى أنهم يفهمون من الدين ومن القرآن وجمال القرآن شيئا . وإنى لأذكر يوم أن كنا ندرس

(١) يقصد أحمد لطفى السيد الذى استقال احتجاجا على إبعاد طه عن كلية الآداب.

محاضرة عن سورة الأنفال ، وكم كنت أحب أن يقرأها صاحب المحبة
والعصا (١) كما سماه خطيبكم .

أما الآن فاندع هذا الحديث ويكنى أننا استطعنا أن نسمع بعضنا بعضا ،
وأن يلتقى بعضنا بعضا ، وأؤكد لكم أنني دهش من أن الذين يكرهون
الجامعة تركونا نجتمع (أصوات من الطلبة : هم لا يعرفون مكان الحفلة)
ولو قد فكروا قليلا لحالوا بين أنفسهم وبين ما صنعوا بنا ، ولتركوا لطفى
حيث كان ، وطه حيث كان . فقد كان لنا نزعة سياسية نخفيها كما قال
صديقى باشا .

ونختاما فلكم عن الأستاذ الجليل لطفى بك وعنى وللأستاذ الجليل العقاد
بنوع خاص تحيتنا وشكرنا الخالص ؛

وأخيرا وقف الأستاذ إبراهيم المازنى وألقى خطبة هذا نصها :

أيها السادة :

أظن أنه بعد فيض العقاد وطه يكون من الإحراج أن أدعى إلى الكلام ،
ولست أظن أن الذى دعانى أراد إحراجى . ولكن الواقع أن الخطابة شيء
لا أستطيعه . ولقد تركت التعليم من زمن طويل ، والتعليم بعض مراتب
الخطابة . ولقد تركت فكرة الخطابة ، لأننى أولا كما ترون قصير ،
والقصير لا يصلح للخطابة إلا على كرسى مثلا (ضحك) والكرسى يذهب
بروعة الخطيب .

ثم إن صوتى خافت قد يصلح للمناجاة أو الوسوسة « ضحك » ثم إنى
عبي ، لا يحضرنى الكلام بسرعة ، والخطابة تحتاج لسرعة البديهة واختيار
الألفاظ الموافقة :

❦ ❦ ❦

(١) يقصد عبد الحميد سعيد

وأؤكد لكم أنى بعد أن اخرج وقبل أن أصل إلى جريدة « السياسة »
ستخطر لى خطبة أبداع من كل ما سمعت (ضحك) .

العقاد : إننا سرافقك (ضحك)

المازنى (مستطردا) : والسبب بسيط ، وطبعى أيضا لأن معتاد الكتابة
يعتاد أيضا البطء فى التفكير . أظن هذا اعتذارا كافيا .

العقاد : هذا تمهيد (ضحك)

لطفى السيد : ليه ؟ كويس كله ؟

المازنى (مستطردا) : بمناسبة اضطهاد الجامعة يخطر ببالى اضطهاد
الأمويين للعلويين ، وأنتم تعرفون من غلب .

إن الذين بطشوا بحرية الجامعة واستقلالها قوم لا يقدرّون إلا المعدة .
المعدة فى نظرهم كل شىء . للكرامة ثمن ... للشرف ثمن ... للحرية
ثمن ... لكل شىء فى نظرهم ثمن ، وكلما كبر الواحد منهم كبرت معدته
فأصبح الإذلال والإرغام فى نظرهم أيسر ، لأنهم لا يستطيعون التفريط فى
كل هذا من أجل المعدة .

ومن حسن حظ الإنسانية أن أصحاب نظرية المعدة ينتهون إلى شرمما
يبدأون ، وتكون حياتهم فى أكل وشرب ... حياتهم كلها فى هم المعدة ،
ثم ينتهون .

ولذلك لم أرفيا أصاب الجامعة إلا صدمة مؤقتة ، لأن الظرف الذى
أقال طه واستقال فيه لطفى بك لا يضر الجامعة ، لأن العبرة بالروح التى
نجح الأستاذ فى إيجادها بين طلاب الجامعة * وأشاركم تحية أستاذنا لطفى
بك والدكتور طه ، وأؤكد لكم أن انتفاعنا بهما سيكون أعظم من انتفاع
الجامعة بهما وحدهما .

وفى شهر مارس سنة ١٩٣٣ دعتة صحيفة « كوكب الشرق » لينضم إلى
هيئة التحرير بها . ولم يكن طه حسين غريبا عن أحمد حافظ عوض

صاحب الكوكب ، فقد عرف كل منها الآخر من قبل أن يشافر طه إلى أوربا . وقد نشرت صحيفة الكوكب صفحة كاملة (١) أشادت فيها بطه حسين ومواهبه وقلمه الفياض . قالت « حدث سياسى حقا ، فمن بأن نحفل له أيما حفيل ، ونخلق بأن نؤبه به لجد خطورته وبلغ أثره فى الصحافة المصرية . ذلك أن طه حسين يشترك بقلمه الفياض ، وإيمانه الفياض وعقله الفياض فى الصحافة المصرية ، وفى السياسة المصرية فى الأزمة المصرية الحالية .

وطه حسين جدير بأن يرسل اسمه إرسالا بلا بهرجة لقب ، ولا تزويق جاه ، لأن الشخصيات البارزة فى وجودها وأثرها والتى خلقت لتقود ، لا لتقاد ، ولتنفع الناس بحصافتها وعبقريتها يخلو دائما ذكر أسمائها مجردة من النعوت . طه حسين موهبة فذة اختص بها ذلك الرجل الفذ ، تلك هى أنه منطقي بالطبيعة ، ذكاوة لا يشق غبارها بغبار ، وجبروت ذهن فوق كل تقدير واعتبار .

وفى رسالة خطية للزعيم مصطفى النحاس إلى « كوكب الشرق » جاء فيها : « وإنى لمغتبط باشتراك النابغة الكبير الدكتور طه حسين فى تحريره — يعنى الكوكب — على المبدأ الوفدى الذى دلت الحوادث على أنه مبدأ الحق ودين الأمة الذى قامت عليه فى نهضتها نحو غايتها السامية فى الحرية والاستقلال .

انضم طه حسين إلى هيئة تحرير الكوكب . وكان يطالع الجمهور كل يوم بمقال طويل فى أكثر من عمودين . وكان يختار للمقال كلمة واحدة يجعلها عنوانا . وقد قلده بعض الشباب فى ذلك الوقت .

ينتمى طه حسين إلى مدرسة المجددين فى النثر العربى ، وهى مدرسة متأثرة بالآداب الأوربية ولا سيما الفرنسية والإنجليزية . وتمتاز بتحليل المعانى واستقصائها والتعليل لها . كما تمتاز بالسهولة والوضوح .

والخصائص الفنية لأسلوب طه حسين هي التطويل والتفصيل، والتكرار المعنوي واللفظي، كما يلاحظ القارئ التآني في اختيار الكلمات واللباقة في الهجوم على الوزارة الصلحية حتى لا يقع تحت طائلة العقاب كما حدث للعقاد وتوفيق دياب .

ولم يلجأ طه حسين في هذه المقالات إلى العبارات الرنانة الصاخبة التي تحرك العواطف وتثير المشاعر . وإنما غلب عليه الهدوء ومخاطبة العقل والإقناع بالحجة واستخدام الأسلوب المنطقي . وكثيرا ما يلجأ إلى السخرية، ويضمن مقالاته شيئا من الأدب القديم، من الشعر والحكمة أو المثل : وهو يعبر عن عقيدة وطنية راسخة . كما يوجه الخطاب إلى القارئ جذبا لانتباهه ، وتنشيطا لحواسه .

في هذه المجموعة من المقالات ترى طه حسين يعبر عن آلام الأمة وأحزانها وما عانت منه في تلك الفترة من أزمة اقتصادية خانقة ، وانفراد اسماعيل صدقي بالحكم ومن ورائه الأنجليز والملك فؤاد . جاهد طه حسين بقلمه كما جاهدت الأمة شيوخها وشبانها وسقط القتلى والجرحى من أبنائها، ولم تهدأ أو يقر لها قرار حتى انقشعت هذه الغمة ، وجاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا .

فهذه المقالات إذن من الأدب السياسي .

تشكلت وزارة إسماعيل صدقي في ٢٠ يونيو سنة ١٩٣٠ وظلت في الحكم زهاء ثلاثة أعوام . وقد ألف إسماعيل صدقي حزبا أراد أن يطلق عليه اسم حزب الإصلاح ، ولكن بعض الأعضاء تشاءم من هذا الاسم نظرا للمصير السيئ الذي انتهى إليه حزب الإصلاح الذي أنشأه الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد قبل الحرب العالمية الأولى . وأخيرا استقر الرأي على أن يسمى الحزب الجديد « حزب الشعب » تيمنا بحزب الشعب التركي واقتداء بأقطابه وإن لم يكونوا مثلهم .

تولى إسماعيل صدقي الوزارة باتفاق انعقد بين الملك فؤاد والإنجليز سنة ١٩٣٠ ، قالت صحيفة « المانشستر جارديان » (١) « والإنجليز في مصر يجبنون الحكم الغير دستوري فيها . فقد سبق لهم أن جبنوا حكومة محمد محمود باشا . وهم يجبنون الآن حكومة صدقي باشا . ومما لا ريب فيه أن هناك جماعة في هذه البلاد — أى إنجلترا — لا تزال تود أن تستخدم العصا الغليظة في مصر بحيث إذا قامت مشاغبات من جراء الأزمة الحاضرة استدعيت الجنود البريطانية إلى التدخل لتأييد حزب الملك » .

وفي مقال لصحيفة « الإيفنج ستندارد البريطانية » (٢) « النحاس باشا لا يمكن أن يقتنع بأية معاهدة يناها ، وإنه لابد وأن يتقدم بصفته ممثلا للعنصر المضاد لبريطانيا في مصر بمطالب أكثر فأكثر حتى يتوصل إلى إبعاد آخر جندي بريطاني وآخر موظف ملكي إنجليزي عن البلاد » .

ومن مقال (٣) افتتاحي لصحيفة الإيفنج نيوز « تتجه الحوادث المصرية الآن إلى الثورة . وسواء كانت هذه الثورة تتخذ شكل مسعى في سبيل تشييد جمهورية يديرها الوفد أو ترمى فقط إلى تحويل جميع السلطات السياسية التي كانت للملك إلى الزعماء السياسيين فإن ذلك أمر يعيننا ، لأن الغاية التي يعمل لها الثوار إنما هي طرد الإنجليز من مصر . والمتطرفون المصريون كهذا النوع من الأطفال الأشقياء الذين إذا ما أدبوا بيد قوية مرة أو اثنتين فإنهم يصبحون مثالا للطاعة » .

فمن هنا نعلم أن إسماعيل صدقي وكل من تعاون معه من شيوخ ونواب ورجال إدارة وصحفيين قبلوا على أنفسهم أن يكونوا أداة طيعة لتنفيذ السياسة البريطانية ضد المواطنين .

(١) الأهرام في ١٦ - ٧ - ١٩٣٠

(٢) المصدر السابق في ٣ - ٥ - ١٩٣٠

(٣) الأهرام في ١٥ - ٧ - ١٩٣٠

ولم تتورع الوزارة الصديقة في إستخدام أحط الوسائل لهذا الغرض .
فحينما أعلن مصطفى النحاس أنه سيزور المنصورة ، بادرت الوزارة فأرسلت
إلى المنصورة أورطة المشاة الأولى من الجيش وعدد أفرادها ٦٠٠ جندي ،
واستقدمت أورطة أخرى من الاسكندرية . وسافر إلى المنصورة الأميرالاي
فوربس بك رئيس هيئة أركان حرب العمليات العسكرية ، والأميرالاي
عبدالعظيم علي بك قائد اللواء الأول ، والقائمقام لوكاس بك مساعد
حكمدار العاصمة ، وعدد كبير من المهجاة ورجال الشرطة . وخرجت
جموع الشعب لتحية الرئيس وصحبه ودارت معركة عنيفة بين عساكر
الجيش وبين المواطنين انجالت عن إصابة ١٤٥ جريحاً نقلوا بوساطة رجال
الإسعاف ، وعدد آخر كانت إصاباتهم خفيفة . وعدد كبير من القتلى ،
منهم من كان متعلقاً بسيارة زعيم الوفد . وكانت النية مبيتة على قتل
مصطفى النحاس . وحينما وصل النحاس إلى منزل محمد بك الشناوى
ألقى خطبة جاء فيها :

« لا أريد هتافاً ، وإنما أودعكم وصية . لقد رأيتم أنهم يقصدوننى
ويتعطشون لإسالة دمي لأني أدافع عنكم ، فاعلموا أنني مضح بنفسي قبلكم ،
ووصيتي لكم من بعدى أن يقوم كل منكم مدافعاً عن دستوره . »

وفي الإسكندرية قامت مظاهرات ضخمة انجالت عن إصابة ٤٠٠
بين قتيل وجريح . وقد أظهرت الصحف البريطانية الفرح والابتهاج
بما حدث . وقال أحد الانجليز إن انجلترا يجب أن تحتفظ بيد قوية من
الإسكندرية إلى سنغافورة .

هذه صورة من الجو السياسى الذى كتبت فيه هذه المقالات . إن
الملك فؤاد دق مسباراً فى نعش أسرة محمد على فذهبت غير مأسوف عليها.

محمد سيد كيلانى

القاهرة فى يناير ١٩٨٣

(١)

عهد

أعترف بأننى لا أهاب شيئاً كما أهاب رضى الناس عني ، ولا أشفق من شيء كما أشفق من حسن ظنهم بي . فأنا - شهد الله - قلما أَرْضِي عن نفسي أو أحسن الظن بها وما أذكر أني كتبت شيئاً أو أتيت شيئاً من الأمر إلا وأنا مؤمن بأنه دون ما كان ينبغي أن أكتب ، ودون ما كان ينبغي أن آتي من الأمر ، ودون ما ينبغي أن يرضى هؤلاء الأصدقاء الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم ، والذين يتفضلون علي في رضون عني ويحسنون الرأي في ، وأعجز أنا عن تصديق هذا الرأي أو تصويب هذا الرضى .

كذلك كنت منذ بدأت أكتب ، ومنذ بدأت أنهض بشيء من أعباء الحياة العامة . ويظهر أني سأظل كذلك أبداً . فقد جاوزت من أطوار الحياة هذا الطور الذي يستطيع الناس أن يغيروا فيه آراءهم في أنفسهم ، ويحسنوا بها الظن ، وينتظروا لها النمو والرقى والتقدم نحو الكمال .

لذلك لا أدري كيف ألقى هؤلاء الأصدقاء الذين عرفوا أني سأكتب في « الكوكب » فأحبوا ذلك ، ورضوا عنه ، وغلا بعضهم فاغتبط به وابتهج له : نعم ، ولا أدري كيف ألقى هؤلاء الذين تفضلوا فدعوني إلى الكتابة في الكوكب ، وألحوا علي في ذلك إلحاحاً ملؤه المودة والبر ، والرغبة في الخير لي ، وللقراء مما سأكتبه .

كوكب الشرق في ١٩٣٣/٣/٩ ، عدد ٢٣٢٨

نعم ، لا أدري كيف ألقى أولئك وهؤلاء ، لأنى شديد الإشفاق من العجز عن تصديق أولئك وهؤلاء ، وتحقيق القليل أو الكثير مما ينتظرون : ومع ذلك فقد أجبت شاكرا دعوة الداعين ، وقبلت مغتبطا رضى الراضين وأقبلت إلى أولئك وهؤلاء ، وأنا واثق مطمئن إلى أنى لم أبلغ ما يأملون فى ، ويرجون منى ، فلن أقصر عن الإخلاص الذى ليس فوقه إخلاص ، ولن أفتر عن النصيح الذى ليس بعده نصيح ، ولن أضن بقوة أملكها ، أوجهده أقدر عليه ، وإنما أبذل هذا كله صادق الرأى ، ماضى العزم ، قوى الأمل كأحسن ما يكون الرجل استعدادا لاستقبال الخطوب ، واحتمال الآلام فى خدمة هذا البلد الحزين .

وما أظن أن المصرى يملك فى هذه الأيام شيئا يستطيع أن يقدمه إلى وطنه خيرا من الإخلاص والنصح وصدق العزيمة ، وحسن الاستعداد لاستقبال الخطوب ، فإن كان هذا هو الذى ينتظره منى أصحاب الكوكب وقراؤه ، فهم واثقون منذ الآن بأنهم سيبلغون منه ما يريدون ، وإن كانوا ينتظرون منى غير هذا فليعذرونى إذا لم أعدهم بشيء .

وأى شيء يستطيع العاملون أن يقدموه إلى مصر فى هذه الأيام التى قصت فيها الأجنحة ، وشدت فيها الألسنة فلا تقول إلا بحساب ، وعقلت فيها الأقلام فلا تجرى إلا بمقدار ، وضيق فيها على الناس فهم مضطرون إلى أن يفكروا ويظيلوا التفكير قبل أن يقولوا أو يكتبوا ، وإلى أن يقدرُوا فيظيلوا التقدير قبل أن ينشطوا لأمر من الأمور . كل شيء ضيق من حولنا ، فقد استكشفت الوزارة منذ نهضت بالحكم أو منذهمت أن تهض بالحكم أن الدستور أوسع مما ينبغى ، فضيقته وبالغت فى تضيقه . ولم تكذ تعلن إلينا هذا التضيق وتأخذنا بتصغير عقولنا ، وتقصير ألسنتنا والكبح من أقلامنا ، والحجر على آمالنا لتلائم حياتنا الدستور الجديد ، حتى استكشفت أن هذا الدستور الجديد نفسه يكفل لنا حريات أكثر مما ينبغى وإذا هى تضيق هذه الحريات بالوان التشريع مرة ، وبسلطانها الإدارى مرة أخرى ، وإذا هى قد اتخذت موازين

دقيقة شديدة الدقة ، رقيقة مسرفة الرقة ، حبياسة حادة الحس ، تقيس بها ما نرى وما نقول وما نفعل ، وتأخذنا بما تنكر هي من ذلك كله ، لا بما ينكر العرف ، ولا بما ينكر الدستور ، ولا بما تنكر الديمقراطية الغالية في الضيق . وإذا انتقلنا في الغدو والرواح برصد ويرقب ويقدر فيباح أو يحذر . وإذا كلامنا يؤول على وجهه حيناً ، وعلى غير وجهه أحياناً . وإذا تفكيرنا يتهم ، وإذا كل شيء نأتيه مرغوب عنه ، وكل شيء نأباه مرغوب فيه . وتمضي الأسابيع والأشهر وإذا الوزارة تستكشف أن هذا السياج الضيق الذي أحاطتنا به وحصرتنا فيه لا يكفي لأن عقولنا لا تزال واسعة أوسع من هذا السياج ، وإرادتنا لا تزال قوية أقوى من سلطان الوزارة . فلا بد إذن من أن تضيق العقول ، وتضعف الإرادة ، وتنحل العزائم : وأى وسيلة أدنى إلى تحقيق هذا من تضيق التعليم ومراقبته والسيطرة الشديدة المخرجة عليه في جميع فروع وألوانه ، وإذن فلتبسط الوزارة سلطانها (وقد فعلت) على التعليم ، ولتجمعه كله إليها ولتحصره كله في يدها ، ولتضغطة ما وسعها الضغط ولتقبضه ما وجدت إلى قبضه سيلاً .

هذه مدارس لم يكن لها عليها سلطان ، فيجب أن تظلمها بجناحها ، وهذه مدارس حرة قد يجد التعليم فيها من السعة ما لا تحب ، فلتشرع لها القوانين التي تردّها إلى حيث تريد هي من الضيق . وهؤلاء أبناء الشعب يقبلون على التعليم أفواجا ، فلتتخذ العدة لمقاومة هذا الإقبال الخطر . وأى شيء أخطر على مثل هذا السلطان الذي لا يريد أن يكون له حد من إقبال الناس على فروع التعليم الراقى .

هذا وزير المعارف يعلن في مجلس النواب أن لابد من تضيق التعليم الثانوي والعالى لأنهما يخرجان لمصر من الشبان المثقفين أكثر مما ينبغي . فلتوسع في التعليم الأولى لنحارب الأمية ، ولنتشدد في التعليم الثانوي والعالى لنقل من عدد العاطلين في ظاهر الأمر ، ولنضعف الخطر على السلطان الذي لا حد له في حقيقة الأمر ، ولنضع التفكير في أن التعليم على اختلاف ألوانه حق للناس جميعاً يريدونه متى شاءوا وما استطاعوا أن يريدوه ، لا يقيدهم في ذلك إلا الامتحان والقدرة على النهوض بأثقاله .

نعم ، ولندع التفكير في أن الرق الصحيح لأمة من الأمم رهين بانتشار الثقافة الصحيحة الحصبة التي يجدها الشبان في المدارس الثانوية والعالية وفي الجامعة ، وإن الخطر المنكر على النظام الاجتماعي والسياسي معاً إنما يأتي من الغلو في نشر التعليم الإلزامي والتقصير في نشر التعليم الراقى ، لأنه يهيء في البلاد جيشاً من أنصاف المتعلمين أو أثلاث المتعلمين أو أرباع المتعلمين الذين لا يرون الأشياء كما هي ولا يقدرونها كما ينبغي أن تقدر . ثم لا يهيء لهذا الجيش الخطر من المثقفين قادة مهرة يردونه عن الشطط ، ويقودونه إلى الرقى والخير .

لندع التفكير في هذا كله ، فهناك ما هو أهم من هذا كله وأجل خطراً ، وهو أن يستطيع السلطان الذي لا حد له أن يستغرق كل شيء ، ويستأثر بكل شيء ، ويوجه الأمة إلى حيث يريد هو ، لا إلى حيث تريد آمالها ومنافعها ومثلها العليا في الحياة .

كل شيء ضيق من حولنا ، وليس الغريب أننا لم نرق في هذا العصر الذي خضعنا فيه لهذا السلطان ، وإنما الغريب أننا لم نتأخر ، بل ثبتنا حيث كنا حين أنعم الله علينا بالوزارة القائمة ، وليس الغريب أن عقولنا لم تزد سعة ، وأن إرادتنا لم تزد قوة ، وأنا لم نشق لأنفسنا طرقاً جديدة في العلم والسياسة وغيرهما من فروع الحياة ، وإنما الغريب أن عقولنا وإرادتنا ما تزال بحيث كانت من السعة والقوة ، وأنا ما زلنا نقاوم ظافرين هذه العوادي المختلفة التي سلطت علينا من كل ناحية ، وأخذت علينا كل سبيل . نعم خير ما يستطيع المصري أن يقدمه لوطنه في هذه الأيام إنما هو الإخلاص في القول والعمل ، والصدق في الرأي ، والمضاء في العزم ، والقوة على المقاومة ، والاستعداد لاحتمال المكروه ، فإن الصراع بيننا وبين الحوادث التي تدهمنا مهما يطل أو يقصر فإنما الفوز فيه لصاحب الإرادة القوية ، والعزيمة الماضية ، والقوة على المقاومة .

وأنا أعاهد الذين سيقروني أني سأكون من هذا كله بحيث يحبون ، وما أظن أني أستطيع أن أشكر لهم ترحيبهم بي ، وحسن لقائهم لي بأحسن من أن أعطيهم على نفسى هذا العهد .

(٢)

خصومتان

ثارت (١) في مجلس النواب خصومتان عنيفتان في هذا الأسبوع ، ذهبت إحداهما لغوا كأن لم تكن ، وكادت الأخرى تفسد الائتلاف بين حزبي الحكومة ، لولا أن الذي بيده عقدة هذا الائتلاف لم يأذن بعد بالطلاق بين الحزبين الشقيقتين ، كما تسميهما بعض الصحف .

فأما الخصومة العنيفة التي ذهبت لغوا كأن لم تكن فهي التي أثرت حول سياسة التعليم . فقد خطب نواب ، ورد عليهم نواب آخرون ، وتكلم وزير المعارف ، وخيل إلى الذين قرأوا أولئك وهؤلاء أن تغييرا عظيم الخطر سينال سياسة التعليم في أصولها وفروعها ، ثم سكنت العاصفة وصفا الجو ، وابتسمت السماء ، ومضت سياسة التعليم كما تريد وزارة المعارف أن تمضي ، إن كانت وزارة المعارف تعرف وجهها تمضي فيه بسياسة التعليم .

الواقع أن وزارة المعارف في هذا العهد السعيد قد اضطربت بين سياستين : إحداها سياسة الوزير السابق (٢) ، وكانت تعتمد على التجديد والرقى ، وكانت تعتمد أيضاً على تعرف العلل التي يشكو منها التعليم في

(١) كوكب الشرق ١٥/٣/١٩٣٣ عدد ٢٣٢٩

(٢) للوزير السابق هو مراد سيد أحمد ، وكان وزيراً للمعارف وقد أخذت له صورة في شهر رمضان والسيجارة في فمه ، فأبعد من منصبه ، وعين وزيراً لمصر في بلجيكا .

مصر ، لذلك ألف الوزير السابق لجنة لسياسة التعليم ، وألفت هذه اللجنة لجانا فرعية ، وكتبت مذكرات ، واشتغلت اللجان ، وكانت مناقشات ، وخيل إلى الناس يومئذ أن أمور التعليم ستقلب رأسا على عقب ، وأن مصر ستجد آخر الأمر لنفسها سياسة تعليمية معقولة ملائمة لحاجاتها وآمالها ، ولكن وزير التعليم السابق ذهب إلى بروكسل ، وخلفه الوزير القائم . فذهبت إلى بروكسل أيضاً سياسة التعليم الأولى ، وقام التقليد مقام التجديد ، فأقفلت معاهد ، وألغيت أعمال ، ونامت اللجنة الأصلية ، وتفرقت اللجان الفرعية ، وقام الفرد مقام الجماعة . واستغنى وزير المعارف (١) بنفسه ووكيله عن هذه اللجنة التي لو أمهلت لقلب سياسة التعليم في مصر رأسا على عقب . وأجمل ما في هذا الأمر ، وأدعاه إلى الابتسام ، بل إلى الضحك أن جماعة من النواب كانوا يطالبون أثناء هذه المناقشة في سياسة التعليم بتأليف لجنة لتقرير سياسة للتعليم كأن هذه اللجنة لم تكن ألفت من قبل ، ولم تكن قد بدأت أعمالها ، وكأن النواب لم يسمعوا بها ، ولم يذكر الوزير هذه اللجنة ، ولا أشار إليها ، وإنما أجاب بأن الوزارة تستطيع أن تمضي في سياسة التعليم الأولى ، وتضييق التعليم الثانوي والعالى . وقبل النواب هذا الكلام ، وانتهت الحصومة بسلام كما تنهى الأحلام .

أما الحصومة الثانية فقد كانت محرجة وممضة ؛ وكانت خطرة ، أدارت الرؤوس ، وأذهلت النفوس ، وأقضت المضاجع ، وأضاعت يوماً كاملاً على كثير من النواب ورجال الأحزاب . وليس من شك في أن موضوعها كان أجل خطراً ، وأعمق أثراً ، وأمس بحياة الشعب الآن وغداً من سياسة التعليم ، وهو إعانة الأوبرا الملكية : أتمنح الحكومة أم لا تمنح إعانة للممثلين والممثلات ، والمغنين والمغنيات ، والراقصين والراقصات . والظريف الطريف أن الدفاع عن منح هذه الإعانة لهؤلاء الأجانب الذين يفدون علينا كل يوم لتسلية الأجانب الذين يقيمون بيننا ،

(١) هو محمد حلمى عيسى باشا .

قد نهض به وزير التقاليد الذي أقفل معهد التمثيل وألغى الرقص وحارب اختلاط الجنسين في المدارس . نهض وزير التقاليد فدافع دفاع الأبطال عن الفن والجمال ، يصول ويجول ، ثم يسكت ويقول ، ثم يرفع يده في الهواء ويهوى بها على المائدة ، والنواب ينظرون ويسمعون ويعجبون ، ومنهم من يدافع ويمانع ، ومنهم من يؤيد ويسرف في التأييد ، والوزير ثابت في موقفه ، مصمم على أن يشهد الأجانب في مصر كل عام على حساب الدولة تمثيل الممثلين والممثلات ، والراقصين والراقصات ، ويسمعوا غناء المغنين والمغنيات .

ومع أن الحصومة بلغت أقصاها ، وكان حزب الشعب عدو التمثيل والرقص والغناء ، وكان حزب الاتحاد صديق هذه الفنون الجميلة ، فقد انتهى الأمر بفوز وزير التقاليد ، وانتصار حزب الاتحاد . وسيدفع المصريون طوعا أو كرها هذه الآلاف ليسلوا الأجانب ويعينوا جماعة من أهل الفن الأوربيين على الحياة ، ويمكنهم من السياحة والاستمتاع بما في مصر من صفو السماء في فصل الشتاء ، ومن اعتدال الجو وجمال النيل .

وما كنت أظن أن سياسة التعليم تثير عاصفة لا تلبث أن تهدأ ، وأن دار الأوبرا تثير عاصفة تتجاوز مجلس النواب إلى أندية الأحزاب ، وإلى دور الوزراء القائمين والمستقلين ، وتزعج حتى رئيس الوزراء الذي هو في أشد الحاجة إلى الراحة وهدوء البال ، ولكن الله يريد أن تنعكس الأشياء دائما في مصر ، فيهون التعليم كله ، وتغز الأوبرا ، ويلقى وزير التقاليد في الدفاع عن التجديد (وأى تجديد) ما يطاق وما لا يطاق من خصومة الشعبيين .

انتهى الأمر في مجلس النواب إلى ما أراد الوزير ، وانتهى الأمر خارج المجلس إلى صفو وسلام بعد جفاء وخصام . ولكن من يدري لعل مسألة أخرى أشد خطرا من سياسة التعليم تمر غدا ، أو بعد غد مرور النسيم ، ولعل مسألة أخرى أقل شأنا من مسألة الأوبرا تحطم الائتلاف

حطما ، وتمضى بالشعبين إلى اليمين حيث المحافظة على السنن الموروثة والعادات والتقاليد ، وبالانحادين إلى الشمال ، وإلى أقصى الشمال حيث الغلو فى التجديد والإغراق فى مسايرة العصر الذى نعيش فيه . وما دام الليل يمر ، والنهار يكر ، فلن يثبت لهما شيء حتى ائتلاف الانحادين والشعبين ، وحتى دفاع وزير التقاليد عن السنن والعادات .

فلننتظر فقد رأينا إلى الآن عجبا ، وما أرى إلا أننا سنشهد منذ الآن ما هو أدعى إلى العجب ، وأبلغ فى الغرابة ، ولكن صدقنى أنك تخطئ كل الخطأ إذا نظرت إلى حياتنا العامة نظرة الجدد .

(٣)

موقفان

الناس (١) يقولون ويسرفون فى القول ، ويؤكدون ويلحون فى التأكيد أن صاحب المعالي وزير الأشغال لا يحب خزان جبل الأولياء (٢) ،

(١) ١٩٣٣/٣/١١ ، عدد ٢٣٣٠

(٢) لم تكن مصر فى ذلك الوقت فى حاجة إلى إنشاء خزان جبل الأولياء ، فقد هبطت أسعار المحصولات الزراعية هبوطا فاحشا . فاضطرت الحكومة إلى تحديد مساحة الأرض التى تزرع قطننا . وزادت مساحة الأرض التى تزرع قمحا ، وأصبح لدى مصر مليون أردب قمحا زيادة عن طاقتها الاستهلاكية ، وثلاثة ملايين قنطاراً بصلاً . وعجز الفلاح عن دفع إيجار الأرض وعن دفع الضرائب . وتراكمت الديون على أصحاب الأرض وعلى المستأجرين . وكثرت حوادث الإفلاس بين التجار . فلم يكن مقبولا لدى الرأى العام أن تنفق الحكومة أكثر من ١٢ مليون جنيه فى إنشاء الخزان ، ولكن صدقى باشا إرضاء للإنجليز صمم على المضى فى هذا المشروع . قال فى إحدى خطبه (وأما الزعم بأن وجود خزان لنا فى السودان يمكن الإنجليز من أعناقنا ومن حبس المياه لمضايقتنا عند كل خلاف فزعم باطل . أولا لأن الإنجليز إذا أرادوا مضايقتنا فعندهم وسائل عديدة ، وهم ليسوا

ولا يطمئن إليه ، ولا يرى على أقل تقدير العجلة في إقامته وتشيدته ،
وتكلف ما سيتكلفه من النفقات في تلك الإقامة وهذا التشيد ، وفي
هذه الأيام التي تشتد فيها الحاجة ، لا أقول إلى الاقتصاد والتدبير ، بل
إلى البخل والتقتير .

والناس يذكرون لانصراف وزير الأشغال عن هذا الخزان وتنكره
له أسبابا فنية ، أفهم بعضها في مشقة وعسر ، ولا أفهم من بعضها
الآخر شيئا . والناس يزعمون أن وزير الأشغال يرى كما يرى غيره من
الفنيين أن في إقامة هذا الخزان خطرا غير قليل ، وعبثا لاحد له إذا لم
تتخذ ضروب من الاحتياط في مصر ، فتقوى قناطر وجسور ، وتعمق
ترع وتوسع أقنية ، إلى غير هذا الكلام الذي هو أشبه بالعبرية أو السريانية
أو لغات الواق الواق ، ولكنه يرضى خصوم الخزان ويدفعهم إلى المضي
في المطالبة بالعدول عن الخزان ، أو اصطناع الريث والأناة في إقامته .
على أن وزير الأشغال تفضل فأراح أنصار الخزان وخصومه من الجدل
والنضال حول رأيه في إقامة الخزان اليوم أو غدا ، وبعد أعوام ، أو
العدول عنه جملة .

في حاجة إلى وسيلة جديدة . وثانيا لأن ضمير العالم لا يسمح قط لأية أمة أن تحبس
المياه عن أمة أخرى فتسبب لها الجذب والشقاء والفناء . وثالثا لأن في مصر من
المصالح الأجنبية المتشابكة وفي مقدمتها مصالح الإنجليز أنفسهم ما لا يمكن لانبجلترا
أن تفكر في تعريضه للضياع والبوار . إنهم يزعمون أننا مضطرون إلى إقرار هذا
المشروع لأن الانجليز يريدونه ، وإننا ندفع هذا الثمن لهم لبقائنا في الحكم ، على
أنى لا أفشى سرا إذا أعلنت أننا نحن الذين قمنا من ناحيتنا بمهمة إقناع حكومة
السودان والحكومة الإنجليزية بقبول مشروعنا . إن مشروعنا يساعدنا على استصلاح
٣٠٠ ألف فدان في الوجه البحرى ، ٢٥٠ ألف فدان في الصعيد لمشروع جليل
النفع حقا . وهم يعلمون — يعنى المعارضين — أن الكثير من مديريات القطر
المصرى قد اكتظت سكانها ، حتى صار كل ثلاثة أو أربعة أنفس يقومون باستغلال
فدان واحد ، بينما نجد أن لكل نفس في الولايات المتحدة خمسين فدانا .

انظر جريدة الشعب في ١٧/١/١٩٣٢ .

أراح الوزير خصوم الخزان ، لأنه كذب تكديبا صريحا كل ما ذاع
وشاع ، وملاً الأسماع من تردد الحكومة ، ومن رأيه هو قى خزان جبل
الأولياء ، أيقام أم ينام ؟

فلن يتناقش الناس منذ اليوم فى موقف وزير الأشغال من الخزان ،
ولن يحتج به الخصوم والأنصار ، ولن يتكلف الأنصار الحيل والأعذار
للوزير الذى يعمل فى وزارة لا يتفق معها فى رأى ، وفى أشد المسائل
اتصالا به ، بل فى مسألة يجب أن يكون أمرها إليه قبل كل إنسان .

فرغ الناس من هذا كله بهذا البلاغ اللبق الظريف المرن الذى أصدره
وزير الأشغال ، وإن كان الذين يريدون أن يفهموا — ليفهموا ليس
غير ، لا ليخاصموا ، ولا ليؤيدوا ، لم يتبينوا فى جلاء رأى الوزير
فما بينه وبين نفسه ، وفما بينه وبين فنه ، وفما بينه وبين تقديره لحاجة
مصر وطاقها ومنفعتها .

لم يفهم هؤلاء الناس رأى الوزير : أهو من أنصار الخزان أم من
خصومه ؟ وإنما فهموا (وهذا يكفى) من الجهة العملية أن الوزير لا يعارض
ولا يمانع فى إقامة الخزان ، وإنه لم يحل ولن يحول دون الحكومة
وما تريد من ذلك . وهذا معقول ، فقد اتخذت الحكومة قرارها ،
ووزير الأشغال بعيد عن الحكم ، فهو إذن لا يحتمل تبعه هذا القرار .
وقد لا يكون من الظرف ولا من حسن المجاملة أن يأتى فيعطل شيئا أو
يحاول تعطيل شيء مضت فيه الوزارة قبل أن يشترك فيها .

هذا إذن شيء مفروع منه ، أظهر وزير الأشغال موقفه من حيث إنه
وزير ، واحتفظ برأيه الخاص لما بينه وبين الله ، ولعله ذكر وهو يصدر
هذا البلاغ قول الشاعر القديم :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد؟

ولكن الناس لم يكونوا يتحدثون عن وزير الأشغال وحده ، ولا عن مجلس
الوزراء وحده ، وإنما كانوا يتحدثون عن المستشار المالى الإنجليزى أيضاً .

كانوا وما زالوا يقولون ويؤكدون ويلحون في القول والتأكيد إن المستشار المالي يرى أن طاقتنا المالية لا تسمح بإقامة هذا الخزان الآن .
والمستشار المالي كوزير الأشغال له بالطبع موقفان قد يتفقان فيصبحان موقفاً واحداً . وقد يختلفان فيشتد بينهما الاختلاف ، أحدهما موقفه فيما بينه وبين نفسه ، والآخر موقفه فيما بينه وبين الحكومة التي يعمل فيها ويشير عليها . وقد يكون المستشار المالي ميالاً جداً إلى إقامة الخزان لأنه إنجليزي لا يستطيع أن يهمل منافع الإنجليز ، ولأن يحو العاطفة الإنجليزية من نفسه . والناس يقولون إن للإنجليز في إقامة هذا الخزان منفعة واضحة لا تحتل الشك ، ولكن المستشار المالي رجل يقدر فيما يظهر موقفه الفني وما يقتضيه هذا الموقف من النصيح والأمانة ، وهو يعلم أن المستشار مأمون ، فيظهر أنه لم يتردد رغم إنجليزيتيه في أن يشير على مصر بالتأني في إقامة هذا الخزان ، لأن طاقتها المالية لا تسمح بمثل هذه المغامرة الآن .

يعجبني جداً هذا النحو من الشجاعة الذي يتيح للرجل أن يحب الشيء ويتمناه ، ويحرص عليه ولا يتردد مع هذا ، بل رغم هذا في أن ينصح بالعدول عنه ، لأن الأمانة الفنية تأمره بذلك ، فهو يؤثر أمانته الفنية على إرضاء ميوله الخاصة وعواطفه القومية . والناس يؤكدون ويلحون في التأكيد أن المستشار المالي قد وقف من خزان جبل الأولياء موقفاً أقل ما يوصف به أن فيه نصيحة للحكومة المصرية بالترث والأناة .

وليس يعني أن يكون المستشار المالي قد قدم هذه النصيحة وهو يتمنى أن تقبل لتتحقق منفعة مصر ، أو ترفض لتتحقق منفعة الإنجليز ، وإنما الذي يعني أنه قدم هذه النصيحة بالفعل ، وأنه أظهر للحكومة المصرية منذ قدم نصيحته هذه واجبها واضحاً جلياً .

وقد يكون من الحق على الحكومة لنفسها أولاً ، ولمصر ثانياً وللإنجليز ثالثاً أن تصدر بلاغا تريح الناس فيه من الكلام حول موقف المستشار المالي في هذه المسألة ، كما أراحهم من الكلام حول موقف وزير الأشغال .

فهل نصبح المستشار المالى بالتأني في إقامة الخزان ، فإن كان الجواب :
نعم ، فيجب أن يعلمه الناس ، ويجب أن تبين الحكومة حججها أو
معاذيرها في الإعراض عن هذه النصيحة . وإن كان الجواب : لا ،
فيجب أن يعلمها الناس حتى لا يوصف المستشار المالى بغير ما فيه ، وحتى
لا تهم الحكومة بأنها تعرض عن نصيحة قد يكون فيها الخير ، وبأنها
تميل إلى إرضاء الإنجليز أكثر مما يميل الإنجليز إلى إرضاء أنفسهم .

لقد أزعج الحزبان المؤتلفان رئيس الوزراء على حاجته الشديدة إلى
الراحة والهدوء ، حين ثارت الخصومة في مجلس النواب بين الاتحاديين
والشعبيين حول إعانة الأوبرا ، ونستطيع أن نؤكد للحكومة أن موقف
المستشار المالى من خزان جبل الأولياء له خطره ، وهو خليك بأن يتحدث
فيه إلى رئيس الوزراء - على شدة حاجته إلى الراحة والهدوء - وهو
خليق أن يسأل رئيس الوزراء عن الطريقة المثلى المعقولة التي ينبغي أن تسلك
لتجليته وتوضيحه أمام الرأى العام .

لقد كان وزير الأشغال لبقا ظريفا في بيان موقفه هو ، ولكن بيان
موقف المستشار المالى يحتاج فيما يظهر إلى لباقة رئيس الوزراء نفسه . فلعلنا
نقرأ اليوم أو غدا بلاغا يكشف للناس عن وجه الحق في هذه المسألة : أقال
فيها المستشار شيئا أم لم يقل ؟ فإن تكن الأولى فإذا قال ؟

(٤)

كلام

أما أن نقول ونكثر القول فذلك شيء يسير ، وربما كان محببا إلى
النفوس ، وأما أن نجتمع ونعدد الاجتماعات فذلك شيء شاق بعض الشيء ،
ولكن السبيل إليه سهلة أيضا ، وله مزاياه ، فقد نلتقي وقد يتحدث بعضنا
إلى بعض ، وقد تتاح لنا فرصة القول والإكثار فيه .

وأما أن ننشر أخبار الاجتماعات وما كان فيها من كلام فأمر لا بد منه
ليعلم الناس أنا لا ننفق أوقاتنا في لعب وعبث ولكننا نجتمع ونلتقى ونسعى
إلى هذا الاجتماع من أقصى أطراف المدينة ، ثم نتكلم ونتحمس ونصفق
للكلام والحماسة ، ونتفق على وجوب الكلام والحماسة ، ونجمع على قرارات
فيها الإنكار والاحتجاج ، ثم ننتخب من يبلغ القرارات والاحتجاجات
ويسعى هؤلاء إلى الوزراء والرؤساء ، وينشر سعيهم وحديثهم وما تلقوا من
إقبال وإعراض .

كل هذا نفعله ، وكل هذا نرغب فيه ونحرص عليه ، وكل هذا
يراه القراء فيرضون ويعلنون الرضى ، أو يسخطون ويكتمون السخط ،
وكذلك أدت الصحافة واجبها ، وقامت بحق زميلها السجين ، ودافع
الصحفيون عن أنفسهم يوم تلور عليهم الدائرة ، وتدول من حولهم الدول ،
ويتعرض كل واحد منهم لمثل ما يتعرض له توفيق دياب الآن ، وماتعرض
له غيره من قبل .

أما وزير الحقانية فيبتسم ويترك ، ثم يرفع رأسه ويقول كلاما قديكون
حلوا ، وقد يكون مرا ، ولكنه يدع توفيق دياب حيث هو ، ويبقيه
فيما هو فيه .

وأما رئيس النواب ووكيل الشيوخ فيتظرفان ويتلطفان ويقولان كلاما
قد يكون عذبا سائغا ، وقد يكون ملحا أجاجا ، ولكنه يدع توفيق دياب
حيث هو الآن ، ويبقيه فيما هو فيه . ويعرض الصحفيين جميعا لمثل ما يلقاه
هذا الصديق .

وأما النواب فمنهم من يظهر العطف ، ومنهم من يظهر الاستهزاء ،
ومنهم من يظهر الشماتة ، ولكنهم جميعا يحبون الأناة ، ولا يرون بأسا بأن
يظل توفيق دياب حيث هو الآن ويبقى فيما هو فيه ، وأن يتعرض الصحفيون
لمثل ما يتعرض له .

ولكن هناك قوة أخرى لا تدع توفيق دياب حيث هو ، وهى قوة الآلام والمرض التى قد تلح على صحته فتضئها ، ولكن هناك قوة أخرى لا تبسط سلطانها على توفيق دياب وحده ، وإنما تبسطه على قوم آخرين ، هم أسرة توفيق دياب وأصدقائه وزملاؤه الذين يألمون ويشفقون على تفاوت فى الألم والإشفاق . ولكن هناك شيئا آخر قد يكون أعز من توفيق دياب ، وقد يكون أحوج إلى أن يدافع عنه من توفيق دياب ، وهو كرامة الرأى والصحافة التى تتمهن حين يعامل المفكرون والصحفيون معاملة اللصوص وقطاع الطريق العام : كل هذا فى حاجة إلى أن يعمل الصحفيون شيئا ، ولكن الصحفيين قد اجتمعوا غير مرة ، وخطبوا غير خطبة ، وقد زاروا الوزراء والرؤساء ، وقد نشروا فى الصحف أنباء هذا كله ، وهم يرون فيما يظهر أن هذا يكفى . أما الحقائق الواقعة فترى غير ما يرون ، فما زال توفيق دياب حيث هو يعامل معاملة المجرم العادى ، وما زالت كرامة الصحافة ممتحنة تدعو الصحفيين إلى استنقاذها من هذه الذاة ، وما زال شرف الصحفيين المصريين معرضا لسخرية الصحفيين الأجانب ، وما زالت حاجة الصحفيين المصريين إلى التضامن الصحيح الذى يقوم على الشعور الصادق بكرامة المهنة وكرامة النفس ، وحق الرأى فى أن يحترم ، ما زالت هذه الحاجة قائمة ، ولن يرضيها الكلام .

وإذن فما الذى يرضيها ؟ وما الذى يجب أن يصنع ؟

الذى يرضيها والذى يجب أن يصنع شئ يسير ، يسير جدا ، لا خروج فيه على نظام ، ولا مخالفة فيه لقانون ، وإنما هو شئ طبيعى مألوف يعمل به الصحفيون جميعا إذا أهدرت حقوقهم ، أو انتهكت كرامتهم أو أبست السلطات أن تنصفهم . وهذا الشئ عقلا يحقق للصحافة ما تريد ، ولكنه يشعر السلطة ويشعر الشعب أن الصحافة قوة حقيقية ، لا تتكلم فحسب ، ولا تتخذ الكلام غاية لوجودها ، وإنما هى تتكلم لأنها ترى الكلام وسيلة إلى العمل .

هذا الشيء يحتاج إلى شجاعة يسيرة ، وتضحية يسيرة ، و شيء يسير جدا من الإيثار (١) الذي هو أقرب إلى الأثرة ، هذا الشيء هو احتجاج الصحف يوما أو أياما ، ولكنى واثق بأن الصحف لن تحتجب لأنها لن تتضامن مع الأسف الشديد في تقدير ما يصيب كرامتها من الذلة والامتهان .

يوم تشعر الصحافة بكرامتها شعورا قويا واضحا يمكنها من التضحية ، ويهون عليها الاحتجاب يوما أو أياما تتخذ كل وسيلة لإرضائها ، وتقرير حقوقها ، وتصبح خليقة في مصر بأن تسمى كما في غير مصر صاحبة الجلالة الصحافة . فأما قبل هذا فلتسم نفسها ولتسمها أنت بما شئت وشئت من الأسماء .

(٥)

عناد

زعم المصريون أن المستشار المالي نصح للحكومة المصرية ألا تتعجل إنشاء خزان جبل الأولياء ، ثم أكد المصريون هذا الزعم وجعلوه يقينا ، ثم نشرته الصحف وطلبت وطلبنا معها إلى الحكومة أن تبين للناس وجه الحق فيه . وقد أخذ الانجليز يزعمون وينشرون كما كان المصريون يزعمون وينشرون أن المستشار المالي لا ينصح بالمضي في هذا المشروع الآن . وكل شيء يدل على أن الانجليز سيستيقنون بعد ما زعموا كما زعم المصريون ثم استيقنوا ، وإذن فنن المحقق (إلى أن تقول الحكومة المصرية غير هذا) أن الرجل الذي تصر الحكومة الانجليزية على بقاءه في منصبه بمصر رقيبا على تصرفات مصر المالية ، لا يريد أن يحتمل تبعة الصمت على هذا التصرف الغريب في هذه الأزمة المنكرة ، ومعنى هذا كما قلنا من قبل أن المستشار الانجليزي لا يتردد في أن يقهر عواطفه الانجليزية ، ويعرض عن المنافع الانجليزية ، ويعلن إلى الحكومة رأيه مكتوبا ، وهو النصح بتأجيل المشروع الآن .

(١) الإيثار : أن تقدم مصلحة الآخرين على مصلحتك . والأثرة : حب الذات

(١) ١٣/٣/١٩٤٣ عدد ٢٣٣٢

كل هذا حق إلى أن تنفيه الحكومة نفيًا صريحًا واضحًا ، لا يحيط به من الغموض والإبهام مثل ما أحاط بموقف وزير الأشغال من هذا المشروع . وإذن فقد تمضى الحكومة في إنشاء الخزان دون أن يحتمل الإنجليز في ذلك تبعه ما ، بعد أن نصح ممثلهم الرقيب على تصرفاتنا المالية بالتريث والأناة نصحا لا لبس (١) فيه ولا غموض . فإذا كانت هناك تبعه فمصر الرسمية وحدها هي التي تحتمل هذه التبعه ، لأن الشعب قد كره المشروع وأعلن كرهه وألح في العدول عنه أو في تأجيله ، ولأن الإنجليز على حبهم للمشروع وكلفهم به وانتظارهم المنافع المختلفة من ورائه ، قد نصحواعلى لسان المستشار المالى بتأجيله والتريث فيه . وليس يعنينا كما قلنا من قبل أن تكون نية الإنجليز صادقة أو غير صادقة حين قدموا هذا النصح ، ولا أن يكون هذا النصح ملائما أو غير ملائم لأمانهم ودخائل نفوسهم . وإنما الظاهر من أمرهم الرسمي وحده هو الذى يعنينا . وإذا كان الشعب المصرى الذى سينفق على هذا المشروع والذى سيحتمل آثاره الضارة أو سينعم بآثاره النافعة ، يكرهه ويلح في العدول عنه ، وإذا كان الإنجليز أنفسهم ينصحون بتأجيله واصطناع الأناة في تنفيذه ، فمن الحق على كل عاقل أن يسأل : واذن فما مضى الحكومة في هذا المشروع ؟ ولما تريد الحكومة أن تقيم الخزان وقد كرهه المصريون وأظهر الإنجليز الزهد فيه ؟ من الحق على كل عاقل أن يسأل هذا السؤال ، ومن الحق على الحكومة أن تجيب على هذا السؤال ، وأن تجيب عليه في صراحة ووضوح . ونظن أن الحكومة توافقنا على أن ذلك العصر الذى كانت تكره فيه الشعوب على ما لا تريد إكراها ، والذى كان ساداتها وقادتها يعلنون فيه أنهم ينفعونها رغم أنوفها ، ويحققون لها الخير على كره منها ، قد انقضى وعفت آثاره ، وأصبحت الشعوب الآن تقدر حقها في أن تريد أو لا تريد وفي أن تنتفع أو لا تنتفع ، وقد عصفت الحياة الحديثة بعصمة السادة والقادة ، وتترهبهم عن الخطأ فأصبحوا رجالا كغيرهم من الناس ، لا تكسبهم المناصب

(١) الأصل لبث ، ولعل الصواب ما أثبتناه

سيادة على الأمم ، ولا تمكن لهم في الأرض ، ولا تتيح لهم أن يكرهوا الشعوب على ما لا تريد ، أصبحوا قوماً تأجرهم الشعوب ليحققوا لها آمالها ومنافعها العامة كما تريدهي ، لا كما يريدونهم . فإن اتفقت آراؤهم مع آراء الشعوب فذاك ، وإلا وجب عليهم الإذعان لرأى الشعوب والتخلي عن مناصبهم .

انتقلت السيادة من الحكام إلى المحكومين في هذه الأيام ، وأصبح المحكومون هم السادة ، وأصبح الحاكمون عمالا ، يعملون بأمرهم وينفذون قضاءهم ، وأنا أعلم أن هذا كلام قد تبسم له الحكومة في شيء كثير من الاستهزاء والسخرية ، لأنها لا ترضاه ، ولا تؤمن به ، ولكني أعلم أيضا أن هذا الكلام هو وحده الذي يرضاه الشعب ويؤمن به ، ويطمئن إليه ، ويراه مرآة صادقة لما يملأ نفسه من الشعور بسيادته وحقه الخالص في الإشراف على الأمور العامة .

الشعب إذن لا يريد هذا الخزان الآن ، والانجليز لا يلحون فيه ، ولا يصرون عليه ، فلننقذه الحكومة ؟

ولندع النظريات ، فلو قد مالت الحكومة إلى تصور الصلة بينها وبين الشعب على هذا النحو الذي وصفناه ، والذي يقوم على سيادة الشعب وحده لأراحت نفسها من اللوم المتصل ، ولأراحتنا نحن من عهدتها هذا الطويل السعيد ، ولتخلت عن الحكم ومناصبه منذ عهد بعيد .

لندع إذن هذه النظريات ولنسأل الحكومة عن الفائدة العملية التي تنتظرها هي لنفسها من إقامة هذا الخزان بعد أن ظهر في وضوح وجلاء أن الأمة لا تنتظر الآن منه خيرا ، إنما تقدم الحكومة على الأعمال الخطيرة لأمرين : إما لتحقيق منفعة شعبية عامة ، وإما لتحقيق منفعة سياسية خاصة ، فما هذه المنفعة السياسية الخاصة التي تزيد الحكومة تحقيقها بإقامة هذا الخزان ؟ كان الناس يقولون إن الحكومة تتقرب بهذا الخزان إلى الإنجليز لتستطيع الوزارة أن تبقى في مناصبها ، ولكن الإنجليز لا يلحون الآن في هذا الخزان ، فهل ترى الحكومة أن من الكرامة أن تسرف في الإلحاح إلى حيث تضع نفسها

موضع الذى يريد أن يكره الإنجليز على تحقيق منافعهم ، ويأخذهم بقضاء
مآربهم السياسية رغم أنوفهم ؟ وهل من المصلحة السياسية الخاصة للحكومة
عند المصريين وعند الإنجليز أنفسهم أن يقال عنها إنها تحرص على المنافع
البريطانية أكثر مما تحرص عليها بريطانيا العظمى نفسها ؟

لست أدري أتجد الحكومة أم تهزل ؟ فليس فى إصرارها على إقامة
الحزان رغم المصريين ورغم النصيحة الإنجليزية الرسمية شىء من الجد ، وليس
هذا الموضوع مما يصلح للهزل ، فبالله من هزل هذا الذى يعرض مالية
الدولة للاضطراب .

لوزير الأشغال كلمة لا تخلو من ظرف ، ولكنها لا تخلو من عبرة
وعظة . قال لبعض الصحافيين الذين تحدث إليهم منذ أيام « هاتوا لنا مياه
بمقدار أربعة أمثال ما عندنا الآن ، ونحن نعرف كيف نوزعها »

ومن المؤكد أن وزير الأشغال لن يضيق بأضعاف ما عندنا من الماء ،
وأى شىء أيسر من التوزيع والتبديد ، والحكومة تقيم فى كل يوم أدلة
واضحة قاطعة على أن التوزيع نفسه ليس معجزا ، ولا شاقا ، وإنما المعجز
الشاق هو التوزيع المنتج الذى يفيد . إن الحكومة توزع أموال الدولة حتى
تحتاج إلى أن تستدين وهى قادرة على أن توزع ما تستدين حتى تضطر
إلى أن تستدين مرة أخرى . ويستطيع وزير المالية بالأصالة ، أو وزير
المالية بالنيابة أن يقول هاتوا لنا أضعاف ما عندنا من المال ونحن نعرف
كيف ننفقه . ليس شىء أيسر من الإنفاق ، ولكن المسألة هى أن نعرف
أنافع هذا الإنفاق أم ضار ؟ أمفيد هو أو غير مفيد ؟ تستطيع المياه أن تكثر
فقد يمهدها الطريق إلى البحر ، وقد يمهدها الطريق إلى الصحراء ، وقد
ترك لها الحرية فتطغى وتهلك كل شىء ، ولكن المسألة التى لم يقل فيها وزير
الأشغال شيئا ، هى قدرته أو عجزه عن توزيع هذه المياه بحيث تبعث
فى أرض مصر الحصب والثروة .

والظاهر الذى يقال إن وزير الأشغال كان يؤمن به فى وقت من
الأوقات أن هذا التوزيع المنتج المفيد ليس بالشىء اليسير الآن على أقل

تقدير . ما أجدر وزير الأشغال ، وقد جعلت الظروف إليه أمر وزارة المالية في هذه الأيام أن يفكر في إتفاق المال إذا كان يسيرا ، فتمد يكون جمعه من العسر والمشقة أحيانا بحيث يضطر الحكومات والأمم إلى الإفلاس ، وما أجدره وقد جعلت إليه الظروف شئون المالية ألا يمهّد بيده سبيل مصر إلى هذا الشر الذي يشفق منه المستشار المالي الإنجليزى فينصح للحكومة بالانتظار .

(٦)

الشهداء

كنا (١) طلابا في باريس ، منا من بدأ الدرس منذ أشهر ، ومنا من ينتظر إتمام الدرس بعد أشهر . منا حديث العهد بمصر ، فارقها آخر الصيف ، ومنا بعيد العهد بمصر ، فارقها قبل أن تعلن الحرب الكبرى . منا من طال به المقام في بلاد الغرب ، وفي أعوام كلها صروف وخطوب وظروف كلها محن ونوب ، فهو مشوق إلى أن يعود إلى وطنه وقد أدى عمله أداء حسنا ، وأرضى حاجته من العلم والتحصيل ، واعتقد أنه قادر على أن يعود لينفع بلاده ، ويحيى فيها ما تنقصه الحياة ، ومنا من يستقبل الحياة الغربية على جهل لها وشوق إليها ، وأمل في أن يستقبل خيرا ، ويفيد خيرا ، ويعود إلى وطنه وقد ملأ يديه مما ينفع الناس ويحيى الآمال . وكانت الحياة من حولنا قد أخذت تهدأ وتستقر ، وانقضت الحرب بالمدافع وما إليها من أدوات التدمير والإهلاك ، واضطربت حرب الألسنة والأقلام حول معاهدات الصلح ونظم السلام . وكانت الأمم قد أمنت على ما بقى من نفوسها ودمائها ، ولكنه أمن مضطرب شديد القلق ، فيه خوف أن تضاف إلى هزيمة الحرب هزيمة الصلح ، فتموت الآمال ، ويستأثر اليأس بالقلوب . وفيه خوف أن لا يعقب الانتصار في الحرب انتصارا في السلم ، وأن تذهب عبثا تلك الجهود الهائلة التي بذلتها الأمم المنتصرة من الأنفس والأموال ، ومن الآماني والآمال في سبيل الانتصار الشامل .

وكنا نحن المصريين في هذا كله نعيش عيشة هادئة مطمئنة ، ولكنها لا تخلو من ذلة وانكسار . كنا مضطربين بين الإنجليز الغاصبين في مصر ، المتصرين في أوروبا ، والترك الذين كانوا أصحاب السيادة في مصر ، وكانوا يتجرعون مرارة الهزيمة في بلادهم . وكنا نود لو نقضنا عن أنفسنا سيادة هؤلاء الإسمية ، وسلطان أولئك الفعلى ، وقلنا إننا مصريون فحسب ، ولكننا لم نكن نجد إلى هذا سبيلا .

وكانت الإدارة الفرنسية تراقب الأجانب وتسيء الظن بهم ، وترسل إليهم من حين إلى حين من رجال الشرطة من يزورهم ويفتش عن أحوالهم ، وتدعوهم من حين إلى حين إلى الأقسام فتتظر في أوراقهم وتسال عن أعمالهم ، ثم تردهم موفورين .

ومها أنس فلن أنسى يوما دعيت فيه إلى القسم لتنظر الشرطة في أوراقى ، وتسال عن أعمالى . فلما أخذ المأمور يتحدث إلى سألنى عن جنسيتى ، قلت : مصرى . قال : وإنما أسأل عن تبعيتك . قلت : مصرى . قال : ما نعرف أن لمصر هذه المنزلة . قلت : فلست أعرف لى تبعية أخرى . ففكر قليلا ثم قال فى صوته الفرنسى الضخم ، وكأنه قد ظفر بشيء غريب ، لقد عرفت . أنت رعية مصرى ، وحماية إنجليزى . وخرجت محزون القلب ، منكسر النفس ، كاسف البال ، تدور فى رأسى هذه الجملة ، وكأنها العجلة المحددة الأطراف تمزق ما تدور فيه . « أنت رعية مصرى ، وحماية إنجليزى » .

ولقيت آخر النهار نفرا من زملائى المصريين فأقص عليهم هذه القصة ، فإذا كلهم قد سئل هذا السؤال ، وسمع هذا الحديث ! ونحن نحس هذا الألم اللاذع الذى تجده القلوب وتعرب عنه الألسنة ، وتعجز الأيدى عن أن تدفعه أو تغيره .

كذلك كنا فى باريس بعد أن أعلنت الهدنة ، ووضعت الحرب أوزارها ، ولكن أنباء تصل إلينا من مصر تهتز لها رءوسنا وأكتافنا

فتعرب عن هذا اليأس الحزين الذى يشعر به من يرى الأمل السامى العريض ويعلم من نفسه العجز عن بلوغة والوصول إليه . وتتصل الأنباء ، ثم تتصل ، وإذا هى كلما اشتد اتصالها اشتدت قوتها ، وإذا هى لا تهز الرءوس ولا الأكتاف ، وإذا هى ترسم على الثغور ابتسامة يسيرة ، وتبسط على الجباه نورا ضئيلا ، ثم تتصل الأنباء وتقوى فتزداد الابتسامات سعة وبهجة ، ويزداد نور الحياة جمالا وإشراقا ، وتنطلق الألسنة بأحاديث قصار تتردد فيها « ليت ولو » وتختتمها هذه الكلمة الحلوة المرة فى مثل ما كنا فيه : من يدري ؟ ثم يأتى النبأ العظيم فإذا الابتسام ضحك ، وإذا الوجوه كلها إشراق ، وإذا السكون حركة ، وإذا الجمود نشاط ، وإذا نحن سرور كلنا ، وابتهاج كلنا ، يسعى بعضنا إلى بعض ؟ ماذا أقول ؟ يسرع بعضنا إلى بعض فيقبل بعضنا بعضا ، ويهنئ بعضنا بعضا ، وتجري على هذه الوجوه المشرقة دموع حارة ، ولكن فى حرارتها برد الأمل والرجاء .

مصر ثائرة ، مصر تقاوم الانجليز ، مصر تهض فى وجه أوربا المنتصرة ، تطلب إليها البر بالوعد ، والوفاء بالعهد . مصر تقدم زعماءها إلى النفى . مصر تعرض صدور أبناءها إلى الرصاص . مصر تخضب أرضها بدماء المصريين . والصحف الفرنسية تنشر هذا بالحروف الضخمة والخط العريض ، وتتحدث عن هذا فتوجز وتطيل ، ورءوسنا نحن قد ارتفعت كأن لها حاجة فى السماء ، وقد استقامت ، تلقى الفرنسيين فتسألهم باسمه : ماذا تقولون فى أبناء مصر ؟ أو تحتفظ بالصمت عن هذه الأنباء ، وتدور بالحديث حتى تجره إليها لبيدأ الفرنسى فيقول : حدثنى ماذا تنشر الصحف عن بلادكم ؟ إن عندكم لثورة وما أظن إلا أن سيكون لها خطر . وكنا حينئذ نفيض فى الحديث عن هذه الثورة ، ولعل منا من لم يكن يتخرج عن المبالغة والإغراق ، ثم يصل الوفد إلى باريس ، وإذا نحن نهرع إليه ، ونستمع منه ، وإذا نحن لا نسمع منه إلا أحاديث كلها ابتهاج بما كان ، وأمل فيما سيكون ، وإعجاب بمصر اليوم ، وثقة بمصر غدا .

رحم الله شهداء سنة ١٩١٩ ، لقد صغرت حياتهم في نفوسهم لنكبر
نحن في نفوسنا . لقد ماتوا فأحيانا موتهم .

رحم الله الشهداء . لم يكن أحد منهم يفكر في أحد منا ، بل لم يكن
أحد منهم يعرف أحدا منا ، إنما كانوا يفكرون في مصر ، ويعرفون
مصر ، ويبدلون نفوسهم في سبيل مصر . وكنا نحن نحيا بهذا كله ، بل
بأنباء هذا كله .

في ذمة الله ، وفي سبيل الوطن هذه الأرواح الطاهرة الكريمة التي
ذهبت فداء لاستقلال مصر وكرامتها ، وشقت لها طريقها إلى المجد والعلاء
في هذا العصر الحديث ، فقد اختلفت علينا ظروف الحياة ، وستختلف
علينا ظروف الحياة . لقد لقينا الخير والشر ، ووجدنا الرضا والسخط ،
وسنلقى هذا وذاك ، وسنأخذ بحظنا من هذا وذاك ، ولكننا ذكرنا دائماً ،
وسنذكر دائماً أن هذه الأرواح الطاهرة الكريمة هي التي أذاقتنا طعم العزة
القومية لأول مرة ، وهي التي أنبأتنا فأقنعتنا بأننا نستطيع أن نكون كغيرنا
من الناس أعزاء كراما مستقلين .

شهداء حقاً هؤلاء الذين ذهبوا في سبيل مصر سنة ١٩١٩ ، وشهداء
حقاً هؤلاء الذين قفوا آثارهم بعد ذلك ، فماتوا كما مات هؤلاء في سبيل
الحرية والعزة والاستقلال . هم شهداء لأنهم ضحوا بنفوسهم وآمالهم في
سبيل فكرة ، هي فكرة الاستقلال . وهم شهداء لأنهم اندفعوا إلى
هذه التضحية بهذه العاطفة الدينية المقدسة التي لا يقف في سبيلها شيء ،
والتي لا ترد في أن تتخذ الأخطار مهما تعظم وسيلة إلى الفوز ، ومصعبدا
إلى المثل الأعلى .

هم شهداء لأنهم مجهولون ، هم شهداء لأنهم مغموطون . ألسنت
تري أنهم ما يزالون مضطهدين إلى الآن ؟ ألسنت تري أن السعي
إليهم يحذر ؟ وأن التحدث عنهم لا يجب وأن ذكرهم يخاف منه على
النظام ؟

هم شهداء يوم لقوا الموت ، وهم شهداء يوم تلقى ذكراهم ألوان
الاضطهاد . أرواحهم في جنة الخلد ، وذكراهم في قلوب المصريين
جميعاً . ولئن حيل بين الناس وبين ما يريدون من إقامة هذه الحفلات
والمنظائر التي لا تنفع الشهداء أنفسهم ، وإنما تنفع الناس لأنها تحيي فيهم
هذه العواطف المقدسة التي يجب على كل حكومة وطنية أن تحياها ،
عواطف الحب للوطن والتضحية في سبيله ، فإن تحول قوة في الأرض
بين قلوب الناس ، وبين إحياء هذه الذكرى . ستعمر قلوب الناس
بهؤلاء الشهداء دائماً ، وسيظل هؤلاء الشهداء أمام نفوس الناس دائماً
مثلاً علياً لافتداء الوطن بأعز شيء عليهم حتى الحياة .

(٧)

استقلال

ولست (١) أريد الاستقلال السياسي ، فحديث الاستقلال السياسي
لا ينقضي ، ونحن فيه كل يوم حتى يتحقق هذا الاستقلال بالفعل ، وحتى
تصبح أمور مصر إليها حقاً .

إنما أريد استقلال الجامعة ، فقد يظهر أنه غير مفهوم على وجهه ، إما
لأن كثيراً من الناس حديثو عهد بالجامعات ، وهم لا يكادون يعرفون من
أمرها شيئاً ، وإما لأن فريقاً من الناس يسرفون في خداع الجمهور وتضليله
ويصورون له الأمر على غير صورته الواقعة التي ترى في كل بلد له حظ
من النظام الجامعي الصحيح . وأن شئت فقل إن هذين الأمرين جميعاً هما العلة
في أن الناس لا يفهمون استقلال الجامعة كما ينبغي أن يفهم . وهؤلاء الناس
أكثر جداً مما تظن ، فهم لا يقيمون عند قراءة الصحف وجماعة المثقفين الذين

(١) ١٧/٣/١٩٣٣ عدد ٢٣٣٦

يستطيعون أن يتحدثوا في الأمور العامة ، بل يتجاوزونهم إلى هؤلاء الذين جعلت إليهم الظروف أمور السلطة التشريعية في هذا البلد ، فقد ظهر من الجدل اليسير الذي أثير حول الجامعة في مجلس النواب أن علم المشرعين بأمور الجامعة والنظم الجامعية ليس أصبح ولا أوسع ولا أعمق من علم عامة الناس . وظهر أن نوابنا أنفسهم ينقسمون إلى قسمين : فريق لا يعرف من امر الجامعة شيئا ، ولا يستطيع ان يعرف من أمرها شيئا ، لأن حياته وتربيته وحظه من الثقافة لا تسمح له بأن يعرف من أمرها شيئا ذا بال . وفريق آخر قد يعلم أو يستطيع أن يعلم من أمر الجامعة شيئا ، ولكن السياسة قد اضطرتة إلى أن يخفى علمه ويصوره تصويرا خاصا لزملائه النواب .

فسألة الجامعة في مصر الآن كغيرها من المسائل سياسية قبل أن تكون علمية ، وهى لا تقوم على النظر إلى العلم من حيث هو ، وإنما تقوم على النظر إلى المنفعة السياسية للذين يشرفون على الأمور عندنا في هذه الأيام . وما دامت المسألة سياسية فالأمر فيها واضح جلى ، لا لبس فيه ولا غموض فأنت تعلم أن هناك مذهبين في السياسة يتنازعان السلطان في مصر : أحدهما مذهب الذين يحكمون الشعب للشعب ، وآخر مذهب الذين يحكمون الشعب لأنفسهم قبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، وفوق كل شيء . وأنت تعلم أن الذين يريدون أن يحكم الشعب للشعب بعيدون الآن عن السلطان ، وأن الذين يحكمون الشعب لأنفسهم هم الذين قد جعلت إليهم أمور الحكم . فن الطبيعى إذن أن ينظروا إلى كل أمر من الأمور من حيث إنه يلائم مذهبهم في السياسة أو لا يلائمها .

وهم إذا نظروا إلى استقلال الجامعة من هذه الناحية لم يترددوا في أن كل استقلال يترك للجامعة خطر عليهم ، يقص من أجنحتهم ، ويقلم من أظفارهم ، ويقبض سلطانهم قليلا أو كثيرا . فلا بد إذن من أن يضيق حظ الجامعة من الاستقلال ما كان إلى التضيق سبيل . وكذلك فعلت الحكومة حين عدلت قانون الجامعة الذى أصدره البرلمان القديم ، وكذلك فعل مجلس النواب حين أقر هذا التعديل منذ يومين أو ثلاثة كما كان يريد الوزير .

وأغرب ما في أمر هذا التعديل أن اللجنة البرلمانية في مجلس النواب درست هذا التعديل ، ووضعت عنه تقريراً رفعت به إلى المجلس ، فخدعت نفسها ، أو خدعها ممثل الوزارة أمامها عن نظام الجامعات في أوروبا ، ونشأ عن هذا أنها خدعت مجلس النواب نفسه ، وأكبر الظن أن كثيراً من أعضاء المجلس لم يقرأوا التقرير . ولم يقرأونه ؟ وهم يثقون باللجنة ، ويعلمون أنها لن تخدعهم ولن تخدع نفسها ، ويثقون بالوزير ويعلمون أنه لن يطلب إليهم إلا ما ينبغي أن يطلب ، ولن يقول لهم إلا ما ينبغي أن يقال ، ولن يأتي من الأمر إلا ما يوصل إلى تحقيق السياسة التي ينبغي أن نخضع لها في هذه الأيام . وهي سياسة استئثار القلة الممتازة المعصومة بحقوق الكثرة الجاهلة الغافلة التي خلقت للطاعة ، لا للحكم .

زعمت اللجنة في تقريرها ، أو زعم لها ممثل وزارة المعارف أن الجامعات الأوروبية إذا استتمعت بحظ عظيم من الاستقلال ، لا تستمتع به جامعاتنا ، فذلك لأن هذه الجامعات غنية ، لا تنفق عليها الحكومات ، ولا تستمد أموالها من ميزانية الدول ، فليس ينبغي أن يكون للحكومات عليها سبيل . وهذا مع الأسف غير صحيح إلا في بلاد الإنجليز .

فما لا شك فيه أن الجامعات الفرنسية مثلاً تقوم على أموال الدولة ، وقد توهب لها الأموال ، ولكن هذه الهبات ليست شيئاً بازاء ما تنفق عليها الدولة في كل عام . وهي إذا ظفرت باستقلالها العظيم ، فإنما تستمد من السنن والتقاليد ، وتستمد من فهم الحكومات بحاجة العلم الصحيح إلى الاستقلال ولسمو الجامعات فوق الأهواء والشهوات الحزبية .

ومهما يكن من شيء فقد خيلت اللجنة إلى مجلس النواب أن الحكومة تنفق على الجامعة فيجب أن تسيطر عليها ، ولم تفكر اللجنة ولم يفكر معها المجلس أن الحكومة تنفق على القضاء أيضاً ، وأنها لا تستطيع مع ذلك أن تشرع قانوناً يمكنها من السيطرة عليه ، فالحكومة لا تنفق على الجامعة ، ولا على القضاء من أمورها الخاصة ، لأن الحكومة لا تملك مالا خاصا ،

ولأنما تنفق على الجامعة والقضاء من أموال الأمة التي تملك وحدها أن تسيطر على كل شيء .

ونشأ عن هذا التصور الغريب أن الحكومة صاغت للجامعة قيوداً منكرةً عنيفاً ثقيلاً ، لم يلتفت إليه مجلس النواب ، أو التفت إليه ولم يحفل به ، ولن تجد له شبيهاً في بلد من بلاد الأرض ، ولن تستحق الجامعة معه أن تسمى جامعة ، ولا أن تكون جامعة مصرية وطنية ، ولا أن تؤدي أمانة العلم الخالص الصحيح كما ينبغي أن تؤدي . وهذا القيد هو مجلس الجامعة كما يؤلفه القانون الجديد ، وكما يوزع عليه الاختصاص والسلطان .

كانت الكثرة العظيمة في مجلس الجامعة حسب القانون الذي أصدره البرلمان تتألف من الجامعيين ، فقد كان لكل كلية فيه ثلاثة هم : العميد وعضوان ينتخبهما مجلس الكلية انتخاباً حراً ، لا يتقيد بشرط ، فكان عدد الجامعيين في المجلس اثني عشر عضواً ، يضاف إليهم المدير وهو جامعي أو ينبغي أن يكون جامعيًا على كل حال . فكان للجامعة ثلثا أعضاء المجلس ، وكان هذا المجلس يقضي في أمور الجامعة كلها ، لا راد لقضائه في كثير من الأشياء . وللوزير حق الاعتراض في بعضها ، ولم يكن للوزير على كل حال أن ينفرد بالقضاء في أمر من أمور الجامعة .

أما الآن فلم يتغير عدد الجامعيين في المجلس ظاهراً ، ولكنه في حقيقة الأمر قد أصابه تغير خطر . فقد أصبح وكيل العميد عضواً في المجلس بحكم منصبه ، وقد أخذ الوزير لنفسه حق تعيين الوكيل : فأصبح خاضعاً للوزير خضوعاً مباشراً ، وأصبح عضواً في المجلس بالتعيين ، لا بالانتخاب ، وأصبح العضو الآخر الذي يمثل الكلية مع العميد والوكيل في المجلس ، يشترط فيه أن يكون أستاذاً ذا كرسي ، وأن يؤخذ في المجلس حسب الأقدمية فهو أيضاً عضو معين . ومعنى هذا أن أساتذة الجامعة قد حرموا حق الانتخاب لمجلس الجامعة ، أو ضيق عليهم فيه ، كما ضيق على كثرة الشعب في انتخاب النواب :

فالفكرة السياسية التي أشرفت على تعديل قانون الجامعة ، وهي أن الانتخاب سلاح خطر ، يجب أن لا يوضع في أيدي المصريين إلا بحساب ، وفي ظل مراقبة شديدة ، لأن المصريين سواء منهم العلماء وعامة الشعب أطفال لم يبلغوا سن الرشد بعد ، فيجب أن تقوم الحكومة منهم مقام الوصى .

ولم يقف الأمر عند تأليف المجلس بالقياس إلى الجامعيين ، بل تجاوزه إلى اختصاص هذا المجلس وتصرفه في أمور الجامعة ، وهنا موضع الخطر السياسي المنكر الذي يفقد الجامعة كل قيمة علمية إذا صدر هذا القانون .

ذلك أن هذا المجلس يؤلف مجلسين ، أحدهما جامعي مقيد ، والآخر حكومي مطلق . فأما الأول فهو المجلس الذي أشرت إليه آنفا ، وهو يقضى في الأمور التعليمية الخاصة كبرامج الدرس ونظم الامتحان ، وقضاؤه خاضع لسلطان الوزير . فإذا جد الجد ، وكانت المسائل التي تحتاج فيها الجامعة إلى الحرية والاستقلال ، جاء المجلس الثاني ، وهو يتألف من موظفين ، وموظفين ليس غير . سبعة تختارهم الحكومة ، يضاف إليهم مدير الجامعة الذي تعينه الحكومة ، ويضاف إليهم عمداء الكليات الذين يعينهم الوزير ، والذين يوجهون على قيامهم بعمل العميد . فأما وكلاء الكليات الذين يعينهم الوزير ولكنهم لا يوجهون على وكالتهم ، وأما الأعضاء الآخرون الذين يصلون إلى المجلس بحكم كراسيهم ، فأولئك وشرذلة يقتصون عن المجلس حين يعرض للمسائل ذات الخطر . وعلى هذا النحو تضمن الحكومة أن تسير الأمور في هذا المجلس على ما تشتهي . وأى أمور هي التي لا وجود للجامعة بدونها؟ هي ميزانية الجامعة ، هي التصرف في أموال الجامعة . هي تعيين الأساتذة والمدرسين ونقلهم وترقيتهم وتأديبهم . أرأيت أن السلطة الحقيقية في الجامعة قد جعلت إلى هذا المجلس الحكومي .

فاللحكومة هي التي تقضى وحدها في ميزانية الجامعة ، والحكومة هي التي تختار الأستاذ أو تنقله أو ترقيه أو تؤدبه . فالأستاذ خاضع في حياته

الجامعة كلها لسلطان الحكومة ، لا شيء يضمن له الحرية العلمية ، لا شيء يعصمه من بأس الحكومة وبطشها . فإذا استطاع مع هذا أن يكون حراً في الرأي أو في البحث العلمي فويل له من سلطة الحكومة وتأديب الحكومة .

على هذا النحو عدل تأليف مجلس الجامعة ، وعدلت اختصاصات مجلس الجامعة . ولعلك توافقني على أن أظهر شيء في هذا التعديل إنما هو استئثار الحكومة بالسلطان . وهذا شيء لا غرابة فيه ما دامت قاعدة السياسة المصرية الآن هي أن الحكومة إنما تحكم الشعب لنفسها ، لا للشعب ، فليس سلطانها أداة شعبية توجه إلى خدمة المصالح العامة ، وإنما هو أداة حكومية توجه إلى تمكين الحكومة من السيطرة على كل شيء .

أفهمت الآن سر هذا الكيد الذي يدبر للجامعة منذ تغير في مصر نظام الحكم ؟ كانت الجامعة واسعة على مصر ، كما كان الدستور واسعاً على مصر وقد ضيق الدستور ، فليضيق نظام الجامعة .

إن الذين يسمون حين يذكرون وزير التقاليد ، لأنهم يعرفون أنه رجل طيب القلب ، يسير التفكير ، قد لا ينفذ عقله إلى هذه السياسة العميقة ، خليقون أن يفكروا في أن أطيب الناس قلباً ، وأيسرهم تفكيراً ، وأقلهم نفاذ بصيرة قد يستطيع أن يكون أداة للسياسة الخطرة على النظم الديمقراطية وعلى حرية الشعوب إذا وجد الرجل الذكي الذي يسيّره فيحسن تسييره ، ويوجهه فيحسن توجيهه إلى ما يريد .

وقد وجد هذا الرجل الذكي الذي استكثر الدستور فضيقه واستكثر الجامعة فضيق نظامها ، وأحسن تسيير وزير التقاليد لما أراد ، وأصبحت الجامعة كما ترى شيئاً ينتفع باسمه في الإعلان ونشر الدعوة ، ولكنه عاجز كل العجز عن أن يؤدي أمانته العلمية كما تؤذيها الجامعات .

نعم ، وجد الرجل الذكي الذي أحسن توجيه وزير التقاليد ، ومن الذي يستطيع أن يشك في ذكاء رئيس الوزراء ، ومن يعين رئيس الوزراء ؟

(٨)

ائتلاف

لم أصدق (١) في يوم من الأيام أن لرئيس الوزراء حزبا سياسيا يمكن أن يسمى بهذا الاسم ، ولم أحسب في يوم من الأيام حسابا لما يسمونه حزب الاتحاد ، ولم أعتقد في يوم من الأيام أن هذه الجماعات التي تظهر الوزارة القائمة أنها تعتمد عليها وتعز بها ، جماعات منظمة حقا ، تقوم نظمها على أصل من أصول السياسة التي تسير الأمم والشعوب في طريق من طرق الرقي المعتدل أو المتطرف ، إنما هي جماعات تتألف من أفراد لهم مآرب ومنافع يتحقق بعضها من تولى مناصب الحكم ، ويتحقق بعضها الآخر من الاتصال بالذين يتولون مناصب الحكم ، فكل امرئ سمحت له الظروف أن يشرف على تدبير الأمور في مصر ، ووجد من الإنجليز رضى وتأيدا ، أو إهمالا وإغضاء فهو قادر على أن يؤلف هذه الجماعات ، وهو قادر على أن يفرقها ، وهو قادر على أن يعزها ويوليها النعمة والعطف ثم يظهر بعد ذلك أنه يعز بها ويعتمد عليها . وهو حين يظهر ذلك يعلم حق العلم أنه لا يخذع أحدا ، ولا ينخيل إلى أحد صحة ما يظهر ، أو صدق ما يقول .

ولو أن رئيس الوزراء بداله فرأى أن يتخذ أنصاراً وأعواناً آخرين مكان من يسميهم اليوم أنصاره وأعوانه لما استطاع حزب الشعب أن يتنكر له ، ولما استطاع حزب الاتحاد أن يبدى له صفحا أو يظهر عليه سخطا . وآية ذلك أنه غضب على ثلاثة من أعوانه وزملائه السابقين ، أحدهم كان

وكيلا لحزب الاتحاد ، وكان روحه وقلبه وعقله ، والآخرون كانوا فيما يقول الناس زعيمين عظيمين من زعماء حزب الشعب ، غضب عليهم رئيس الوزراء فأخرجهم من وزارته ، ولم تذبذب في إخراجهما من هذه الوزارة عزان ، كما يقول المثل القديم .

فأما حزب الاتحاد فأذعن ورضى ، ولم يكتف بالإذعان والرضى ، بل خذل وكيلا ، ولفظ روحه ، وجاد بنفسه ، وقبل استقالة ماهر باشا من وكالة الحزب .

وأما حزب الشعب فلم يتردد في الإذعان والرضى ، وإنما قدم الطاعة صاغرا ، وخذل دوس باشا وقبل استقالة عبد الفتاح يحيى باشا . واستطيع أنؤكد لك أن رئيس الوزراء قادر على أن يلحق معالي حلمى عيسى باشا بزميله على ماهر باشا ، وهو إن فعل لم يلق من حزب الاتحاد امتناعا ، ولا إباء ، لأن حزب الاتحاد في نفسه لا يقدر على امتناع ولا إباء . واستطيع أنؤكد لك أيضاً أن رئيس الوزراء قادر على أن يلحق سعادة علام باشا وصاحب العزة على المنزلاوى بك بزميلهما السابقين توفيق دوس باشا وعبد الفتاح يحيى باشا ، دون أن يلقى من حزب الشعب إلا طاعة وإذعانا ، وإلا شكراً له وثناء عليه ، وابتهاً إلى الله — عز وجل — أن يمد في عمره ، ويسبغ عليه ثوب الصحة والعافية ضافياً فضفاضاً ، لأن حزب الشعب إنما وجد برئيس الوزراء ، ولم يوجد رئيس الوزراء بحزب الشعب .

فلا تقل إذن إن في مصر الآن وزارة ائتلافية ، لأن مثل هذه الوزارة لا تقوم إلا إذا وجد حزبان أو أحزاب تستطيع أن تأتلف وتستطيع أن تختلف ، وتستطيع أن تسير سياسة الدولة ، وتستطيع أن تنزل رئيس الوزراء على حكمها ، لا أن تنزل على حكم رئيس الوزراء . إنما في مصر وزارة صدق باشا ، فهو الذى يجمع أصحابه ويفرقهم ، وهو الذى يرتفع بأصحابه إلى مناصب الحكم ، ثم يهبط بهم إلى منازل غيرهم

من الناس . وهو الذى يحدث بين أصحابه الائتلاف ، ويستطيع متى أراد أن يحدث بينهم الاختلاف ! فإذا كان صدقى باشا يستطيع أن يأتلف مع نفسه ويختلف ، فأنت تستطيع أن تقول إن وزارته ائتلافية ! إنما رئيس الوزراء صاحب شطرنج ، يقدم على رقعة ويؤخر كما يريد له فنه ومهارته فى هذا الفن . ومتى رأيت قطعة أو قطعا من أحجار الشطرنج تشير على اللاعب أو تحدث إليه ، أو تخالفه وتنازعه فيما يخضعها له من تقديم وتأخير ؟ ولا تقل إن رئيس الوزراء مسئول عن سياسة الدولة ، فله إذن أن يختار أعوانه ، وأن يتخفف منهم إذا ثقلوا عليه ، لأن احتمال التبعات يقتضى مثل هذا الحظ من الحرية فى التغيير والتبديل ، وفى التقطيع والتوصيل . فإن رؤساء الوزارات لا ينهضون بالحكم ويحملون التبعات نيابة عن أحزابهم . فسياستهم رهينة برضا الأحزاب بحيث تستطيع هذه الأحزاب أن تأمرهم فإذا هم يتخلون عن مناصب الحكم فى غير تردد ولا امتناع .

أفتستطيع أنت أن تتصور أن حزب الشعب يجتمع يوما من الأيام فيعلن خطه على سياسة رئيسه ، أو يفعل ما هو دون هذا فيطلب إلى أحد وزرائه أن يدع منصبه ؟

أفتستطيع أن تتصور أن حزب الاتحاد يستطيع أن يجتمع يوما فيطلب إلى من يمثله فى الوزارة أن يدع الوزارة ؟ إذن لانحل حزب الشعب وحزب الاتحاد ، أو لرفض الوزراء الذين تأمرهم أحزابهم بالاستقالة أن يستقيلوا ، ولغدوا إلى دواوينهم كل صباح ، وراحوا إلى بيوتهم كل مساء ، ولاضطر أعضاء الأحزاب أن يغدوا عليهم فى الدواوين ، ويروحوإ إليهم فى البيوت معتذرين مستعطفين ؛ واعدن بأنهم لن يعودوا إلى مثل هذه الثورة الجريئة . . . !!

وعلى غير هذا النحو لا يستطيع إنسان له حظ من فهم أو تفكير أن يفسر هذا النشاط الحصب الغريب الذى يصطنعه رئيس وزرائنا فى الغزل

والتقل ، وفي الإقالة وطلب الاستقالة حتى أصبحت وزارته الآن أبعد ما تكون عن وزارته يوم ألفها منذ أكثر من عامين . ليس من الحق إذن أن الوزارة القائمة تمثل أحزاباً أو هيئات منظمة ، إنما الحق أن هذه الوزارة تمثل فرداً بعينه ، قد اجتمعت فيه هذه الهيئات التي يقال إن الوزارة تتألف منها ، وهو رئيس الوزراء .

ومع أن الذين يحكموننا في هذه الأيام إنما يصرون في أكثر أعمالهم وأقوالهم عن فكرة واحدة ، هي أن الشعب قاصر ضعيف فيجب أن يكون أمره إلى الأوصياء ، لا إليه ، فقد فهم هذا الشعب القاصر منذ اليوم الأول حقيقة الصلة بين رئيس الوزراء وزملائه ، وبين رئيس الوزراء وهذه الهيئات التي زعم أنه يعتمد عليها ويعتز بها . فلم يصدق أنه يعتمد على حزب أو يعتز بجماعة مصرية منظمة ، وإنما استيقنوا أنه يعتز بهذه القوة أو بهذه القوى الخفية المسيطرة التي تحدثت عنها الأهرام منذ يومين ، ولم ينتظر أن يكون ما قد يصيب الوزارة من خير أو شر أثراً لرضا هذه الأجزاء أو منخطها ، وإنما انتظر أن تتأثر الوزارة بهذه القوى أو القوى التي أنشأتها وأيدتها وما زالت تؤيدها وتسيرها أيضاً . وهذا وحده هو السبب في أن الذين يحبون الوزارة والذين يكرهونها لا ينتظرون لها البقاء ، ولا الانحلال من رضى البرلمان عنها أو شخطه عليها ، وإن كان الدستور يجعل إلى البرلمان إبقاء الوزارة وإسقاطها إنما ينتظرون هذا أو ذاك من هذه القوة الخفية المسيطرة المدبرة التي تظهر في القاهرة جينا ، وفي لندرة أجيانا . والناس معذورون إذا فكروا في الانجليز وانتظروا الخير أو الشر للوزارة من الانجليز لأنهم لم يروا قط من البرلمان خلافا على الوزارة أو مخاصمة لها أو ترددا في تأييدها . ونادر جداً أن تجرى الأمور بين الوزارة والبرلمان على هذا الوفاق الغريب رغم العواصف العنيفة التي تعصف بالبلاد في هذه الأيام . وهذا أيضاً هو الذي أتعب الناس في فهم ما يسمونه الجو السيامي ، وفي التماس الرياح التي يمكن أن تهب فيه فتعصف بالوزارة أو تدفعها ذات اليمين أو ذات الشمال .

فلو قد كان الأمر عندنا كما هو في البلاد الدستورية الأخرى لما حفل أحد بسفر المندوب السامي أو إقامته ، ولا باجتماع اللجنة المصرية الانجليزية أو افتراقها ، ولا بصمت الصحف الإنجليزية أو إكتارها في القول ، ولا تجه الناس إلى البرلمان يلتمسون منه وحده فهم السياسة المصرية ، ويتعرفون فيه وحده جو السياسة المصرية .

على رئيس الوزراء وحده تقع هذه النتيجة المنكرة ، تبعة اتجاه المصريين إلى الانجليز ينتظرون منهم الخير والشر ، فلو قد سار في وزارته هذه السيرة الطبيعية التي تلائم الحياة الدستورية الصحيحة لنظر المصريون إلى أنفسهم أكثر مما ينظرون إلى الانجليز ، ولا انتظر المصريون من أنفسهم أكثر مما ينتظرون من الانجليز . ماذا أقول ؟ لو سار رئيس الوزراء هذه السيرة المألوفة في البلاد الدستورية لما أقام في الحكم شهرا .

(٩)

خلاف

نعم خلاف في ظل الائتلاف (١) ، وشقاق تحت جناح الوفاق ، وخصام في أحضان السلام . ولم لا ؟ وأين وجدت الإخوة الذين لا يختلفون ؟ ومتى رأيت الأشقاء الذين لا يختصمون ؟ وإنما الحياة سبيل إلى اتفاق الرأي حيننا واختلافه أحيانا ، ولا سيما حين تكثر المغريات ، وحين تتيح الحظوظ للأصدقاء الأصفياء أن يقوى بعضهم ، ويضعف بعضهم الآخر ، وأن يعز منهم فريق ، ويدل منهم فريق ، وأن تمتلىء أيدي جماعة منهم بالخير ، وتصفر أيدي جماعة أخرى من كل شيء .

والأحزاب المؤتلفة في الحكم إنما تتألف من أفراد ، فيهم فضائل الناس ونقائصهم ، فهم يتفقون على المصالح العامة التي لا تعنى أشخاصهم ، وهم يختلفون عند المصالح الخاصة التي يمكن أن يفيدوا منها مالا أو جاها ، قليلا أو كثيرا .

(١) ٢١/٣/١٩٣٣ ، عدد ٢٣٤٠

وآية ذلك أن المؤتلفين في الحكم لم يختلفوا لحظة في إقامة الخزان ، لأن إقامة هذا الخزان واضحة النفع لمصر ، جليلة الفائدة للمصريين ، ستحمل إلى أرض مصر الحصب ، وستكفل لأهل مصر الثراء ، وخزانة مصر قادرة على إقامة هذا الخزان ، لديها من المال أكاداس مكدسة ، تستطيع أن تنفق منها بغير حساب دون أن تخشى فقرا ، أو تتعرض لإفلاس . ولا تصدق المستشار المالي فهو انجليزى يكره لمصر الخير ، ويضمر لها الشر ، ويأبى إلا أن يرى أرضها مقفرة مجدبة ، وأهلها معوزين معدمين ! وهو حين نصح للحكومة ألا تتعجل في إقامة هذا الخزان ، وأظهر الإشفاق على خزانة الدولة ، لم يفكر إلا في مصلحة الانجليز الذين يكرهون هذا الخزان ، ويخافون من إقامته في السودان !

فلتحذر الحكومة وليحذر البرلمان ، وقد حذرت الحكومة فلم تحفل بالمستشار ، ولم تلتفت إلى رأيه ، ومتى حفلت وزارتنا القائمة برأى الانجليز؟ ومتى قبلت وزارتنا القائمة نصيحة الانجليز؟ وهى تشك فيهم كل الشك، وترتاب بهم كل الارتباب ، وتأخذ نفسها منذ نهضت بأعباء الحكم بأن تكرههم على ما لا يريدون ، وتجرحهم ما لا يستسيغون(١) .

أعرضت حكومتنا عن نصيحة المستشار ، وأعرض عنها البرلمان أيضا، واتفق الحزبان المؤتلفان في هذا الإعراض أيضا ، فلم يسألا عن رأى المستشار ، ولم يحفلا به ، ولم يسألان ويحفلان؟ والمستشار انجليزى يجب أن يسوء به ظن الحزبين المؤتلفين اللذين لا يأمنان للإنجليز ، ولا يحبان إلا إرغام الانجليز على الاعتراف بما لمصر من كرامة وسيادة وحق ... !

وتحقق الائتلاف حول جبل الأولياء في أجمل صورة ، وأروع الشكل ، وانتصر الائتلاف في هذه المسألة على خصمين عنيدتين ، أحدهما الأمة المصرية التى لا تريد هذا الحصب ولا ترغب فيه ، والتى يجب أن تكره

(١) الأصل يسبغون ، ولعل الصواب ما أثبتناه

على أن تكون أرضها خصبة رغم أنوفها ، وعلى أن يكون أبنائها أغنياء
وإن كرهوا الغنى ، لأن سادة الساعة وحكام اليوم أعرف بمصالح الأمة من
الأمة ، وأقدر على تحقيق منافع الشعب من الشعب ! وما قيمة الوزارة
وما غناؤها إذا لم تسقنا إلى الخير ونحن كارهون ؟

والثاني هذا المستشار الانجليزي الذي إلتزم بمصر مع حاكم السودان
العام ، فبينما كان الحاكم العام يجد في إقناع وزارتنا بالإعراض عن إقامة
الخران رحمة بالسودانيين ، ورفقا بهم ، ورعاية لمصالح الانجليز في
السودان ، كان المستشار ينصح للوزارة أن تعرض عن إقامة الخزان حماية
لخزانة الدولة من الضعف ، ولميزانية الدولة من الاضطراب .

وقد عرف الحزبان المؤتلفان كيف يثبتان لهذين الخصمين فيلقيان
الأمة بالعنف والقهر ، ويلقيان الانجليز بالمهارة والمداورة ، وبالإعراض
والإغضاء .

وانتصر الائتلاف مرة أخرى حين أثرت سياسة التعليم ، وحين عرف
الحزبان المؤتلفان أن هذه الأمة الجاهلة الغافلة تريد أن يشيع التعليم على
اختلاف فروعه بين أبنائها على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم ، وأن انتشار
التعليم على هذا النحو قد يمحو الجهل ويزيل الغفلة ، ويشعر الأمة بحقها
وكرامتها شعورا قويا خطرا على طموح الطامحين ، وعبث العابثين ، واستثثار
المستأثرين ، واحتكار المعصومين للحول والطول والقوة والسلطان .
هنالك أحس المؤتلفون أن الائتلاف يتعرض للخطر ، وهنالك اجتمعت
كلمة المؤتلفين على أن ضيق التعليم خير من سعته ، وعلى أن انبساط الجهل
خير من انقباضه ، وعلى أن حكم الشعب رهين بأن يظل الشعب جاهلا
غافلا ، وعلى أن العلم والفهم والكفاية والطموح إلى المثل الأعلى خصال
يجب أن تكون مقصورة على الأغنياء وأشباه الأغنياء . وحسب
أبناء الشعب أن يعملوا في المزارع والمصانع ، وأن يظلوا رعية صالحة
للتدليل والتسخير .

هنالك قوى الائتلاف وأحكمت عقده ، وأيد الحزبان المؤتلفان وزير
التقاليد ، وانتصر الائتلاف أيضا حين تعرض لهو الأجانب وعبثهم للخطر ،
و حين هم بعض النواب بإلغاء معونة الأوبرا ، وحين ظهر أن هذه الفكرة
خبيثة ، ظاهرها الرفق بخزانة الدولة ، والعطف على الذين يؤدون الضرائب ،
ويلقون في أداؤها صروف الجهد ، وألوان العناء ، وباطنها حرمان الأجانب
لذة مشاهدة التمثيل والاستماع للغناء ، والاستمتاع بالرقص ، وكيف يستقيم
الأمر إذا حرم الأجانب ما يطمحون إليه ، ويطمعون فيه من هذه اللذة
المترفة تضاف إلى ما يستمتعون به من تفوق على المصريين في كل شيء ،
وامتياز من المصريين في كل شيء ! يجب أن يدعن المصريون ، ويجب
أن يلهو الأجانب ! وعلى ذلك تمت كلمة الائتلاف ، وحول ذلك أحكمت
عقدة الائتلاف . وتستطيع أن تطمئن وأن ترضى فلن يتعرض الائتلاف
لخطر ما دامت المصلحة العامة الجلية الواضحة تدعو إلى قوته واستحكام
أمره .

أما حين تعرض المسائل النافهة التي لاخطر لها ولا غناء فيها ، فجائز ،
بل واجب أن يختلف المؤتلفون ، ويفترق المتفقون ، ويتصدع الائتلاف
اليوم ليرأب صدعه غدا .

انظر إلى الحزبين المؤتلفين يشتد بينهما الخلاف حتى ينذر بالخطر العظيم ،
وحتى يجد الوزراء في التوفيق ، وحتى يخرج الأعضاء على قرارات
الأحزاب ، وحتى يستقيل بعضهم أو ينذر بالاستقالة ، لأن مجلس النواب
في حاجة إلى وكيلين . والحزبان المؤتلفان يطمع كل منهما في أن يكون
منه الوكيلان دون صاحبه .

هذه مسألة يسيرة لاخطر لها في حقيقة الأمر ، فسواء على مصر أن
يكون الوكيلان من حزب الاتحاد أو من حزب الشعب ، وسواء على
الانجليز خاصة والأجانب عامة أن يكون الوكيلان من حزب الاتحاد أو من
حزب الشعب ، فسيقام الخزان ، وسيضيق التعليم ، وسيكون التمثيل والرقص

والغناء ، ولكن حزب الشعب شديد الطمع ، لا يعرف حدا لهذا الشره إلى التسلط والسيطرة . فلم يكفه أن يستأثر بالحكم ومناصب الوزارة حتى يريد أن يحرم صديقه وشقيقه كل شيء .

وقد احتمل حزب الاتحاد من حزب الشعب أهوالا ثقالا ، فرئيس حزب الشعب يقصى وكيل الاتحاد لهذا ، ورئيس حزب الشعب يرقى الشعبين إلى الوزارة ، ويترك وزارة الداخلية فلا يضع فيها شعبياً ولكنه لا يضع فيها اتحادياً أيضاً، وإنما يختار لها رجلاً يقال إنه بعيد عن الأحزاب ، ثم يحتاج مجلس النواب إلى وكيلين ، فإذا حزب الشعب لا يدع هذين المنصبين لحزب الاتحاد المظلوم ، بل لا يدع له منصبا من المنصبين ، وإنما يريد أن يستأثر بهما جميعا .

إذا تكون كرهية أدعى لها .. وإذا يحاس الحيس يدعى جندب ؟ (١)

نعم كذلك أراد الله لحزب الاتحاد في هذه الأيام . والله يداول الأيام بين الناس ، والله يذل أحزابا ، ويعز أحزابا . والله يجعل بعض الأحزاب رءوسا وبعضها أذنانا . والله يثير في نفوس الاتحاديين وقلوبهم نارا تتأجج ، ولهيبا يضطرم ، لأنهم فرطوا في وكيلهم وخذلوه ، ولو قد عرفوا كيف يؤيدونه وينتصرون له ؛ لعرف هو كيف ينتصف لهم ويرد عنهم طغيان الحزب الصديق الشقيق .

كذلك يتحدث حزب الاتحاد إلى نفسه ، وبيعض ذلك يتحدث حزب الاتحاد إلى الناس . أما حزب الشعب فله الحكم وعليه تبعات الحكم ، فيجب أن يكون له الحظ الموفور من منافع الحكم ومزاياه .

وما كان لحزب الاتحاد أن يسمو إلى مناظرته أو مخاطرته ، وليس رئيسه بالذى يستطيع أن يثبت لرئيس حزب الشعب وقد خذل وكيله فأصبح

(١) هذا البيت لعنزة العبسى . والكرهية : الحرب . الحيس : الطعام . والمعنى : تستنجدون بى فى وقت الشدة ، وتهملونى وتتجاهلونى فى وقت الرخاء .

جسدا بلا روح . فليقتنع إذن بما أعطاه الله ، وبما نزل له عنه حزب الشعب ، وإلا فإن حزب الشعب قادر على أن يستبدل قوما مكان قوم ، وحزبا مكان حزب . أليس يقال إن في مجلس النواب حزبا ثالثا ، وإذن فايذكر حزب الاتحاد قول الشاعر القديم :

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها فن علامرة عن غرة زلجا

وعلى هذا النحو يختلف المؤتلفون ، ويفترق المتفقون . والأمة تنظر إلى هذا الائتلاف فتبتسم ، وإلى هذا الاختلاف فتضحك ، كما يبتسم ويضحك من ينظر إلى لعب اللاعبين . والأمة تعلم حق العلم أن اختلاف الحزبين لن ينفع ، وأن إئتلافهما لن يفيد ، لأنهما لا يملكان طاعة وإذعانا لمن بيده الخيط ، هذا الذى يستريح الآن فى مينا هاوس(١) ، والذى يترك الحزبين يلعبان لأنه متعب ، أو لأنه سئم ، أو لأنه يريد أن يلهو ، حتى إذا فرغ من اللهو بلعب حزبيه ، جذب الخيط فإذا الائتلاف قوى متين ، وإذا الصلات بينهما على أحسن حال من المودة والصفاء .

(١٠)

موقعة

رئيس(١) وزرائنا مريض ، نرجو أن يسرع إليه الشفاء ، ولكن مرضه ليس مقصورا عليه ، بل هو يتجاوزه إلى الوزارة كلها التى لم تستطع أن تنشط ، ولا أن تظهر أن لها حظا من حياة قوية رغم ما أصابها من الوصل والترقيع ، ويتجاوزه فى رأى الأهرام على الأقل إلى البرلمان الذى يظهر بمظهر المريض المقعد . وقد قيل إن لمرض البرلمان ، وهذا الشلل الذى جعله - كما تقول الأهرام - مقعدا ، مظاهر لا تخلو من

(١) المراد إسماعيل صدقى باشا .

(١) ٢٢/٣/١٩٣٣ عدد ٢٣٤١

عبرة وعظة . فهو يمهّل حتى تكلف المراقبة لعمل السلطة التنفيذية ، وهو يعجز عن مقاومة هذا الفتور الذى يصيبه ويملك أعضائه كلما هم أن ينهض بعمله التشريعى الخاص .

زعموا أن الحكومة دفعت إلى السودان ثلاثة أرباع المليون تعويضا لمن سيصيبهم الضرر من إقامة الخزان قبل أن تصدر الميزانية ، بل قبل أن يقرها البرلمان ، ودون استئذان للبرلمان فى دفع هذا المقدار الضخم من المال لحكومة السودان .

فإن لم يكن هذا حقا فلا تفسير له إلا إحدى اثنتين . فإما أن يكون البرلمان مستعدا أحسن الاستعداد للتزول عن حقوقه الدستورية للحكومة اعترافا بجميلها عنده ، وفضلها عليه .

وأنا أنكر هذا ، وأراه بعيدا ، لأن البرلمان حفيظ على الدستور ، لا يتزل عنه كله أو بعضه لإنسان كائنا من كان ، ومهما يكن له عليه من فضل أو جميل .

وإما لأن مرض رئيس الوزراء قد أعدى البرلمان بعض الشىء فأصابه هذا الفتور الشامل الذى يصيب المرضى والمقعدين فتقصر (١) ذاكرتهم ، ويقل حظه من الملاحظة والمراقبة لما يجرى حولهم من الحوادث ، وما هو بين أيديهم من المشكلات .

وأكبر الظن إن صح هذا الخبر أن البرلمان لم يعتمد الإعراض عن هذا العمل الغريب من أعمال الحكومة ، وإنما اضطره النسيان والضعف إلى هذا الإعراض والتقصير ، فلهذا ذاكر مانسى ، ومقبل على ما أغرض عنه ، ومعنى مما فرط منه . ومن المحقق الذى لا شك فيه أن مجلس النواب قد أقر أمس قانونا ينظم تعيين الأساتذة والمدرسين فى الجامعة

(١) كذا فى الأصل ، ولعل النواب تقصير

وتأديهم ، وأقر هذا القانون في جلسة واحدة ، بل في جزء يسير جدا من جلسة واحدة ، وأقره فيما يظهر فاترا عنه ، مزدريا له ، كما يقر أيسر الأمور وأقلها خطرا ، مع أن هذا القانون هو قوام حياة الجامعة ، وقد عنيت به الجامعة منذ اليوم الأول من أيامها ، وعنيت به الحكومات المختلفة التي تعاقبت منذ أنشئت الجامعة ، وثارَت فيه مشكلات بين الجامعة والحكومات ، لأنه المقياس الصحيح الدقيق الذي يحدد موقف الجامعة المستقلة من الدولة التي تحب أن تسيطر على كل شيء من الشئون العامة .

أقر مجلس النواب هذا القانون كما أرادت الحكومة القائمة أن يكون في غير مناقشة ذات بال .

ومعنى هذا أن مجلس النواب لم يحفل بهذا القانون ، إما لأنه لا يحفل بأمر الجامعة ، ولا يقدره ، ولا يراه خليقا بالدرس والتفكير ، وإنه مستيقن أن الدرس والتفكير لا خير فيهما ولا نتيجة لهما ، لأن الحكومة تريد شيئا فيجب أن يكون ما تريد . والبرلمان مكلف أن يجيز ما تريد الحكومة في غير مناقشة ولا حساب .

وأكبر الظن أن مجلس النواب برىء من هاتين الخصلتين ، فهو يحب الجامعة ويرعاها ، ويتتبع أمورها بدقة لا تعدلها دقة ، ويدرس شئونها بعناية لا تشبهها عناية ، ولكنه يثق كذلك بالحكومة ثقة ليس مثلها ثقة . وإذن فقيم مناقشتها وقيم محاسبتها ؟ وفيم إضاعة الوقت في المناقشة والحساب ؟

والمجلس مطمئن إلى أن الحكومة معصومة من الخطأ ، معصومة من أن تريد بالبلاد إلا الخير ، تحب الجامعة كما يحبها ، وترعى الجامعة كما يرعاها ، وتفهم الجامعة كما يفهمها . وإذن فأى معنى للحساب العسير أو اليسير بين قوم يتفقون في كل شيء ولا يختلفون في شيء ؟

ويقول بعض الذين لا يستطيعون أن يعيشوا إلا إذا ظنوا فأساءوا الظن ، وأولوا فأساءوا التأويل أن مجلس النواب قد شغل بانتخاب الوكيلين فأنفق فيه نشاطه كله ، ولم يحتفظ لجدول الأعمال إلا بنشاط فاتر جدا ، فر هذا الجدول أمام المجلس كما مر شريط السينما أمام جماعة ليسوا بالمستيقظين ولا النائمين ، ولكنهم في منزلة حلوة لذيدة بين هذا وذاك . ويقول هؤلاء الناس الذين يسرفون في سوء الظن وفساد الرأي وقبح التأويل أن مرض رئيس الوزراء قد أصاب البرلمان فجعل نشاطه محدودا ، ويقظته محدودة . فمن الحق على رئيسي المجلسين أن يلاحظا هذه الحال في وضع جدول الأعمال ، فلا يسرفا في إطالة هذا الجدول ، ولا يلحا في استنفاده كله إذا طال . ويقول هؤلاء الناس أيضا أن الأهرام تحدثت بأن رغبة أملتها بعض الجهات إملاء على الهيئة الشعبية البرلمانية في انتخاب الوكيلين . وكان كثير من أعضاء الهيئة الشعبية فيما يظهر يريد أن يرد هذه الرغبة على صاحبها ، ولكن صاحب هذه الرغبة فيما يظهر أيضا لا يحب أن ترد عليه رغباته ، ولا يريد أن يتردد أحد ولو كان من حزب الشعب في إنفاذ هذه الرغبات كما تنفذ الأوامر التي لا سبيل إلى مخالفتها أو الخروج عليها . ويقال أن أعضاء الهيئة الشعبية قد أنفقوا نشاطهم كله في المناقشة والجدال حول هذه الرغبة التي أذعنوا لها آخر الأمر ، وضحوا في سبيلها لزعيم من زعمائهم هو الأستاذ وهيب دوس بك ، ثم وصل الشعيون إلى مجلس النواب متعبين مكدودين ، فلم يستطيعوا أن يفرغوا لأمر الجامعة كما ينبغي ، ولا سيما وقد كانت هذه الرغبة لا تكتفى بانتخاب الوكيلين من الحزبين ، بل تريد أن يكون هذا الانتخاب في يوم معين هو أمس ، وفي جلسة معينة ، هي جلسة أمس ، وإن لم يكن هذا الانتخاب في جدول الأعمال ، فقدم اقتراح وقبل وأنفذ ، وأخذ المستقلون والمعارضون على غرة ، وأخذت الجامعة على غرة أيضا فمر قانونها بسلام .

ويقال أن الشعيين الذين شغلوا بإكراههم على ما لم يكونوا يحبون ، لم يفكروا في قانون الجامعة ، ولن يفكروا فيه الآن ، لأنهم عنه في شغل

ما الاتحاديون فقد سرهم أن يفوزوا بمنصب من منصبين ، وسرهم أيضاً ، بل سرهم بنوع خاص أن يمر هذا القانون الاتحادي دون أن يحتاج وزير التقاليد أن يطيل عنه الدفاع .

فمن يدرى لعله لو احتاج إلى ذلك لأثار حول الجامعة خصومة تشبه تلك الخصومة التي ثارت حول إعانة الأوبرا : ولم لا ؟ إن إعانة الأوبرا وإنفاقها ، ونظام الأوبرا حق من حقوق السلطة التنفيذية في رأى وزير التقاليد ، فلا ينبغي لمجلس النواب أن يعرض لها ، أو يدخل فيها . وكذلك أمر الجامعة ، فتعيين الأساتذة والمدرسين وأعضاء هيئة التدريس وتأديهم حق كذلك من حقوق السلطة التنفيذية . فلو قد ناقش أمس الأستاذ وهيب بك دوس لقليل له كما قيل له في قصة الأوبرا : هذا حق السلطة التنفيذية فلا تعرض له ولا تخض فيه .

ومن يارى ، لعل الأستاذ وهيب دوس بك لم يكن يرضى هذا الجواب من وزير التقاليد ، ولا سيما أمس وهو مغيط محقق ، قد استقال من حزب الشعب سخطاً فيما يظهر على حزب الاتحاد ، إذن لأثار الأستاذ في المجلس ثورة لا يعلم إلا الله إلى أين كانت تنهى .

وإذن فقد انتصرت الحكومة أمس في مجلس النواب انتصاراً لا فخر فيه ولا مجد ، لأنه لم يحتج إلى دفاع ولا نضال ، بل كان يسيراً كجميع ما تناله الحكومة من ألوان النصر في البرلمان . وانتصر حزب الاتحاد انتصارين ، ففاز بوكيل اتحادى وأمضى قانوناً اتحادياً .. وأظهر حزب الشعب إلا الأستاذ وهيب دوس بك — شيئاً من الجلد وضبط النفس ، وانتظر فرصة أخرى لعلها تكون قريبة يظفر فيها بمنصب ويمضى فيها قانوناً .

وانجلى هذه المعركة الطويلة العنيفة عن وفاق ووثام وصلاح وسلام بين الحزبين المؤتلفين . وأحصيت الخسائر فكانت يسيرة . خسر حزب الاتحاد أحد المنصبين ، وخسر حزب الشعب أحدهما أيضاً ، وخسر

حزب الشعب فوق ذلك خسارة أخرى مشكوكا فيها ، وهي الأستاذ وهيب دوس بك ، فقد يتوسل إليه في أن يسترد استقالته فينعمل .

أما مصر فلم تخسر شيئا يذكر ، وإنما فرض عليها نظام للجامعة أقل ما يوصف به أنه يجعل الجامعة مدرسة من المدارس العادية . ويجب على مصر أن تحمد الله على أن لم تتجاوز خسارتها هذا الحد .

(١١)

إقدام

ولكنه (١) إقدام خطر ، قد يجر إلى الشر ، وينتهي إلى ما لا يحبه المقدمون أنفسهم ، وقد لا تحتمله أيضا صحة هذه الوزارة التي أخذتها العليل من أطرافها المختلفة ، فأعجزتها عن النهوض بجلائل الأعمال ، سواء أكانت هذه الأعمال نافعة أم ضارة .

نعم إقدام خطر مريب معيب ، هذا الذي أخذت تظهر آثاره وبوادره على أعمال الإدارة في الصعيد ، فقد كانت الإدارة هادئة في أسوان ، وكانت مستقرة ، تسمع وترى ، وتألم وتغضب ولكنها لا تضطرب أو لا تسرف في الاضطراب ، بل تخلى بين الناس وبين أنفسهم ، يحسون ويشعرون ، ثم يعربون عما يجدون من حس وشعور ، فيحتفلون ويصفقون ويهتفون وكل شيء هادئ ، والنظام مستقر ، إلا أن يكون إظهار انشعور ، والاستمتاع بالحرية الطبيعية التي يكفلها الدستور خروجاً على النظام ، وتكديراً للصفو والهدوء .

كانت الإدارة هادئة مطمئنة في أسوان حين زارها الرئيس الجليل ، فلم يحدث أو لم يكد يحدث شيء ذو بال ، ولكن أشد الأحلام رزاة قد

ينحف ، وأعظم الأحلام ثقلا قد يطيش . ويظهر أن صبر الإدارة محدود
مهما يطل ، وأن حلمها ضيق مهما يتسع ، وأنها قد ترى ما تكره هي
وإن لم يكره الدستور ولا القانون ولا النظام فتحتمله ساعة أو ساعات ،
وتصبر عليه يوما أو أياما ، ثم لا تلبث أن تتنكر له وتثور به ، وتعرض
للناس تأخذهم بكظم الحس ، وكتمان الشعور ، والتزول عن حقهم الطبيعي
في أن يغلوا ويروحوا ، ويأتوا من الأمر ما يحبون لتكريم من يحبون .

يظهر أن الإدارة لا تستطيع أن تمضي في الصبر والاحتمال إلى مدى
بعيد، وهي بذلك تقيم أوضح الأدلة وأقواها على أن كفايتها للنهوض بماتنهض
به من الأعمال عرضة للشك وموضوع للريب .

فليس الحكم بطشا ولا عسفا ، وليس الحكم تحديا ولا تصديا ، وليس
الحكم في إظهار القوة والبأس ، وإنما الحكم صبر واحتمال ، والحكم احتياط
للتوارئ ، واستعداد للحوادث ، لا تعجل لها ولا إثارة للناس إلى
أحداثها .

نعم ليس الحكم بطشا ولا عسفا ، وإنما الحكم هو هذه القدرة التي تمكنك
من أن تلاحظ وتراقب ، وأنت هادئ مطمئن ، وأنت قوى مستعد لدفع
الشر إن وقع أو خفت وقوعه .

وكل شيء يدل على أن الإدارة لو أخذت بأصول الحكم هذه فهدأت
واستقرت ، واكتفت بالاستعداد للتوارئ ، ولم تتورط في إثارتها ، لم
يحدث شيء ، ولم يتعرض فرد أو جماعة لمكروه . ولكن هذا كما قلت
شيء ليس باليسير فيما يظهر ، وهو لا يكون يسيرا ولا ممكنا إلا يوم تحيا
الأمة والحكومة حياة واحدة ، وتشعران شعورا واحدا ، وتشتركان اشتراكا
صحيحا في المنافع والآمال والمثل العليا .

هنالك تستطيع الأمة أن تعيش حرة ، وتستطيع الحكومة أن تحمي هذه
العيشة الحرة ، مؤيدة لها ، مقوية لما فيها من أسباب الحياة وعناصر الحرية

ولكن الأمر في مصر على غير هذا من كل الوجوه . فللأمة حياتها وآمالها .
وللحكومة حياتها وآمالها . وبين هذين النوعين من الحياة والآمال آماذ
بعيدة ، لا سبيل إلى تقصيرها أو تقريبها .

تريد الأمة أن تحيا حرة ، وتأتي الوزارة إلا أن تقص من جناح هذه
الحرية . تحب الأمة من تحب من الزعماء فتلقاهم فرحة بهم ، مستبشرة
بلقائهم ، مؤملة فيهم . وتكره الوزارة هؤلاء الزعماء الذين تحبهم الأمة
وتعقد بهم الآمال . تكرههم الوزارة فتحول بينهم وبين الحركة والانتقال
إن وجدت من نفسها القوة على ذلك ، وتدعهم وما يريدون إن عجزت
عن أن تحبسهم في بيوتهم ، ولكنها تنكر وتنمر وتتحدى وتنصدي وتظهر
من ألوان الشدة ، ومظاهر القوة والبأس ما يثير ويغري بالشر حتى إذا
وقع الشر أو كاد ، اتخذت من هذا سبيلا إلى مصادرة حرية الزعماء والناس
وحجة على أن استقرار النظام في حاجة إلى أن تستقر الأمة فلا تحس ولا تشعر
ولا تعيش !

ما هكذا يكون الحكم ، وما هكذا يكون إقرار النظام . ما هذه الأنباء
التي أخذت ترد من الصعيد بالاصطدام بين الناس والشرطة في الأقصر ،
وبتحتيم سيارات وإصابة أفراد من الناس والشرطة بجراحات ، ومن محاصرة
بيوت واقتحام أخرى ، ومن استصدار أوامر من النيابة بالقبض على بعض
الناس ؟ ما هذا كله ؟ وفيه هذا كله ؟ ولأى خطر تتعرض البلاد لتقف
الإدارة من الناس هذا الموقف ، وتثير شعورهم على هذا النحو ؟ ما وضع
المحطات تحت الحصار ؟ وما مرافقة الرئيس الجليل وصاحبه في القطار ؟ أتريد
الحكومة أن يشعر الناس أنها قوية ، وأن لديها شرطة مسلحة بالبنادق والعصى ؟
وان هذه الشرطة قادرة على تفريق المجتمعين وتبديد المحتفلين وإسكات
الهاتفين ؟ فإن أحدا لم يشك في أن للحكومة شرطة وجيشا ، وفي أن عندها
بنادق وعصيا ، وفي أن من وراء هذه الشرطة وهذا الجيش جيشا آخر قويا
أجنبيا مستعدا للنصر والتأييد ، ولكن عمل الشرطة والجيش إنما هو أن يجيبا

إذا دعيا ، فمن الذى دعاها ؟ ومن الذى طلب إليهما أن يعرضا للناس
وهم آمنون ؟

لم يشك أحد فى أن الحكومة قادرة إن أرادت على أن تبطش بالناس ،
وقد أرادت ذلك غير مرة فبطشت بالناس وأذاقتهم ألوانا من المكروه ،
ولكن الشيء الذى نشك فيه جميعا ، بل لا نشك فيه وإنما نوقن به هو أن
هذا البطش لا خير فيه ، وإنما هو الشر كل الشر ، والخطر كل الخطر .
لقد بطشت الحكومة بالناس غير مرة فكان القتل وكان الجرحى ، وكانت
الخطوب والأهوال ، ولم تظفر الحكومة بعد هذا كله ورغم هذا كله بشيء
فما كانت تريد ، فلا هى جذبت إليها قلوب الناس ، ولا هى هدأت عن
نفسها سخط الناس ، ولا هى صرفت الناس عن محبون ، ولا هى زهدت
الناس فيما يحبون ، وإنما انتهت بها سياسة التحدى والتحرش إلى عكس
ما كانت تريد ، فما أحب الناس حريتهم كما يحبونها اليوم ، ولا حرص
الناس على استقلالهم كما يحرصون عليه اليوم ، ولا تعلقت قلوب الناس
بدستورهم القديم كما تتعلق به اليوم ، ولا وثق الناس بزعمائهم وقادتهم كما
يثقون بهم اليوم ، ولا يثس الانجليز من سياسة اللعب والدوران والعسف
والبطش كما ييأسون منها اليوم ، ولا فشل تحكم الإرهاب والإرهاق كما
يفشل اليوم .

تستطيع الحكومة أن تنظر وأن تسمع حيث شاءت ومتى شاءت ، فلن
ترى ولن تسمع إلا جبالا بحرية لا يشبهه حب ، ولا كلفا بالديمقراطية الصحيحة
لا يشبهه كلف ، وازدراء بالخطوب واستهزاء بالصروف واستعدادا للصبر
واحتمال المكروه .

لم يصل اليأس بعد ، ولن يصل إلى قلوب الناس ، فما تعلق بالحكومة
بما لا سبيل إليه ؟ وما تهالك الحكومة على ما لا خير فيه ؟ هذه الأمة تحيا
حياتها هادئة مطمئنة ، تنظر إلى الحوادث صابرة عليها ، معتصمة بإيمانها ،
واثقة بالمستقبل . مغرصة عن الحكومة تاركة لها تسلك طريقها المعوج ،
فما للحكومة لا تحيا . هي الأخرى حياتها ولا تدع الأمة وما تريد ؟

نعم في مصر حياتان مختلفتان . إحداهما حياة أمة كلها أمل ، فهي تصبر وتبسم : والأخرى حياة وزارة كلها يأس ، فهي تغضب وتتنكر ، وهي تهيج وتثير الناس . وأى غرابة في أن يضيق من عملاً قلبه اليأس بمن عملاً قلبه الرجاء ؟

إقدام خطر هذا الذي تظهر آثاره في الصعيد خير منه الإحجام . ما أشد حاجة الوزارة إلى أن تفكر في نفسها وتعنى بصحتها ، وتعالج هذا الشلل الذي أصاب أطرافها ، وتفرغ لهذا التمرد الذي دب في أحزابها ، فإن في هذا كله ما يشغلها عن زيارة الرئيس الجليل وصاحبه للصعيد . لتفرغ الحكومة لشؤونها الصغيرة والكبيرة ، ولتطمئن فلن يتعرض النظام ولا الأمن للخطر ، ولا لما يشبه الخطر إذا أخذت هي رجال الإدارة بالهدوء ، وكفت هي يد الإدارة عن الناس .

إن استقرار النظام رهين باستقرار الإدارة . فإذا لم يكن بد من أن تعمل الحكومة شيئاً فلتجذب إليها بشدة لجم الإدارة ، فقد يظهر أن في خيل الإدارة ميلاً إلى الجموح .

(١٢)

محاولة

أما (١) أن رئيس الوزراء قد أخفق في تنفيذ الخطة السياسية التي رسمها لنفسه ، أو التي رسمت له يوم ألف الوزارة منذ ثلاثة أعوام ، فذلك شيء لا شك فيه ، لا بالقياس إلى الذين يعارضونه ويخاصمونه ، بل بالقياس إلى الذين يؤيدونه وينصرونه ، وبالقياس إليه هو .

فالذين يعارضون رئيس الوزراء لم يشكوا لحظة في أن إخفاقه محتوم ، وفشله أمر لا بد منه ، لأنه أقام سياسته على إكبار كفايته الخاصة أكثر مما

ينبغي ، وإصغار شأن الأمة إلى حد لا تقبله الكفاية الصحيحة حقا . ومن أقام سياسته على إكبار نفسه وإن كان فردا ، وإصغار خصمه وإن كان أمة كاملة ، فهو مخفق من غير شك . وقد أخذ المعارضون لرئيس الوزراء يلاحظون سياسته ، ويتابعون خطواته في تنفيذ هذه السياسة ، ويسمون لهذه الخطوات التي كان يراها هو انتصارا ، ويراهم معارضوه إمعانا في طريق الإخفاق والخذلان ، فلا هم اغتروا بهذه الخطب الطوال التي كانت تحشد ، والوفود التي كانت ترسل ، ولا هم اغتروا بتأليف ما سماه حزب الشعب ، ولا بإنشاء ما سماه جريدة الشعب ، ولا بما رآه فوزا في الانتخاب ، ولا بأسفاره وإقاماته ، ولا برحلاته إلى أوروبا وعودته منها ، وزياراته للعواصم ومقابلاته للوزراء ورؤساء الحكومات ، بل للبابا .

لم يغتروا بشيء من هذا ، لأنهم قدروا ، ومن الحق على كل إنسان له حظ من الفطنة أن يقدر أن الفوز الصحيح الباقي المنتج في هذه الأيام لا سبيل إليه إلا أن يعتمد رجال السياسة على الأمم والشعوب ، لأنها وحدها القوام الثابت لكل سياسة عملية . ولم يكذ يعود صدقي باشا من أوروبا حتى كان فوزه الموقوت قد انتهى إلى غايته ، ولم يبق بد من أن يتحول هذا الفوز شيئا فشيئا إلى الفشل والإخفاق . وقد داور صدقي باشا ما استطاع أن يداور ، وأخفى ضعفه ما وجد إلى إخفائه سبيلا ، ولكنه لم يخدع أحدا ولم يخف شيئا . وما هي إلا أن يعترف هو بهذا الإخفاق في كتاب الاستقالة الذي رفعه إلى حضرة صاحب الجلالة الملك ليتخلص من زملائه الذين خالفوه في سياسة الحكم . فقد كانت هذه الاستقالة نفسها اعترافا واضحا بالفشل ، وأي فشل أشد ، وأي إخفاق أعظم من أن يعجز رئيس الوزراء عن أن يقنع زملاءه وأقطاب وزارته بسياسته ، ويضطر إلى أن يستقيل ليخلص منهم ، وإلى أن يعترف بهذا كله في كتاب الاستقالة .

وقد رقع صدقي باشا وزارته كما استطاع ، ولكنه لم يستفد من هذا التوقيع شيئا فنزع الرقعة التي ألصقها بوزارته في يناير ، ووضع مكانها

رقعة أخرى منذ أيام ، وكان هذا الترقيع الأخير تسجيلاً آخر لهذا الإخفاق وأنصار رئيس الوزراء يدورون مع رئيس الوزراء ، فهم يرددون ما يقول ويكتبون ما ينطق به فيعلنون الفوز إن أعلنه ، ويلطفون اعترافه بالإخفاق حين يعترف به . وربما كان تسجيل هذا الإخفاق هو الشيء الوحيد الذى اتفق عليه رئيس الوزراء وأنصاره وخصومه جميعاً فى وقت واحد ، ولكنهم لا يكادون يتفقون على هذا الإخفاق حتى يختلفوا فى التماس المخرج منه والتخلص من أثقاله وآثاره .

فأما رئيس الوزراء وأنصاره فيخيل إليهم أن الترقيع وسيلة من وسائل التخلص من هذا الفشل ، فهم يرقعون ويرقعون ، وهم يكسبون الوقت وينتظرون ما تدور به الأيام .

وأما معارضوه وخصومه فهم يرون أن كل شيء قد دل دلالة قاطعة على أن وزارة صدقي باشا لم تكن صالحة للبقاء ، ولم تصبح الآن قادرة على محاولة البقاء ، وأن من العبث أن تتحدى طبيعة الأشياء وتقاومها . وأنت تعلم حق العلم أنك مهما تؤيدك القوى الظاهرة والخفية ، فلن تستطيع أن تثبت لطبيعة الأشياء ، ولا أن تغلب عليها . وإذن فلا مخرج من هذا المأزق الذى اضطر إليه صدقي باشا ، وورط فيه سياسة بلده إلا أن يستقيل ، ويدع هذه السياسة لمن هم أقدر منه على تصريفها والنهوض بأعبائها . وحسبه أنه قد أحررق وطنه ثلاثة أعوام ، وحسبه أنه قد أضاع على بلاده كثيراً من الفرص كانت تستطيع أن تنهزها لتتقدم خطوات واسعة فى سبيل الإصلاح ، وحسبه أنه قد امتحن بلاده ، وأسرف فى امتحانها ، وقد فتن أمتة وغلا فى فتنها ، فأظهر مواضع للضعف ما كان ينبغى أن تظهر مشوهة قبيحة على هذه الحال . ولكن رئيس الوزراء يحب الحياة لوزارته ، كما يحب كل إنسان لنفسه الحياة ، فهو يطاول ويداور ، ولا يريد أن يتعجل فيقصي نفسه عن الحكم ، وإنما يريد أن تقهره الظروف القاسية فيدع الحكم كارها ، لا طائعا . وهو يعلل نفسه بالأمانى ، ويذهب المذاهب المختلفة فى إطالة مدته فى الحكم ، ولعله

لا يعدم من الانجليز الذين غلوا في تأييده وإعائته من يشاركه في الرأي ويقاوم معه طبيعة الأشياء ويدفعه إلى التعلق بالحكم حتى يضطر إلى تركه اضطرارا .

وكذلك وضع رئيس الوزراء نفسه في هذا الموضع المؤلم الذي يثير الإشفاق والرحمة حتى في نفوس خصومه ومعارضيه : فهو ضعيف قد فقد كل حيلة في التماس القوة على النهوض بأعباء الحكم ، وهو مريض في حاجة شديدة إلى الراحة : وهو رغم ضعفه السياسي . ورغم مرضه متعلق بالمنصب ، حريص على البقاء فيه .

والناس يقولون (ومن الكتاب السياسيين من يوافقهم على ما يقولون ولا يتخرج في إظهار شيء من الرضى والأمل بما يقولون) إن في الحركة الإدارية التي أحدثت أمس تمهيدا لتغيير السياسة الصديقة التي قام على فسادها ألف برهان وبرهان . فقد يظهر أن نقل المديرين من إقليم إلى إقليم إنما هو توسعة على هؤلاء المديرين في أن يتهجوا في السياسة نهجا رفيقا ، غير النهج العنيف الذي دفعهم إليه عنف صدق باشا ، وإيثاره لإظهار القوة والبأس ، فقد يكون من العسير على مدير أسيوط السابق أن يلين بعد شدة ، ويخف بعد عنف دون أن يعرض كرامته وهيئته لشيء من الابتسام على ثغور الناس قد لا يصور الاحترام ، وقد يصور ما هو نقيض الاحترام ، لذلك نقل إلى الغريبة ليكون فيها رفيقا شفيقا بعد أن كان عنيفا مسرفا في العنف . وأرسل إلى أسيوط مدير البحيرة السابق ليظهر فيها من المودعة والمصانعة ما لم يكن يستطيع أن يظهره مديرها السابق . وقل مثل هذا في سائر المديرين الذين مسهم التغيير والتبديل .

وقد يكون هذا حقا ، وقد يكون صدق باشا قد رأى أو رأى له أن من الخير أن تتغير السياسة في الأقاليم ، وأن يؤخذ الناس بالحسنى ، وتنجلي عنهم غمرة العذاب الذي أخذهم من كل مكان ، لتهدأ ثورة النفوس ، وليخف ما أشعرته القلوب من بغض للحكام . ولكن الشيء الذي ينبغي

الوقوف عنده إن كان هذا الكلام صحيحا هو أن الحكومة كانت أشد رعاية لنفسها ومديريها منها لأهل الأقاليم . فهي تضمن بمدير أسيوط على أن يرفق بعد عنف ، ويلين بعد شدة ، وهي تؤثره بحبها وتحرص على كرامته وهيبته من ابتسام الناس . وليكنها لم تؤثر هؤلاء الناس بعطفها ورحمتها ولم تحرص على كرامة هؤلاء الناس أن يمتننها مدير أسيوط بما كان يصب عليهم من عذاب فيه الإيلام والإذلال معا . هي تخاف على المدير من ابتسامه الناس ، ولا تخاف على الناس من عبوس المدير .

كرامة موظفيها أعز عليها ، وآثر عندها من كرامة الأمة التي إنما أقامت الحكومة لتخدمها ، وترعى مصالحها ، لا لتسخرها لأنواع الدل ، ولا لتؤثر عليها أفرادا من الموظفين . ومعنى هذا أيضاً إن صح ما يقوله الناس ، وينتظر الخير منه بعض الكتاب السياسيين أن الحكومة تعبت بعقول الناس ، وتلاعب الأمة كما يلعب الرجل الطفل الصغير .

كان أهل أسيوط يضيقون بمديرهم فينقل هذا المدير ، ويرسل إليهم مدير آخر ، ويحيل إلى الحكومة أنها قد أرضت أهل أسيوط ، ولكن أهل أسيوط جزء من الأمة المصرية ، لأن أسيوط جزء من أرض مصر . وإساءة مدير أسيوط إلى أهل إقليمه كانت إساءة إلى الأمة المصرية كلها . فانقلوه من أسيوط ، وضعوه حيث شئتم من الأرض فلن يغير ذلك من الأمر الواقع شيئاً ، والأمر الواقع أن هذا المدير وأصحابه لم يسيثوا إلى أهل أقاليمهم وحدهم ، وإنما أساءوا إلى الأمة كلها ، لأنهم أساءوا إلى القانون الذي كلفوا تنفيذه ، وإلى النظام الذي كلفوا حياطته وإلى العدل الذي كلفوا القيام على حمايته . وقد ذهب العصر الذي كانت الحكومات تفرق فيه بين الأقاليم ، وترى أن الإساءة إلى أحدها لا تمس غيره .

ذهب هذا العصر ، وأصبح كل فرد من أبناء مصر يصور الأمة المصرية كلها في حقه على الحكومة من الحماية والرعاية . ولم تبق الأقاليم إلا وحدات إدارية ليس غير . وأكثر من هذا أن نقل المديرين أو عزلهم

أو محاكمتهم ، كل ذلك لا يغير من الأمر شيئاً ما دام الذى يسط أيدي المديرين على الناس مستأثراً بالحكم ، قادراً على أن يسط أيديهم مرة أخرى . فليس الذى يهدى ثورة النفوس ويلطف حدة القلوب ، هو أن ينقل مدير أو يعزل ، وإنما هو أن تستقيل الوزارة أو تقال .

إن الذين يظنون أن هذه الحركة الإدارية قد تكون تمهيداً لسياسة جديدة تسلكها الوزارة القائمة يخطئون خطأ قبيحاً جداً ، ويقيمون أوضاع الأدلة على أنهم لم يفهموا الشعب المصرى بعد . فالشعب لا يخدع منذ الآن بالصور والأشكال ، والشعب لا يرضى بأن ينقل مدير مكان مدير ، وإنما يريد الشعب أن تبحث هذه السياسة من أصلها ، وأن تتخلى الوزارة القائمة لياقى مكانها قوم آخرون ، لا يسطون أيدي المديرين على الناس إلا بالخير وأغرب من هذا أن من الكتاب السياسيين من عظم حظهم من خصب الخيال وبعده ، فهم يقدرّون أن هذه الحركة الإدارية تمهيد لتغيير السياسة الانجليزية المصرية كلها ، ولإقامة وزارة مكان وزارة . وإذن فما أقوى رئيس الوزراء على نفسه ، وما أحراه بالإعجاب والإكبار ، وما أسمى هؤلاء الذين يوحون إليه ويعملون عليه ، ويدفعونه إلى أن يمهّد لخصومه الذين سيخلفونه ويعفون آثاره فى سياسة الدولة .

هذا كثير على رئيس الوزارة ، فما علمنا أنه قد بلغ من الإيثار هذا الحد إلا أن يكون لهذا التغيير المنتظر قوام آخر ، هو الذى أشارت إليه النيراىست أخيراً ، وهو توسيع الائتلاف وإضافة رءوس أخرى إلى رأس الوزارة القائمة . وإذن فما أجدر هذا التغيير بأن يلقي نفس الإخفاق الذى لقيته وزارة صدقي باشا .

قد تخطر فى عقول الساسة حلول مختلفة للموقف السياسى فى مصر الآن ، ولكن الشيء الوحيد الذى لا بد منه لأى حل يراد أن ينظر فيه نظر جد وتفكير ، هو أن يتنحى رئيس الوزراء عن سياسة الدولة الآن ، وما أشد حاجته إلى أن يعتزل السياسة فى هذه الأيام ويستريح .

(١٣)

درس

رئيس (١) وزرائنا أستاذ ، تلاميذه الوزراء ، يعلمهم كيف يحكمون ، وكيف يديرون أمور الشعب وفقا لسياسته التي رسمها أو رسمت له ، وهو يراقب حكمهم وتدبيرهم ، فمن أجاد منهم أبقاه ، ومن قصر منهم أقصاه .

ووزير داخليتنا أستاذ ، تلاميذه المديرون والمحافظون وحكام الأقاليم ، يعلمهم كيف يديرون أقاليمهم طبقا للسياسة التي يملها عليه رئيس الوزراء : أو يبلغها إليه رئيس الوزراء : فهو يجمعهم إليه كلما سنحت فرصة للاجتماع ، وهو يتصل بهم إذا لم يتح له أن يلقاهم ، وهو إذا لقيهم مجتمعين ، أو اتصل بهم منفردين ألقى عليهم دروسا ، ووجه إليهم أسئلة . فمن فهم الدروس وأحسن الجواب ، وأظهر ذلك بالسيرة العملية المرضية في سياسة الأقاليم وحكمها رقاها . ومن لم يظهر منه سبق الفهم ، ولا مهارة في الجواب ، ولا نشاط في السيرة العملية ، تركه حيث هو حتى يظهر تفوقه .

ومن ظهر في فهمه التواء ، وفي أجوبته انحراف ، وفي سيرته اعوجاج عن السياسة المرسومة والخطة المعلومة ، هبط به إلى إقليم دون إقليمه ، أو انتزعه انتزاعا من حكم الأقاليم .

وقد كان أمس يوما من أيام الدرس ، ويوما من أيام الامتحان ، فقد اجتمع المديرون إلى أستاذهم الجديد وزير الداخلية ، فسمعوا منه وتحدثوا إليه ، وتلقوا أسئلة وأجابوا عليها . وليس من اليسير أن نتعرف بالتفصيل

موضوع الدروس والامتحان وإن قالت الصحف أمس واليوم كما تقول دائما إن الأمن العام كان موضوع الحديث في هذا وذاك ، ولكن من المرجح إن لم يكن من المحقق أن الدرس الذى ألقى صباح السبت على المصريين جميعا وعلى وزراء العالم كله ، ورجال الإدارة فيه ، كان موضوع الحديث في درس أمس . ولعلك تذكر أن هذا الدرس قد ألقى في الهواء الطلق ، ولم يكن محاضرة يكثر فيها الكلام ، ولا مناظرة يتعقد فيها الحوار ، وإنما كان درسا عمليا أشبه بالتمرينات التى يؤخذ بها الطلاب في فصول الدرس . وكان موضوعه معقدا بعض التعقيد .

زعيم أو زعيمان يزوران شعبا يحبهما ، والشعب يلقيهما بأروع مظاهر الحب لهما والسخط على خصومهما . والحكومة تكره حب الشعب لزعمائه ، وتشفق من سخط الشعب على سادته القاهرين له ، وتريد أن تريح نفسها من مظاهر الحب للزعماء والسخط على القاهرين ، لأن هذه المظاهرة تكذب ما شاع وذاع وملا الأسماع ، وطبق آفاق الدنيا ، وتردد في أجواء السماء من أن الشعب لم يبق له إلا زعيم واحد يحبه ويفنى فيه ، ويفديه بالأمهات والآباء ، وبالبينات والأبناء ، وبما كان يملك أيام الرخاء ، وبما لا يملك منذ ألم به الشقاء . وهذا الزعيم هو رئيس الوزراء . فكيف التخلص من هذه المظاهرة ؟ وكيف الوصول إلى إقصاء الزعيمين عن هذا الشعب الذى خيل إلى الحكومة أنه يحبها ويهواها ؟

فلما ظهر له زعيماه القديمان ، تبين أنه كان يعيث بالحكومة ، أو أن الحكومة كانت تعيث بنفسها ، وأن هذا الشعب ما زال مقبلا على عهده لزعمائه ، فهو بهم كلف ، ولهم مستجيب .

هذه هى المشكلة التى كانت موضوعا للتمرين يوم السبت . وأنت تعرف كيف حلها وزير الداخلية ! وكيف حلت له بخطط الرئيس وصاحبه . وقد وقع هذا الحل البديع من غير شك موقع الغرابة في نفوس الطلاب من المديرين

وحكام الأقاليم ، فقد كانوا يعلمون أن الضروريات السياسية تبيح طائفة من المحظورات يأبأها الدستور ، وينكرها القانون ، ويتحرج منها النظام . تبيح الضرب على أيدي الناس بالحق وبالباطل ، وتبيح التحرش بهم ، والتنمر لهم . تبيح إلقاءهم في السجون من غير تحقيق . تبيح إخضاعهم للعذاب بغير حساب . تبيح تسخير أموالهم لمعونة الأحزاب ، وتسخير أشخاصهم للاحتفاء بالوزراء ، والتوقيع بأسمائهم على ما يحبون وما يكرهون .

كانوا يعلمون هذا ، ويأتون منه ما تدعو إليه الضرورة أو تقتضيه المنفعة ، أو تمس إليه الحاجة . وربما تهالكوا عليه ، واستبقوا إليه ليلغوا من رضى الوزير عنه وعطفه عليهم ، وإكباره لكفائاتهم ما يريدون . وربما كانوا يعتقدون أن ليس بشيء من هذه المحظورات بأس ، فهي مظهر من مظاهر القوة ، ولون من ألوان السلطان . وقد كان مألوفاً في مصر قبل أن تأخذ مصر بالأساليب الحديثة في الإدارة والحكم . والرجوع إلى العهد القديم شيء مرغوب فيه من وقت إلى وقت لأنه يجدد النشاط ويرد الشباب ، ويعيد ذكرى الماضي ، والإنسان مشغوف بالرجوع أحيانا إلى الماضي ، ولكنهم لم يكونوا يقدرّون في يوم من الأيام أن الخطف والاختلاس يصلحان لأن يكونا من أساليب الحكم .

فالخطف مظهر من مظاهر الضعف . والقوة أخص ما تحرص الحكومات على أن تمتاز به من المظاهر . وفي الخطف مساس ظاهر جدا بالأخلاق . والحكومات شديدة الحرص على أن تظهر - ولو لخداع الناس - شيئا من حماية الأخلاق ورعايتها . والخطف شيء تعدّه القوانين من الآثام الثقيلة جدا ، وتشد في معاقبة الخاطفين ، ولعلها لا تفرق بينهم وبين قطاع الطريق العام . فلم يكن يخطر للمديرين أن القاعدة المشهورة « الغاية تبيح الوسيلة » تكفى لإباحة الخطف على أنه أسلوب من أساليب الحكم والمحافظة على هيئة الحكومات .

فلما خطفت (١) الحكومة المصرية زعيم الأمة المصرية وصاحبه ، اضطربت نفوس المديرين ، واختلطت آراؤهم إلا فريق الممتازين منهم طبعاً ، وأخذوا يسألون أنفسهم : ماذا نصنع منذ اليوم ؟ أنخطف أم لا نخطف ؟ أنسرق الناس أم لا نسرقهم ؟ حتى كان درس أمس . وأكبر الظن أن الخطف شئ يعاقب عليه الأفراد والجماعات ، ولكنه يباح للحكومات ، والحكومات الدستورية خاصة .

ولا بد أن يكون هذا التفسير قد فصل تفصيلاً وافياً ، لأن ذكاء الطلاب متفاوت ، فمنهم من تكفيه الإشارة ، ومنهم من يحتاج إلى البسط والتطويل . والأستاذ الذى يبلغ من البراعة مبلغ وزير داخليتنا مضطر إلى أن يقيس درسه

(١) كان حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا زعيم حزب الوفد قد قام برحلة إلى الصعيد وفى صحبته مكرم عبيد . وكان الشعب يخرج لتحيته والترحيب به والمتاف بحياته وحياة الوفد . وكان الزعيم يلقي الخطب الحماسية فى كل بلد يحل فيه ، داعياً إلى الجهاد والكفاح ، ومتعرضاً للأذى من رجال الإدارة . وقد ألقت الحكومة القبض على الكثيرين ومن بينهم نواب وفديون سابقون ، بتهمة التظاهر ، نذكر منهم بشارة أندراوس نائب الأقصر سابقاً ، والشيخ محمد موسى الأقصرى لأنه أنشد بين يدى الرئيس الجليل قصيدة جاء فيها :

سر فى طريقك رافعا علم الجهاد ولا تخف
يا مصطفى أنت الزعيم وأنت عنوان الشرف
والشعب آمن بالزعامة والكرامة واعترف
هو لا يميل مع الهوى ويراه بعد من السرف
عن نهج سعد لا يحيد ومصطفى نعم الخلف

وبعد أن زار النحاس أسوان وادفو والأقصر وقنا ، أراد أن يواصل الزيارات فى بقية بلاد الصعيد ، ولكن الحكومة أمرت بفصل عربة السكة الحديد التى كان يستقلها الرئيس وألحقها بجرار انطلق بها إلى القاهرة رأساً دون توقف وبأقصى سرعة .

بأصحاب الذكاء المعتدل ، لا بالمسرفين فى الذكاء ، ولا بالمسرفين فى قلة
حظهم منه ! فلا بد إذن من أنه قسم لهم الحكومات إلى قسمين : أحدهما هذه
الحكومات الضعيفة التى تواجه المصاعب من أمام ، لا من وراء ، المترددة التى
تلقى خصومها بالصراحة ، لا بالمداورة والكيد ، السمجة التى لا تفرض
نفسها على الناس فرضا ؛ وإنما تقم فيهم ما أحبوا . فإذا أحست منهم نفورا
تنحت لهم عن مناصب الحكم . وهذا النوع من الحكومات قد بليت به مصر
فى عصر من العصور ، فساعت حالها ، واضطربت أمورها ، وأوشكت
الفوضى أن تفسدها ، وهو نوع يألفه الأوربيون والأمريكيون ، ويكلفون
به ، ولا يجنون منه إلا الشر والنكر !!

أما القسم الثانى فهو هذه الحكومات القوية التى لا تستقبل المصاعب
ولكن تستدبرها ! الحازمة التى لا تحب الصراحة وإنما تؤثر عليها المداورة
والالتواء ، الرفيقة التى تحكم الناس سواء أرادوا أم لم يريدوا . ولا تتخلى
عن الحكم إلا إذا انتزعت منه انتزاعا .

فأما القسم الأول من الحكومات فلا يحب الخطف . وأما القسم الثانى
فلا يحب غير الخطف .

هل اقتنع الطلاب بهذه الآراء ؟ أم هل خرجوا من قاعة الدرس كما
دخلوها ، وما تزال نفوسهم مضطربة ، وآراؤهم مختلفة ؟ علم هذا عند الله
وعند المديرين ، ولكن الشئ الذى لا شك فيه هو أنهم أظهروا الاقتناع
والاطمئنان ، وسيطيعون فيحسنون الطاعة ، وسينفذون فيحسنون التنفيذ ،
وسيحفظون لأنفسهم وللحكومات المقبلة بما قد يكون لهم من رأى خاص .

وإذن فسيعرض الزعماء للخطف أينما ساروا ، وحيثما وجهوا ، ولكن
الحاجة تفتق الحياة كما قال القدماء . وما دامت الحكومة قد جعلت الخطف
وسيلة من وسائل الحكم ، فمن يدرى ؟ لعل الزعماء لا يفقدون وسيلة يتقون
بها أن يخطفوا ، وأن يسير بهم القطار فى هذه السرعة التى تعجز عنها الطير
ولا يؤمن منها الضير .

(١٤)

مقاومة

لا عنف (١) فيها ولا حدة ، ولا بأس فيها ولا شدة ، ولسكنها هادئة مطمئنة ، ينخيل إلى كثير من الناس أنها استسلام وإذعان ، فإذا بلوها وجدوها مرة ، وإذا اختبروها وجدوها صلبة ، وإذا سلطوا عليها ما يملكون من قوة ، لم يبلغوا منها شيئاً . وإذا ابتسامات هذه المقاومة الهادئة ليست مظهراً من مظاهر الضعف ، ولا لوناً من ألوان الرضى ، ولا أسلوباً من أساليب الإذعان ، وإنما هي سخرية لاذعة ممضة ، تغر وتغرى حتى إذا دنا منها الطامع فيها ، والمزدرى لها وجد عندها السم الزعاف فارتد عنها مفلول الحد ، مقطوع الرجاء .

ما أجمل هذا الهدوء الهادئ الذى بحسبه المستعمرون ذلة فإذا هو العزة كل العزة ، ويراه الطامعون إذعانا فإذا هو الإباء كل الإباء ، وإذا هو الدليل الواضح والبرهان القاطع على أن الثورة ليست فى العنف وحده ، ولا فى الشدة وحدها ، ولا فى هذا الاضطراب الذى يفسد له النظام ، وتقترف فيه الآثام ، ويذهب فيه الأخيار الأبرياء فداء للأشرار الآثمين . وإنما هى قد تكون دعة وأمناً واطمئناناً ، يدور حولها العدو فلا يصل إليها ، ولا يستطيع أن يدنو منها حتى إذا جد الجد تبين أن قد أنفق جهده فى غير طائل ، وأضاع وقته فى غير غناء .

ما أكثر ما عنى الشعراء وأصحاب الفن بهذه الابتسامات الساخرة التى ترسم على ثغور بعض الأفراد هازئة بالحوادث ، مزدرية للخطوب ! ما أكثر ما عنى الشعراء وأصحاب الفن بابتسامات الأفراد هذه ، فأبدعوا وأجادوا ، وأظهروا للناس آيات فنية خالدة ، وما أخلقهم أن ينظروا

إلى ابتسامات أخرى ساخرة هي أروع من تلك الابتسامات وأجمل ،
وهي أشد منها وقعا في القلوب ، وأبعد منها أثرا في النفوس ، لأنها
ابتسامات تترجم عن سخرية الشعب من قوة الأقوياء ، وازدراء الأمم
لسلطان المتجبرين .

في هذه الابتسامات الشعبية جمال الصبر والجلد ، وجمال العزة والشمم ،
وجمال الثقة والأمل . وفيها فوق هذا كله وبعد هذا كله جمال التضامن
الصادق ، والتعاون الذي لا يجد الضعف ولا الفشل سبيلا إليه .

ما أجدر الشعراء وأصحاب الفن أن يصوروا سخرية الشعوب هذه ،
وما أجدر المتسلطين والذين يريدون أن يكرهوا الأمم على ما لا تحب ،
ويأخذوها بما لا ترضى أن ينظروا هم أيضاً إلى هذه الابتسامات فلعلها أن
تثير في نفوسهم العظة ، ولعلها أن تملأ قلوبهم بالعبرة ، ولعلها أن تقنعهم
بأن إذلال الأفراد قد يكون ميسوراً ، ولكن إذلال الأمم شيء
لا يطمع فيه .

فمن الحق أن ينفق فيه الجهد ، ويضاع فيه الوقت ، ويضحى فيه
الساسة بذكائهم وكفائتهم ، وما يطمعون فيه من حسن الأحداث وبعده
الصيت .

ما أجمل هذه الابتسامات وقد ارتسمت على ثغر مصر منذ نهض
رئيس الوزراء بأعباء الحكم ، فما زالت مرتسمة على هذا الثغر ، لم تفارقه
ولم تتحول عنه ، ولم يشبها عبوس ، ولم يغير من صفائها وجمالها تقطيب
ولا شحوب .

لقد نظرت مصر إلى صدقي باشا حين ألف وزارته ففهمت ما كان
يريد ، فابتسمت له شفقة عليه ، تعظه وتحذره ، ولكنه أخطأ فهم
هذه الابتسامة ، فلم ير فيها وعظا ولا نصحا ولا نذيرا ، وإنما رأى
فيها رضى وتشجيعا وتسليما . فمضى في سبيله يشتد ويسرف في الشدة ،

ويغير ويغلو في التغيير ، ويبدل ويمعن في التبديل . وهو كلما مضى في طريقه شوطا ، نظر إلى مصر فرأى ابتسامة الإشفاق والندير ، ولم يفهم منها إلا الإذعان والتسليم فيستجمع قواه ، ويمضى أمامه مشتدا ملحا ، وإذا قواه تسلط على البرلمان فيحل ، وعلى الدستور فيغير . ثم على الأفراد والجماعات فيؤخذ بعضها بالرغبة ، وبعضها بالرهبة . ثم على المصالح العامة كلها فيسرى فيها الفساد كما تسرى العلة في جسم الرجل الصحيح ، ثم على السياسة الخارجية بيتنا وبين الانجليز ، وبيننا وبين غير الانجليز من الأمم ، فإذا هي مزاج غريب ، ظاهره العزة التي لا تخدع أحدا ، وباطنه التسليم والانخزال ، وهو كلما مضى أمامه شوطا أو أشواطاً نظر مصر فرأى هذه الابتسامة المشفقة الساخرة ، ولم يفهم منها إشفاقاً ولا سخرية حتى يبلغ به الجهد أقصاه ، وينتهي به الإعياء إلى غايته ، هنالك وهنالك فحسب يبدو له ، — ولكن بعد فوات الوقت وضياع الجهد — أنه قد غره بأمته الغرور ، فأصغر من شأنها وهو كبير ، وحقر من أمرها وهو عظيم ، وظنها راضية وهي ساخطة ، وحسبها مدعنة وهي شديدة الإباء . هنالك وهنالك فحسب نظر أمامه فلم ير إلا جهداً قد أنفق عبثاً ، وقوة قد ذهبت هباء . والتفت عن يمينه وعن شماله فلم ير لنفسه مخرجاً من هذا المأزق السياسي الحرج الذي ورط نفسه فيه ، فوقف حيث أراد الله أن يقف ، لا يستطيع أن يتقدم لأن الطريق أمامه مغلقة ، ولا يستطيع أن يتأخر لأن السبيل وراءه مقطوعة . فهو حائر لا يدري ماذا يصنع ولا يعرف كيف يقول . وأصدقاؤه الذين ظاهروه وناصروه ، وأولياؤه الذين عقدوا به الآمال ، وناطوا به الأمانى ، ينظرون إليه ويقبلون عليه ، ويطيفون به ، وهم يسألونه : ماذا صنعت؟ وإلى أين انتهيت؟ أين تلك الآمال الواسعة والأمانى العريضة؟ أين أنت وأين نحن من تحقيق الأمل وتصديق الظن وإنزال هذه الأمة عندما تريد؟

نعم يسألونه فلا يجد لهم جواباً ، ويلحون عليه في السؤال فيلح هو في الصمت ، فيطرقون كما أطرق ، ويسكتون كما سكوت ، وتأخذهم

الحيرة كما أخذته . والأمة المصرية هادئة وادعة ، ومطمئنة ساكنة ، وعلى ثغرها هذه الابتسامة الحلوة الواضحة التي لم يبق شك ولا ريب فيما تريد أن تدل عليه .

ماذا ؟ أبعد ثلاثة أعوام لا تشرق الشمس فيها إلا على قوة مطلقة ، ولا تغرب الشمس إلا على مكر مدبر ، وكيد مهيا ، تظل الأمة كما كانت يوم نهض رئيس الوزراء ليبدل حياة بحياة ، ونظاما بنظام .

ماذا ؟ لقد كان الزعماء أول الأمر يهمون بالكلام فيؤخذون بالصمت ، وبالحركة فيضطرون إلى السكون ، وبالسفر فيردون إلى بيوتهم . وكان يقال : بقية من فوضى يجب أن يمحوها الحزم ، وفضل من اضطراب يجب أن يزيله النظام . ويمضي عام وبقية الفوضى ما زالت قائمة . ويمضي عام آخر وفضل الاضطراب ما زال قائما . ويشرف العام الثالث على غايته والأمر كما كان في الساعة الأولى. لا ينبغي أن يتكلم الزعماء ، ولا أن يتحركوا ، ولا أن يسافروا لأن الأمة ما زالت لهم محبة ، وبهم واثقة ، وحوهم ملتفة ، ولدعائهم مستجيبة . وإذن فقيم بذلت القوى ، وقيم أنفقت الجهود ، وقيم بعثت الأموال ؟ فيم ألغى نظام وأقيم مكانه نظام آخر ؟ فيم حل برلمان وأقيم مكانه برلمان آخر ؟ فيم سلطت الرغبة والرغبة على الأفراد والجماعات ؟ فيم رقعت الوزارة ورقعت ؟ فيم بسطت أيدي المديرين على الناس بما يباح وما لا يباح ؟ فيم أضاع رئيس الوزراء صحته وخضع لسلطان الأطباء ؟ فيم هذا كله ما دام الرئيس (١) الجليل لا يستطيع أن ينتقل إلا التفت حوله الأمة كلها كأول يوم ألفت الوزارة؟ ولا يستطيع أن يتكلم إلا خفقت له القلوب كلها كأول يوم ألفت الوزارة ، ولا يستطيع أن يدعو إلا استجابت له الأمة كلها كأول يوم ألفت الوزارة ؟ وإذن فقيم كان كل هذا الجهد وفيه ضحى بكل هذا الوقت ؟

(١) المراد زعيم الوفد .

سؤال لا يجد عند رئيس الوزراء له جوابا : وإنما تجد جوابه واضحا
جليا ، لذاغا نخبيا للآمال في هذه الابتسامه الحلوة المرة ، الراضية
الساخطة معا ، المطيعة المويثسة معا .

هذا رئيس الوفد وصاحبه لم يكذب يمتد بهما السفر حتى عجزت الحكومة
عن أن تحتمل حب الأمة لهما والتفافها حولهما ، فإذا هي تردهما كارهين
في قطار تحميه الشرطة أو بحميه الجيش أو بحميانه معا كعهدهما حين كانا
يحاولان السفر في العام الأول من أعوام هذه الوزارة .

وما أحببت الأمة رئيس الوفد ولا صاحبه افتتانا بشخصيهما ، وهياما
بهما . فهما مثلك ومثلي . ولكن الأمة ترى فيهما مبدأها الذي أقسمت
لتبلغنه ، ومثلها الأعلى الذي أقسمت لتنتهين إليه .

هلم إذن يا صاحب الدولة فاجمع من شئت من جنود الشرطة وجنود
الجيش ، واردد رئيس الوفد وصاحبه إلى القاهرة ، وضع كلا منهما
في بيته وغلق على كل منهما الأبواب ، وأقم دون كل منهما الحجاب ،
وأفعل مثل ذلك بغيرهما من الزعماء ، فلن تبلغ بهذا كله فوق ما بلغت ،
وماذا بلغت ؟ وأين تجد القوة على استئناف الجهاد ؟ أحركة يأس هي أم
حركة رجاء ؟

فما أكثر ما تعبث الآمال بالنفوس ، وما أكثر ما يعجز الناس عن
فهم العبر والعظات وإن تكن حركة يأس فما أصدق الشاعر القديم حين قال :

ربما تكره النفوس من الأم ر له فرجة كحل العقال
أما أنت أيها البلد العزيز الأبى فاحتفظ بابتسامتك الحلوة المرة ، فليس
أشد منها غيظا لحوادث الدهر ، ولا استهزاء بالمحن والخطوب .

غيوم

يظهر (١) أن في جو السياسة المصرية الخارجية غيوماً، لعلها خفيفة رقيقة ليس وراءها شيء ، ولعلها ثقيلة صفيقة وراءها أشياء . ولعل الأيام المقبلة تكشف عما تحجب هذه الغيوم من خير أو شر ، ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو أن من الواجب العناية بهذه الغيوم ، وتتبعها في دقة وفطنة. ومن الواجب أيضاً أن يجد المصريون في أن يقفوا منها موقف الصراحة التي لا تحمل شكاً ولا تأويلاً . وما الذي يمنعهم من ذلك ؟ وآمالهم ومثلهم العليا في حياتهم الداخلية ، وفي علاقتهم الخارجية واضحة كل الوضوح ، جليلة كل الجلاء . ووسائلهم إلى تحقيق هذه الآمال ، والوصول إلى هذه المثل العليا لا غموض فيها ولا إبهام .

فهم يريدون أن يكونوا أحراراً في بلادهم بكل ما يدل عليه معنى هذه الكلمة ، ويسلكون إلى تحقيق هذه الحرية سبلهم الواضحة التي يراها الناس جميعاً ، والتي قوامها المطالبة بالحق في غير هوادة ، وفي غير مراوغة ولا دوران .

فهم يريدون أن تكون صلاتهم الخارجية قائمة على الحرية ، لا يكرهون عليها إكراهاً ، ولا يدفعون إليها دفعاً ، ولا يستدرجون إليها استدراجاً ، ولا يقضى فيها وهم غائبون .

والظاهر أن الوزارة المصرية القائمة تقف الآن مواقف مريبة إلى حد ما في بعض المسائل ذات الخطر ، فتثير مواقفها هذه شكوكاً وأوهاماً ليس من مصلحة أحد أن تثور . ونحن نذكر من هذه المواقف المريبة التي تقفها

الوزارة الآن ثلاثة ليس غير ، فأما أولها فموقف الحكومة بإزاء المفاوضة مع الإنجليز . فقد كان رئيس الوزراء يستغل مسألة المفاوضة في الأعوام الماضية ويتخذ سعيه إليها وآماله في الظفر بها وسيلة من وسائل البقاء في الحكم . وقد قال في ذلك فأكثر . وقال زميله القديم توفيق دوس باشا في ذلك فأطال . ثم انقضت هذه الآمال وتبددت هذه الأمانى ، وظهر أن لا مفاوضة ولا شيء يشبه المفاوضة ، ولكن الحديث عن المفاوضة عاد فتجدد في أول هذا الشتاء ، وأخذ الناس يقولون إن أحاديث تجرى بين رئيس الوزراء والمندوب السامى ، ويشيعون أنها تتقدم حيناً وتتأخر حيناً آخر .

ثم مرض رئيس الوزراء ، وعجز عن المفاوضة والمحادثات أو ما يشبهها ، ولكن الناس ظلوا يتحدثون عن المفاوضة ، وغلا بعضهم فقال : إن ما عجز عنه صدقى باشا ينهض به قوم آخرون غير صدقى باشا .

ثم سافر المندوب السامى فجأة ، ولعله لم ينخدع لها أحد ، فكثرت الإشاعات ، واستفاضت الأحاديث بأن في الأمر شيئاً ، وبأن مشروع معاهدة قد تم . وسافر المندوب السامى ليعرضه على حكومته . فإن أقرته أمضاه رئيس الوزراء ، واستقال لأن مهمته انتهت . وإن رفضته استقال رئيس الوزراء لأنه عجز عن تحقيق الاستقلال ، وقد أخذ على نفسه عهداً ليحققن الاستقلال ، أو لينزلن عن الحكم .

والناس يختلفون في مشروع المعاهدة هذا ، فمنهم من يرقى به حتى يبلغ المشروع الذى وصل إليه الوفد الرسمى الأخير . ومنهم من ينزل به حتى يصل إلى مشروع ثروت تشمبرلين . ومنهم من يضطرب بين هذين المشروعين هبوطاً وارتفاعاً . وأكبر الظن أن أكثر هذه الأحاديث غير صحيح ، ولكن هناك شيئاً لا شك فيه ، وهو أن هذه الأحاديث التى تتصل وتستفيض وتلح في الاستفاضة والاتصال قد أثارت ريباً كثيرة في نفوس الناس من المصريين والأجانب .

فأما المصريون فمن حقهم أن يرتابوا لأن الأمر يتصل بحياتهم واستقلالهم ،
وهم لم يتعودوا إلحاحا في التكم والمداورة حول مسألة الاستقلال كهذا
الإلحاح في التكم والمداورة الآن . وهم لا يثقون بالوزارة القائمة ،
ولا يطمثون إليها ، ولعل أيسر ما يقال عن رأيهم في هذه الوزارة أنهم
يرتابون أشد الارتباب بكل ما تأتي ، لأنهم قد جربوا عليها الإسراف في
التهاون والإفراط في التقصير ، والغلو في دفع الأثمان الباهظة لأيسر الأشياء
وأقلها خطرا .

وهم يعلمون حق العلم أن البقاء في الحكم شيء له قيمته ، ويجب أن
يؤدي ثمنه فيخافون ، ومن حقهم أن يخافوا ألا يكون إسراف الحكومة
في تملق الإنجليز ومبالغتها في تحقيق أغراضهم ومآربهم في مصر والسودان
كافيا للحياة النزيه ، ووسيلة كافية للبقاء في الحكم . وأن تعرض الوزارة
أو يطلب إليها أصدقاؤها والمؤيدون لها من الإنجليز مشروع معاهدة معينة
على أن يكون ثمننا للحكم وقتا آخر طويلا أو قصيرا .

وأما الأجانب فلم ينظروا في يوم من الأيام ، وهم لا يستطيعون أن
ينظروا إلى المفاوضات بين المصريين والإنجليز نظرة المستخف الذي لا يحفل
ولا يكثر ، فلهم مصالحهم أيضا في مصر ، وهذه المصالح جزء من
موضوع المفاوضات . ومن حقهم أن يعرفوا أو أن يحاولوا أن يعرفوا إلى
أى حد ترعى هذه المصالح ، وعلى أى نحو ترعى ، وماذا يبقى لهم ، وماذا
يؤخذ منهم . فإذا كانت المفاوضات سرا مكتوما ، وحديثا من وراء
ستار ، فليس غريبا أن تثور الريب في نفوس الأجانب هؤلاء . وليس
غريبا أن تكثر بينهم الأحاديث ، وتستفيض فيهم الإشاعات فيفرح منهم
فريق ، ويجزع منهم فريق آخر ، ويضطرب الجو السياسي على كل حال .

هذا كله ولم نذكر البرلمان الذي لا يعلم من أمر هذه الأحاديث أكثر
مما علمه عامة الناس ، ولكن البرلمان راض عن موقفه هذا ، فلندعه

وما يرضى ، ونستطيع أن نؤكد أن هذا الغموض والإبهام ، وهذا التستر والتكتم ليس من شأنها أن توجد في مصر جوا صالحا لحياة صالحة . وما رأيك في جو سياسى قوامه الإشاعات المضطربة المختلطة التى تدعو إلى الرية وسوء الظن ، وتلقى في روع المصريين والأجانب معا أن شيئا يجرى خلف ستار ، هو بالمؤامرة أشبه منه بالمفاوضة .

أما الموقف الثانى من المواقف المريبة التى تقفها الحكومة فبازاء الدين . فقد زعمت الحكومة أن رئيسها وفق إلى إقناع الدول الأوربية بوجهة النظر المصرية كما يقولون ، وعاد رئيس الوزراء من أوروبا فتمدح بهذا الفوز فى شيء من الدل والتهيه : وفى لون من التلميح والتعريض ، وفى تجنب للصراحة والوضوح ، كما يفعل أصحاب الكفايات السياسية العليا ! ثم ظهر أنه لم يوفق إلى شيء . فأوفد صاحب السعادة عبد الحميد بدوى باشا إلى إيطاليا وفرنسا وإنجلترا ليحدث فى هذا الموضوع ، وقيل إنه وفق إلى شيء كثير ، ثم قيل إنه لم يوفق إلى شيء . ثم صدر حكم المحكمة المختلطة فغضب الناس جميعا ، وأعلن رئيس الوزراء أنه لن يدفع إلا ورقا ، ولكنه لم يتخذ إلى الآن وسيلة من الوسائل ليثبت للناس أنه يريد أن يفعل كما قال .

ومن هنا ابتدأت الريب والشكوك فى نفوس المصريين والأجانب معا . أريد رئيس الوزراء أن يلاثم بين قوله وفعله ، فلا يدفع إلا ورقا ؟ أم هو يريد أن يطاول ويماطل لتهدأ نائرة الشعب ، ثم ينزل بعد ذلك عند ما يريد الدائنون ؟

فان تكن الثانية فان المصريين معذورون حين يسيئون الظن ويتوقعون الشر ، وينكرون الحكومة التى تخدعهم ، والأجانب الذين يستغلونهم . والأجانب معذورون حين يضطربون بين اليأس والأمل ، وبين الخوف والرجاء ، وحين يترددون بين الذهب النضار ، وبين ما قد يضطر إليه المصريون من بغضهم والتبرم بهم .

وإن تكن الأولى فما أبطأ الحكومة في اتخاذ قرار حاسم مريح ، وما سببها إلى اتخاذ هذا القرار ؟ أتريد أن تتخذه وحدها في غير مفاوضة ولا مناقشة ؟ أم تريد أن تفاوض وتناقش ؟ ومن تفاوض ؟ أتفاوض الإنجليز وحدهم ليكونوا وسيلتها وشفعاءها عند الأمم الأخرى ؟ أم تفاوض الدول الأخرى في غير وساطة من الإنجليز ؟

كل هذه مسائل يخوض فيها الناس من المصريين والأجانب فتثير في نفوسهم شكوكا وريبا ، وتخلق جوارديثا قوامه سوء الظن ، وفساد الرأي ، وضعف التعاون الذي يجب أن يكون بين الذين يعيشون على ضفاف النيل من المصريين والأجانب جميعا . كل يرتاب بصاحبه . وكل يخاف من صاحبه ، وكل يصدق فيه قول الشاعر القديم :

فإما أن تكون أخى بحق فأعرف منك غنى من سمينى
ولا فاطرحنى واتخذنى علوا أجتويك وتجتوينى

الموقف الثالث من هذه المواقف المريبة ، موقف الحكومة في شأن الامتيازات . فالمصريون جميعا يكرهون الامتيازات ويريدون أن يتخلصوا منها كماخلص غيرهم من الأمم الشرقية . وكانت الحكومة المصرية تصل مسألة الامتيازات بمسألة المفاوضة مع الإنجليز ، فلما صدر حكم المحكمة المختلطة في مسألة الدين ، ظهرت مطالبات منظمة بإلغاء الامتيازات فورا ، لم يندع عنها أحد من المصريين ولا من الأجانب المقيمين في مصر ، بل عرف أولئك وهؤلاء من أين هبت الريح ، وقد بلغت الريح البرلمان ، ولكنها لم تلبث أن هدأت فهدأت حماسة النواب والشيوخ ، واستقرت فاستقرت حماسة تلك الجماعات التي كانت ترسل العرائض في كل يوم إلى الصحف ، ولعل المصريين والأجانب جميعا قد فهموا أو كادوا يفهمون كيف هبت الريح وكيف استقرت ، ولكن استقرار هذه الريح لم يستتبع استقرار النفوس في البيئات المصرية والأجنبية . فالمصريون ينتهزون الفرصة ليلحوا في إلغاء الامتيازات ،

والأجانب يقفون موقف الدفاع حيناً، وموقف الهجوم المنكر حيناً، وموقف
الريبة والخوف على كل حال .

وليس من مصلحة أى إنسان أن يكون الخوف والريبة والبغض قوام
الصلات بين المصريين والأجانب ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، فهذه
جريدة الديبا تشير إلى هذه المواقف الثلاثة التى تقفها الحكومة المصرية
فى الدين ، والمعاهدة والامتيازات . فيظهر فى إشارتها الشك والارتباب أيضاً .
فليس الشك مقصوراً إذن على المقيمين فى مصر ، وإنما هو يتجاوزهم إلى
أوروبا وصحفها الكبرى .

ومع ذلك فليس هناك موقف أصح ولا أوضح من موقف الأمة المصرية
الطبيعى بإزاء هذه المسائل الثلاث . فهى فيما بينها وبين الإنجليز تريد استقلالاً
شريفاً ، لا لبس فيه ولا غموض ، وهى فيما بينها وبين الدائنين تريد أن
تدفع بنقدها كما تفعل الأمم التى لا تزال معترمة تأدية ما عليها من دين . وهى
فيما بينها وبين الدول صاحبات الامتيازات تريد أن تلغى هذا النظام العتيق ،
وأن تلغيه فى غير موارد ولا عدا .

فما الذى يمنع الحكومة أن تقف من هذه المسائل موقفاً صريحاً واضحاً
كموقف الأمة فتزيل الشك وتمحو الريب ؟ الذى يمنعها شىء يسير لا تحفل به ،
ولكنه قوام الحياة الصالحة فى كل دولة تقدر كرامتها . وهو أن الصلة قد
انقطعت بينها وبين الأمة ، فهى تسمى الظن بالشعب ، وتخاف منه على
كل شىء . والشعب يسمى الظن بها وتخاف منها على كل شىء . والغريب
مع ذلك أن يعتقد بعض الأجانب من الإنجليز وغير الإنجليز أنهم يستطيعون
أن يتفقوا مع هذه الوزارة على شىء ضئيل أو عظيم .

(١٦)

زيارتان

من المحقق (١) أن حظ الأزهر من الرعاية أعظم جداً من حظ الجامعة المصرية في هذه الأيام ، لا بالقياس إلى حضرة صاحب الجلالة الملك ، فهو يرعى مرافق مصر كلها بما ينبغي لمقامه السامي من العدل والعطف والبر بشعبه الكريم عليه ، المخلص له ، بل بالقياس إلى الحكومة التي لا تنتزه عن الأثرة (٢) ، كما أنها لا تنتزه عن الإيثار . وقد تعلم أنت كما أعلم أنا أن رئيس وزرائنا هو حامى الدين ، والذائد عن الإسلام ، والأثير عند الشيخ الأكبر مهما تختلف الظروف وتبديل الخطوب . والذي لا يأتى عملاً إلا التمس له الشيخ الأكبر تأييداً أو تخريباً في كتاب من كتب الفقه ، أو سفر من أسفار الأصول .

وحكومتنا — كما تعلم أنت وأعلم أنا — حكومة تقليد ، لا تجديد ، قامت لتحقيق غرض واحد ، هو أن ترد مصر والعالم الإسلامى إن استطاعت إلى ساحة الإسلام وطهارته ، وأن تحقق البدع محققاً ، وتمحو الإلحاد محواً . فلا غرابة في أن تؤثر الأزهر بالعناية والرعاية ، وتنكب الجامعة ما استطاعت إلى التكيل بها سبيلاً . فإن أعيانها ذلك وضعت الجامعة منها موضع المغضوب عليه ، المزهود فيه .

ولست أريد الآن أن أذكر ما ربح الأزهر ، أو بعبارة أدق ما ربح الأزهريون من عطف الحكومة على الأزهر ، وما خسرت الجامعة والجامعيون

(١) ٢٩ — ٣ — ١٩٣٣ عدد ٢٣٤٨

(٢) الأثرة: حب الذات أو الأنانية ، والفعل أثر، والإيثار أن تقدم غيرك على نفسك . وفعله أثر : وتؤثر الأزهر أى تخصه ، والأثير : المفضل .

من غضب الحكومة على الجامعة . فقد يكون لهذا يوم قريب . وإنما أقف عند شيء واحد ، لا أعلوه ، ذكرته حين قرأت ما نشرته الصحف من وصف الزيارة الملكية لكلية أصول الدين أمس .

في أواخر فبراير من السنة الماضية ، تفضل جلالة الملك فشرف الجامعة بزيارته الكريمة . فلما شرف كلية الحقوق والآداب والمكتبة تفضل فذهب إلى سرادق الجامعة حيث سمع النثر والشعر ، وحيث تفضل فوزع بيده الكريمة بعض شهادات الدرجات الجامعية العلمية والتشريفية (١) على أصحابها .

ولاحظ الناس يومئذ أن الجامعة (٢) لم يسمع لها في هذا الحفل صوت ،

(١) المراد الدكتوراة الفخرية .

(٢) زار الملك فؤاد كلية الحقوق ودخل المدرج الأيسر حيث كان طلبة السنة الثالثة جالسين يتلقون درسا في الشريعة الإسلامية من الشيخ أحمد إبراهيم وكيل الكلية . ولما أذن لهم بالجلوس وقف الطالب حسن بغدادى وألقى كلمة ترحيب نيابة عن إخوانه . ثم أخذ الأستاذ يشرح الدرس وكان موضوعه « تطور حالة الميراث من عهد الجاهلية إلى ما استقر عليه الرأي في الإسلام »

وبعد أن وقف الملك قليلا مستمعا إلى الدرس توجه إلى المدرج الأيمن حيث كان طلبة السنة الأولى يستمعون لمحاضرة من الأستاذ عبد الرزاق أحمد السهوري في القانون المدني عن تطور العقد باعتباره سببا من أسباب الملكية تحت تأثير العوامل الاجتماعية والاقتصادية .

وفي كلية الآداب دخل أحد المدرجات حيث كان الشيخ مصطفى عبد الرازق يلقي محاضرة في الفلسفة الإسلامية عن الفارابي . كما استمع لمحاضرات بعض المستشرقين . وأخيرا توجه إلى السرادق الذي أقيم لهذه المناسبة . وقدم وزير المعارف للملك سفرا ألفه أحمد شوقي عن أمراء العرب وملوك الإسلام . ثم قدم الوزير الأستاذ على الجارم لإلقاء قصيدة من نظم أحمد شوقي وبما جاء فيها :

تاج البلاد تحية وسلام ردتك مصر وصحت الأحلام
العلم والملك الرفيع كلاهما لك يا فؤاد جلالة ومقام =

ولما سمع وزير للتقاليد يخطب بصوته العميق العريض فيطيل ، وسمع مفتش من وزارة المعارف ينشد قصيدة لشوقي رحمه الله . وتفضل صاحب الجلالة فزار كلية من كليات الأزهر أمس فلم يسمع في هذه الزيارة لغير الأزهر صوت . لم يسمع صوت التقاليد في عمقه وعرضه . ولم يقل مفتش من وزارة المعارف شعرا ولا نثرا . ومن الناس من يظن أن مصدر هذا الاختلاف

= فكأنك المأمون في سلطانه في ظلك الأعلام والأفلام
ومنها :

من آل إسماعيل لا العات قد قصرن عن كرم ولا الأعمام
وقد قبل هذا البيت بتصفيق حاد متواصل . وكانت الأميرة فاطمة إسماعيل قد تبرعت للجامعة بالأموال ووقفت عليها أرضا زراعية مساحتها ٦٢١ فدانا وستة أفدنة بالدقي .

ومنها :

لم يعط همهم ولا إحسانهم بان على وادي الملوك همام
وبني فؤاد حائطيه يعينه شعب عن الغايات ليس ينام
وقد قبل هذا البيت بتصفيق حاد متواصل . والقصيدة في ٥٣ بيتا . ثم ألقى على الجارم قصيدة جاء فيها :

دعوت بياني أن يفيض فأسمدا وناديت شعري أن يجيد فغردا
ومنها :

ملك حبه مصر محض ولأها صميما وأولى مصر عزا وصؤودا
رويدك أجهدت المورخ ما وني ولا فارقت يوما يراعه اليسدا
وهي في ٣٧ بيتا .

وبعد أن فرغ الجارم من إنشاد شعره ، دخل موكب جامعي بالملابس الجامعية ، وتسلم كل منهم شهادته الدكتوراه الفخرية ، نذكر منهم محمد توفيق رفعت باشا وعلى ماهر باشا ، وعبد العزيز فهمي باشا ، وعبد الحميد بدوي باشا . ومن كلية الآداب عبد الوهاب عزام أفندي . ومن الطب الدكتور على باشا إبراهيم وبعض زملائه من كلية الطب هـ

أن الأزهر كان أحرص من الجامعة على أن يتكلم بين يدي حامى الأزهر ومنشىء الجامعة ، ولكن هنا يجب الإنصاف ، وهنا يجب أن يكتب التاريخ .

فقد أرغمت الجامعة إرغاماً على أن لا تتكلم لأسباب يعرفها وزير التقاليد ووكيله والذين كانوا يرقون إليه بالكيد ، ويتزلون عليه بالوحي . واستقال مدير الجامعة ، أو هم أن يستقيل . وتعب عمداء الجامعة في هذا تعباً شديداً ، وسعى وكيل الجامعة في هذا سعياً معقداً ملتوياً طويلاً . وانتهى مدير الجامعة إلى أن نزل لوزير التقاليد عن الكلام بين يدي صاحب الجلالة . فتكلم وزير التقاليد وبرع في الكلام ، وقال وزير التقاليد فأطال القول ، وانتهت الزيارة ، وانصرف الناس ، وبعضهم يتحدث إلى بعض بأنهم قد أقبلوا يستمعون لمدير الجامعة ، فإذا هم يستمعون لوزير المعارف . ويتنبأ بعضهم لبعض بأن منع الجامعة من الكلام بين يدي منشىء الجامعة لا يدل على خير وكان بعضهم يسبق الحوادث أيضاً فيرى في منع الجامعة من الكلام نذيراً بأنها ستمنع من العمل قليلاً أو كثيراً . وكان بعضهم يسبق الحوادث أيضاً فيرى في إنشاء مفتش من وزارة المعارف للشعر في حفل جامعي نذيراً بأن يد وزارة المعارف ستنبسط في الجامعة والجامعيين حتى تخضع الجامعة لوزير المعارف ووكيله والذين يرقون إليه بالكيد ، والذين يتزلون إليه بالوحي .

ولم تمض أيام أربعة حتى كان من أمر الجامعة ما كان ، ولم يتم العام دورته حتى غير قانون الجامعة فقضت أجنحتها ، وحيل بينها وبين العمل الجامعي الصحيح . وفي أثناء هذا العام ، أقصى من الجامعة من كرههم الوزير ووكيله والذين يرقون إليه بالكيد ، والذين يتزلون عليه بالوحي . وضيق على الذين لم يكرهوا ولم يخافوا ، ولكنهم وضعوا موضع الشك والريب . ووسع فيها على الذين عرفوا كيف يدورون حول الأقطاب في القمة والحضيض وجرت أمور الجامعة أو مشت أمور الجامعة - كما علمت - متعثرة ، مشى المقيد في الوحل كما يقول مسلم بن الوليد .

أما الأزهر الشريف فما أظن أن أحدا نازع شيخه (١) الأكبر في الكلام بين
يدى زائره الكريم ، وتعليل ذلك يسير . فكلام الشيخ الأكبر بين يدي
صاحب الجلالة المصرية أهون على الله والناس من أن يخاف أو يحسب
له حساب .

وشخص الشيخ الأكبر ألين عودا ، وأشد مرونة من أن ينكره
رئيس الوزراء ، أو يحاول التخلص منه . وقد بذل الشيخ الأكبر من الجهد
والقوة في تأييد رئيس الوزراء وأعماله وأقواله وآماله ما لم يبذل مثله مدير
الجامعة السابق . وطمع رئيس الوزراء من شيخ الأزهر فيما لم يطمع في مثله
من مدير الجامعة السابق . فما الذي يمنع حامى الإسلام أن يخلى بين شيخ
الإسلام وبين الكلام ؟

ولا تقل إن شيخ الأزهر رجل دين فيجب أن يتكلم ، لأن الوزراء

(١) بعد مظاهرات المواطنين في الإسكندرية في ١٥ - ٧ - ١٩٣٠ التي سقط فيها
٢٥ قتيلا ونحو ٤٠٠ جريح ، أصدر الشيخ محمد الأحمدى الظواهري شيخ الجامع
الأزهر ، وأحمد نصر شيخ المالكية وعبد المجيد سليم شيخ الحنفية بيانا موجها إلى الأمة
المصرية ، وذلك بإيعاز من الملك فؤاد ، ومما جاء فيه :

« أيتها الأمة الكريمة . إن العبث بالنظام العام ، وللتحريض على القطيعة والتدابير ،
وإحداث الفتنة والشغب لمن أكبر الجرائم وأبشع المناكر التي تأبأها الفطر السليمة ،
وبحرمها الدين القويم . من أجل ذلك ننصح لأولئك الذين يندفعون إلى العبث بالنظام
العام أن يخلدوا إلى السكينة »

وقد نظر الشعب إلى هذا البيان بامتناع شديد ، لأنه يطلب من الأمة أن تستسلم
للإنجليز وللملك فؤاد ، ولا تطالب بحقوقها في الحرية والحياة الكريمة . وهذا شأن رجاله
الدين المسلمين الذين يتقاضون أجورهم من الحكومة ، فلا عجب أن استهزأ بهم الناس
وسخروا منهم . ولا عجب أن سقطت مكانتهم وانحطت منزلتهم ، وباءوا بغضب
من الله ومن الجماهير .

لا يحسنون من علم الدين ما يحسن . فانا أوكد لك أن مدير الجامعة السابق (١) رجل علم ، فكان يجب أن يتكلم ، لأن الوزراء ، وفيهم وزير التقاليد لا يحسنون من العلم بعض ما يحسن . وأنت تعلم أن كثيراً من الوزراء إذا تكلموا لم ينشئوا الكلام ، وإنما أنشئء لهم . وقد أنشئت لوزير التقاليد خطبته يوم الجامعة ، فتلاها في صوته العميق العريض ، فكان من الممكن أن تنشأ خطبة أزهرية للوزير المختص بشئون الأزهر فيتلوها ، ولكن شيخ الأزهر أثير ، ومدير الجامعة لم يكن مرغوباً فيه ، ولكن رجال الأزهر تورطوا في تأييد رئيس الوزراء ، ورجال الجامعة أبوا أن يكونوا أداة سياسية لرئيس الوزراء ، ولكن رجال الأزهر يريدون أو يرضون أن يكونوا دعاة إلى الرجوع ، وكان رجال الجامعة يريدون أن يكونوا رسل الرقي ، ولكن رجال الأزهر يجدون في بسط سلطان الحكومة القائمة على الشعب ، وكان رجال الجامعة لا يفكرون في حكومة ما ، وإنما يريدون تحرير العقل . وتحرير العقل خطر ، لأنه وسيلة الحرية والديمقراطية . وإذن فيجب أن تخفت صوت الجامعة ، ويجب أن يرتفع صوت الأزهر .

وكان في الجامعة قوم لا يحبون أن تخفت أصواتهم فابعدوا عنها ، وليس في الأزهر إلا من يجب أن يرتفع صوته إن شاءت الحكومة ، وتخفت صوته إن شاءت الحكومة . فيجب أن يقربوا جميعاً .

ولا تقل إن رجال الأزهر رجال دين فيجب أن تعرف لهم مكانتهم الدينية ، فإن رجال الجامعة رجال علم ، وقد أدوا واجبهم للعلمي أحسن

(١) كان مدير الجامعة أحمد لطفي السيد حاضراً الزيارة الملكية. ولو أراد أن يتكلم لما منعه أحد. وقد دار الزمان وأصبح طه حسين وزيراً للمعارف ، ووقف خطيباً بين يدي الملك فاروق في حفلة افتتاح جامعة محمد علي الصناعية فأطرى الملك ومدحه مدحاً عظيماً. وكان ينتظر أن ينعم عليه بالباشوية ولكنه لم يفعل ، بل قال له « متشكر يا طه بك » وضغط على كلمة « بك » . حدثني بذلك عباس محمود العقاد فاه إلى في . ولزم داره مدعياً أنه مريض ، فأنعم عليه الملك بالباشوية فبرىء لساعته ورجع إلى عمله . انظر للمؤلف : طه حسين الشاعر الكاتب ،

أداء ، ورفعوا مكانة مصر العلمية وكرامتها في أقطار الأرض ، ولم يؤد رجال الدين واجبهـم الديني ولا نهضوا منه بشيء .

أتذكر أننا استفتينا شيخ الأزهر في التمثيل والرقص والغناء ، وما ينفق عليها من أموال المسلمين في الأوبرا ، وأكدنا لك أن الشيخ سينكر إعانة الأوبرا في مجلس الشيوخ ، فقد مرت ميزانية وزارة المعارف أمام مجلس الشيوخ يوم الاثنين أى قبل الزيارة الملكية للأزهر ليلة واحدة ، فلم تذكر إعانة الأوبرا ، ولم يسمع صوت الشيخ ، ومن يدري ؟ لعله تخلف عن هذه الجلسة عمدا لتبرأ ذمته من إعانة التمثيل والرقص والغناء . فغير المنكر بالصمت ، واكتفى بأضعف الإيمان ، ومن يدري ؟ لعله تخلف عن هذه الجلسة مضطرا ليطمرن على إلقاء خطبته بين يدي صاحب الجلالة ، فأثر حسن الإلقاء على حسن البلاء في سبيل الإسلام والمسلمين .

لا تقل إن رجال الأزهر رجال دين ، فيجب أن ترعى مكانتهم الدينية فإن رجال الدين لا يسكتون على موت السنوسى (١) ، لأن وزارة مصر الإسلامية أبت أن تأذن له بالاستشفاء في مصر الإسلامية . إنما رجل دينه هو الحاخام الأكبر الذى لم يتردد في أن يشارك الإسرائيليين في الاحتجاج على ما يقال إن اليهود يلقون من الشر في ألمانيا .

(١) كانت حكومة الحجاز قد طلبت من الحكومة المصرية أن تسمح للسيد أحمد الشريف السنوسى بالحضور إلى مصر للعلاج من مرض ألم به ، فلم تتلق رداً من الحكومة المصرية . فأرسلت صحيفة « كوكب الشرق » مندوبا قابل للشيخ فوزان السابق وزير الحجاز المفوض في القاهرة وسأله عن هذا الموضوع فذكر له أن طلب حكومة الحجاز وصل إلى القاهرة قبل مجئ ملك إيطاليا بيومين ، ورجح الشيخ فوزان أن يكون هذا هو السبب في عدم رد وزارة إسماعيل صدقي . وقد أقام بعض المصريين صلاة الغائب على روح السيد أحمد الشريف ، كما أقيمت الصلاة على روحه في برلين . ولزيادة المعلومات عن جهاد السيد أحمد الشريف انظر كتابنا « السلطان حسين كامل »

لا ، ليست (١) المسألة مسألة دين ، ولا مسألة علم ، وإنما هي مسألة سياسية ليس غير . رأت الوزارة في الجامعة معهدا خطرا على سياسة القهر والتسلط فغضبت عليها. ورأت الوزارة في الأزهر ، أو قل في شيوخ الأزهر ، أو قل في الهيئة الرسمية للأزهر ، أو قل في شيخ الأزهر مؤيدا لسياستها هذه ، فرضيت عنه ، وآثرته بالخير . فأما الأمة فإنها تعلم حق العلم أين الذين يؤيدونها وينصرونها ، ويهيئون لها الوسائل إلى الحرية والعزة والكرامة ، فتتظر إليهم في حب ، وترمقهم في أمل ، وتعدهم بأن تمنحهم من التأييد ما يمكنهم من المضى فيما هم بسبيله من سعى إلى تحقيق الحرية والعزة والكرامة والاستقلال .

فلهذا الأزهر برضى الحكومة ، ولتأها الجامعة برضى الأمة وغضب الوزراء .

(١٧)

استجواب

أظنه (٢) الاستجواب الثاني في تاريخ مجلس النواب القائم . فأما الأول فكان حول الجامعة . وكان المجلس حريصاً كل الحرص على أن يتعجل

(١) قدر لطفه حين أن يعيش حتى يرى ما حل بالجامعة والجامعيين من الذل والإهانة والنقل والفصل ، ولعله تذكر ما كتبه فيما مضى فسخر من نفسه وندم وتألم ، وتفجع وتحسر . إن جمال عبد الناصر لم يتورع عن ارتكاب أبشع الجرائم في حق مواطنيه ، وكانت النتيجة هي قتل روح الفداء والتضحية بين الناس ، وانتشار النفاق والرياء ، فالت الضمائر ، وفسدت الذمم وكثرت الوشاية والنميمة وجميع الصفات للدميمة :

(٢) كوكب الشرق في ٣٠/٣/١٩٣٣ ، عدد ٢٣٤٩

اليوم الذى يعرض فيه ، لأن (١) حياة الدولة يومئذ كانت تتعرض لخطر شديد . وقد عرض هذا الاستجواب وخرجت منه الحكومة ظافرة ، وخرج منه المجلس منتصرا ، وخرجت منه الدولة آمنة على حياتها ، مطمئنة على مستقبلها . وخرجت منه الأمة سعيدة راضية ، واثقة بأنها لن تتعرض لظماً ولا جوع .

ونظر الإنجليز إلى ظفر الحكومة وانتصار المجلس وأمن الدولة وابتهاج الأمة نظرة فيها ابتسامة ساخرة راضية معا . تسخر من عناية الحكومة والبرلمان بأيسر الأمور ، وترضى لأن الجامعة برئت من بعض العناصر الخطرة على سياسة الاستعمار .

أما الاستجواب الثانى فهو هذا الذى تحدث فيه المجلس أمس فى تحديد مواعده ، وهو استجواب أقل ما يوصف به أنه ضئيل الخطر ، يدل على فراغ البال ، والعناية بصغائر الأمور ، فهو يدور حول جبل الأولياء . وأى شىء يكون جبل الأولياء ؟ وأى قيمة أو خطر لهذا الخزان الذى إن أنشئ لم ينفع ولم يضر . وإن لم ينشأ لم تربح مصر شيئاً ، ولم تخسر شيئاً . لهذا كان المجلس ضيق الصدر بهذا الاستجواب ، وبالذين قدموه ، وكيف لا يضيق صدر المجلس بهؤلاء الذين يضيعون وقتهم ، ويريدون أن يضيعوا وقته فيما لا يغنى ولا يفيد .

والظاهر أن أصحاب الاستجواب قد أحسوا ضيق صدر المجلس فضاقت صدورهم هم أيضاً بهذا الاستجواب . لهذا كان المجلس متبرماً أمس ، حريصاً على ألا يحدد موعداً يخطب فيه الخطباء ، ويرد فيه الوزراء . وكان صاحب الاستجواب فاتراً فى الإلحاح يدور حوله ولا يتورط فيه ؟ وكان زعيم المعارضة (كما تسميه الأهرام) فاتراً أيضاً يضرب الأمثال بفرنسا مرة ، ويلججها مرة أخرى . ولم يكن الوزراء أقل

(١) يشير إلى استجواب عبد الحميد سعيد ، وقد سبق الكلام عنه .

فتورا من الأعضاء . فأما وزير الأشغال وأصلالة والمالية نيابة فقد تخفف من الحمل وبريء من التبعة ، وأعلن أن رئيس الوزراء يريد أن يرد بنفسه على هذا الاستجواب .

ورئيس الوزراء - كما تعلم - (١) مريض ، وقد يأذن له الأطباء في إمضاء الأوراق ، وفي الذهاب إلى أحد مكنتيه أو إليهما في المالية والرياسة إن أُلح في ذلك أو أصر عليه ، ولكن الوقت الذي يسمح فيه مرضه بأن يسمع فيطيل الاستماع ، ويتكلم فيطيل الكلام بعيد فيما يظهر ، قدره وزير الحقانية بشهر ، ووافق المجلس على هذا التقدير .

والشهر أمد قصير جدا في حياة مجالس النواب ، ولا سيما حين تكون دورتها قصيرة ، وحين تكون مشرفة على نهايتها . والشهر على ذلك أمد

(١) عاد إسماعيل صدقي إلى منزلة الساعة الثانية من بعد ظهر يوم ١٩٣٣/١/٢٦ فشعر بدوار ، استدعى على أثره الدكتور سليمان عزمى بك والدكتور جرجس بك للضبع . وقد جاء في النشرة الطبية أن رئيس الوزراء يشكو من احتقان غني خفيف مع ارتفاع الضغط الشرياني أكثر من المعتاد . وبعد العلاج اللازم تحسنت الحالة . أصيب صدقي باشا بشلل في ذراعه الأيمن .

وكان النحاس باشا قد وقف حاسر الرأس في مسجد الحسين بعد صلاة الجمعة للتيمة ووقف معه المصلون وودعا الله أن يرفع الضر عن مصر ، ويكشف البلاء عنها ، ويقرب يوم الخلاص »

ولما سقط إسماعيل صدقي مريضا خطب زعيم الوفد وقال : إن الشواهد تدل على أننا اليوم على وشك زوال هذا العهد المشوم . وسوف يكون جزاء صبرنا بإذن الله جزاء موفورا ، فنسترد حقنا كاملا غير مرقع ولا منقوص « الشعب والكوكب في ١٩٣٣/١/٢٧ .

وقد دعا على جمال عبد الناصر فأصيب بمرض نقص عليه حياته لأكثر من عشرة أعوام :

قصير تقع فيه حوادث قد تجعل الاستجواب غير مفيد ، لأنه تأخر عن إبانته ، وقد تثير ما يضطر أصحابه إلى استرداده ، وقد تثير ما يدعو الحكومة إلى أن تطلب تأجيله إلى أجل غير مسمى . وقد يتم فيها نظر العطاءات ، والاتفاق مع الذين يقيمون الخزان فيصبح الاستجواب درسا من دروس التاريخ ومناقشة حول مسألة تاريخية خالصة .

أكانت الحكومة مصيبة أم كانت مخطئة حين مضت في إقامة الخزان برغم المصريين ، وبرغم الإنجليز معا في ظاهر الأمر ؟ والمناقشات التاريخية قيمة جدا ولكن مكانها كما تعلم في غرفات المدارس وحجراتها ، لا في قاعات مجلس النواب .

وإذن فقد أجل الاستجواب شهرا ، ومن الآن إلى أن ينقضى هذا الشهر ستشرق الشمس ثلاثين مرة ، وستغرب الشمس ثلاثين مرة ، وستألق النجوم ، وتكثر الهموم . ومن يدري ؟ لعل هما حادثا يصرف عن هم قديم . ثم يقال بعد ذلك إن سادة مصر ينظرون إليها نظرا فيه شيء من الجدل ، ويصرفون أمورها تصرفا فيه شيء من العناية الصحيحة.

كلا ، إنما ينظر المسيطرون على مصر إلى مصر نظرة كلها بخرية واستهزاء . ولو قد عني المسيطرون على مصر بشؤونها عناية صحيحة فيها شيء من الجدل ولو قليلا لما أقام رئيس الوزراء في الحكم وهو مريض ، يعجزه مرضه عن العمل فتتعطل المصالح وتضيع المرافق ويمرض معه البرلمان ، ويصبح نشاط مجلس النواب رهينا بنشاطه ، وحياة مجلس النواب موقوفة على حياته .

استطاع رئيس الوزراء أن يتابع نشاط البرلمان شهراً ونصف شهر ، ثم مرض منذ شهرين ففضى البرلمان في طريقه كما استطاع مضطرباً متعثراً إلا حين يذهب أعضاؤه إلى الزمالك أو إلى مينا هوس ليظهروا أسفهم لمرضى الرئيس ، واعتباطهم بشفاء الرئيس ، وأملهم في نشاط الرئيس . فأما فيما عدا ذلك فمرض يشبه الشلل (كما قالت الأهرام منذ أيام) .

وتثار في المجلس مسألة لها خطرهما ، لأنها تمس حياة مصر من جميع فروعها ، فيجيب النواب بأن رئيس الوزراء مريض ، وهو يريد أن يقول في هذه المسألة قوله ، فانتظروا حتى يطلق الله لسانه ، ويأذن له بالكلام .

ويقبل النواب مثل هذا راضين عنه ، مبتهجين له كأنهم إنما أقبلوا إلى البرلمان ليكونوا رهنا بأمر الرئيس ورغبة الرئيس . وكأن مصالح مصر ومرافقتها وحياتها أهون عليهم من صحة رئيس الوزراء .

فاذا انقضى الشهر ، ولم تسمح صحة رئيس الوزراء له بأن يشهد جلسات المجلس ، ويشارك في أعماله ، فماذا يصنع الوزراء ؟ وماذا يصنع النواب ؟ وماذا يصنع المستجوبون ؟ سيطلب الوزراء التأجيل شهراً آخر حتى ينشط الرئيس (١) : وستلح الأغلبية في هذا التأجيل ، وتبتهج له لعلها ترى الرئيس ، وستتورط الأقلية فتبتهج كغيرها لهذا التأجيل لعلها تبدأ معارضتها بالترحيب بالرئيس وتهنئته بما ساق الله إليه من شفاء .

وفي أثناء ذلك تمضي الحكومة في إقامة الخزان ، لا تلوى على شيء . أجد هذا أم هزل ؟ أعناية هذا أم إهمال ؟

وأغرب من هذا كله أن جواب رئيس الوزراء معروف ، فهو لن يزيد على هذا الجواب الذي أرسل إلى زعيم المعارضة في المجلس (كما تسميه الأهرام) حين قدم سؤالاً في هذا الموضوع ، فأجيب بأن الأمر من حق السلطة التنفيذية ، لا من حق البرلمان . لن يزيد رئيس الوزراء إن تكلم عن هذا المعنى وسيغضب المعارضون . وستكرههم الأغلبية على الصمت وسيصوغ بعض الأعضاء اقتراحاً فيه الثقة بالوزارة والانتقال إلى جدول

(١) بعد موافقة مجلس النواب على ميزانية وزارة الأشغال ، سقط الاستجواب من تلقاء نفسه .

الأعمال ، وستقبل الحكومة هذا الاقتراح ، وتقبله الأغلبية ، وتخرج الحكومة ظافرة ، ويخرج المجلس ظافرا ، ويتسم ممثل الحكومة الإنجليزية ابتسامة فيها سخرية ورضى . ولن يكون شيء غير هذا إن أذن الله لرئيس الوزراء بالنشاط .

وإذن فلم لا يمثل هذا الفصل بعد عشرة أيام ؟ ولم يؤجل هذا التمثيل شهرا كاملا ؟ ولم يحرص رئيس الوزراء على أن يشترك في هذا التمثيل ؟ أهو شيء عظيم جداً لا يريد رئيس الوزراء أن يفوته الاشتراك فيه ؟ أهو شيء خطر جداً لا يأمن رئيس الوزراء أن يكله إلى وزير الأشغال أصالة والمالية نيابة ؟

فإن تكن الأولى فما موضع العظمة في هذا الفصل التمثيلي ؟ وإن تكن الثانية فما موضع الخطر ؟

إن الناس جميعاً يعلمون حق العلم أن الحكومة قد أخذت نفسها بإقامة الخزان ، وأنها ستمضي في إقامته دون تردد ولا إبطاء مهما تكن الظروف ، ومهما يقل النواب ، لا يصرفها عن ذلك إلا سقوط الوزارة .

ولعلك قرأت الأهرام أمس ، ولعلك فهمت أن الأمور مرهونة بأوقاتها ، وأن سقوط الوزارة قد يكون ، ولكن في الوقت الموقوت . وهذا الوقت الموقوت قد يكون في يونيو ، وقد يكون في يوليو ، وقد يكون قبل ذلك وقد يكون بعد ذلك ، ولكنه لن يحين إلا بعد أن يتم التدبير والتقدير لإقامة الخزان .

فليؤجل الاستجواب شهرا ، وليؤجل الاستجواب شهرين ، ولينظر الاستجواب قبل الشهر أو قبل الشهرين ، فلن تفيد مصر من تأجيله أو تعجيله شيئا .

(١٨)

وداع

زعموا أن زيادا لما ضبط العراق لمعاوية (١) ، وأقر فيه النظام الجديد بالقهر والعنف ، كتب إلى الخليفة يسأله أن يضم إليه ولاية الحجاز ، وهم الخليفة أن يفعل . وجزع أهل الحجاز حين انتهى إليهم هذا النبأ ، فلجأوا إلى عبدالله بن عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما - يسألونه أن يدعو على زياد ، فلم يدع عبدالله على أحد ، ولكنه استقبل القبلة فيما يقال ، وسأل الله العافية والسلامة والمغفرة للمسلمين ، وكفى الله أهل الحجاز زيادا ، وأراح الله أهل العراق من زياد ، لأنه نقل زيادا إلى دار أخرى ، لا ولاية فيها إلا لله ، ولا سلطان فيها إلا لله ، وليس فيها خوف من وال ، ولا إشفاق من أمير .

وكان أهل الحجاز معذورين حين أشفقوا من ولاية زياد ، لأنه كان قد جشم أهل العراق أهوالا ، وجرعهم من العذاب ألوانا . وكان أهل العراق معذورين حين تنفسوا الصعداء لانتقال زياد عنهم ، لأنه كان قد أذاقهم ألوانا من الذل ، وأنخصعهم لضروب من الخسف لم يعرفوها من قبل . وإن كان انتقال زياد عنهم لم يرضهم حقا ، فقد ولى أمورهم بعد من لم يكن خيرا من زياد ، بل من كان شرا من زياد .

وأنا بعيد كل البعد عن أن أفكر في أن بين ولاتنا في الأقاليم ، هؤلاء الذين نسميهم المديرين ، وبين زياد شبرا ما ... !! فقد كانت في زياد نخصال من الشر لم يبلغوها مع السرور ... !

ولكن الشيء بالشيء يذكر ، وتوزيع المديرين على الأقاليم في هذه الأيام القائمة يذكر بقصة زياد مع أهل الحجاز وأهل العراق . يذكر بها

لأن رضى أهل الأقاليم عن المديرين الراحين عنهم ، وأمل أهل الأقاليم في المديرين المقبلين عليهم لا يخلو من شوائب لا تصور الرضى ، ولعلها تصور السخط . ولا تصور الأمل ولعلها تصور الخوف واليأس .

فمهما يقل القائلون فلن يستطيعوا أن ينكروا أن أهل أسيوط ساخطون على مديرهم القديم سخطا سجله التضاء غير مرة . وتحدث به الناس في مصر وغير مصر فأكثرُوا الحديث . وما أظن أن أهل الغربية يستقبلون مديرهم الجديد في أمل مشرق ورجاء مبتسم ، وهو يقبل عليهم ومن ورائه البدارى والمطبعة وبنى حسين (١) ! وأكبر الظن بل الحق الذى لا شك فيه هو أن هذه الأحداث المنكرة التى استحدثت في أسيوط قد سبقت مديرها إلى أهل الغربية فملأت قلوبهم ، لا أقول رعبا وفزعا ، فالمصريون — بحمد الله — لا يعرفون الآن رعبا ولا فزعا ، ولكن ملأت قلوبهم حزنا وأسى ، لأنهم يتوقعون أن يسير فيهم مديرهم الجديد سيرة أهل أسيوط .

ومهما يقل القائلون فلن يستطيعوا أن يزعموا أن أهل الدقهلية يحفظون لمديرهم الراحل عنهم ذكريات ملوِّها الحب الخالص والثناء الجميل ، وإن أهل المنوفية يستقبلونه بهذا الأمل الواسع الطلق ، وهذا الرجاء الباسم التعريض ، وما يستقبل به خيار المديرين من حسن الاستعداد للتعاون الصادق ، ولم تجف بعد هذه الدماء التى سفكت في أرض الدقهلية ، ولم تستقر بعد هذه النفوس التى أزهقت في جو الدقهلية ، ولم ينس الناس بعد أن سوء الإدارة كان السبب القريب أو البعيد الذى سفكت له هذه الدماء ، وأزهقت له هذه النفوس ، والذى إن لم تستطع قوانين الناس أن تعاقب عليه لأمر من الأمور ، فإن قوانين الله لا تهمله ، ولا تمحو إثمه ، ولا تدعه يمضى بغير حساب .

(١) لعل الصواب « بنى حسن »

وقل شيئا كهذا أو قريبا من هذا في سائر الأقاليم التي رحل عنها مدير ،
وانتقل إليها مدير . فكلها يودع في سخط ويستقبل في حزن ، ويذكر
بقصة زياد .

ومع ذلك فهل قرأت المقطم أمس ؟ وهل رأيت أن جميع الأقاليم التي
انتقل عنها المديرون قد وجدت من أهلها من رضى عن المديرين ، وأسف
لفراقهم ، وحرص على أن يودعهم ، وداعا فيه الحب والود ، وفيه الإعجاب
والإكبار ... ! وهل لاحظت أن أخبار هذا الوداع قد وصلت إلى
المقطم كلها في لحظة واحدة ، ونشرها المقطم كلها في يوم واحد ، وفي
مكان واحد ، كأنما كانت من المقطم على ميعاد ... ! وكأنها التقت في
هذا الميعاد فحيا بعضها بعضا ، وصافح بعضها بعضا ، وانتقلت جميعا إلى
المقطم لتنزل في هذه المنزلة التي أعدت لها من قبل إعدادا ، ومهدت لها
من قبل تمهيدا .

ألم تنكر شيئا من هذا التوافق الغريب بين مكاتب البريد في قنا وجرجا
وأسيوط والزقازيق ودمهور ، وبين سعاة البريد في القاهرة على اختلاف
المسافات بعدا أو قربا من القاهرة ؟ ألم تحس أن هذا أيضا أمر قد دبر
بليل ، وأريد به شيء غير هذا الظاهر الذي تراه أنت وأراه أنا ؟ أما أنا
فلست أدري لم لا أكتفى بظواهر الأشياء ؟ ولم أبحث دائما عن دخائلها
وأسرارها . والحق أني لم أطل البحث ولم أتكلف فيه شيئا من العناء .
فقد أنكرت الصحف حفلات الوداع هذه ، وتقدم بعض النواب بأسئلة
فيها إلى وزير الداخلية ، وكان حوار في الصحف حول هذه الأسئلة ، وإذا
وحى يصدر فيسمع ، وأمر يبلغ فيطاع . وإذا توافق غريب بين المديرين
على اختلاف أمزجتهم وطبائعهم ، كلهم زاهد في الحفلات ، كاره لها ،
وكلهم راغب عنها ، معتذر منها . وكلهم حريص على أن تنشر الصحف
زهده واعتذاره .

ألست تنكر من توافق المديرين على هذا الزهد الطارئ مثل ما أنكرت
من توافق الرسائل على الظهور في المقطم في يوم واحد ، وفي مكان واحد ،
كأنما جاءت على ميعاد .. ؟!

عفا الله عن وزارتنا القائمة ، ماذا صنعت بارادة الأفراد والجماعات
وطبيعة الأشياء ؟ أكل شيء في مصر يجب أن يكون مرتبا مصنوعا ؟ أكل
شيء في مصر يجب أن يخضع لهذا العبث الغريب الذي يؤلف بين المختلفات
ويوفق بين المفترقات ؟

ثم ماذا أراد العابثون بهذا النوع من العبث ؟ تستطيع أن تصدقني :
لم يريدوا به المصلحة ، لم يريدوا به التخفيف عن هؤلاء المأزومين الذين
يكلفون دفع الأموال ، وهم لا يملكون منها شيئا . لم يريدوا إلا اللعب
بعقول الناس ، وإلا هذه الحرب السخيفة التي لا تقدم ولا تؤخر . هؤلاء
أهل البحيرة قد جمعت منهم الأموال فأدوها كارهين ، ثم أوحى إلى المدير
ألا يشهد حفلا ، ولا يقبل تكريما . فهل ترى أن الأموال قد ردت على
أصحابها ؟ كلا لم ترد ، أو قيل لأصحابها لا تقبلوها إن ردت إليكم ،
فسيشترون بها إذن سندات ينفق ريعها في بعض الجوائز المدرسية تخليدا
لاسם المدير . وأى تخليد لم يصدر عن الحب للخالصة الذي يدفع إلى
الجود ، لا بالأموال في وقت الشدة ، بل بالأنفس أيضا .

وهؤلاء أهل قنا . نعم أهل قنا ! أهل قنا بعد أن كان فيها ما كان ،
بعد أن خطف منها الرئيس وصاحبه ، بعد أن ظهر حب أهلها للمدير
والإدارة ، والوزير والوزارة . بعد أن قام ألف دليل ودليل على أن أهلها
يؤيدون النظام الجديد ، ويذودون عنه بالأنفس والأموال . بعد هذا كله
جمعت الأموال من أهل قنا لتكريم المدير ، ثم أوحى إليه أن لا يشهد حفلا ،
ولا يقبل تكريما . وإذا هو يعتذر ويلج في الاعتذار . وأهل قنا يأبوز
ويصرون على الإباء ، ثم ينتهي الأمر إلى أن يستأجر أهل قنا ، نعم يستأجروا

قطارا خاصا يشيعون فيه - وقد كدت أملئ يزفون - فيه المدير إلى إقليمه الجديد . ماذا ؟ أجد هذا أم هزل ؟ بعقول من يعيث العابثون ؟

إن حكومتنا لقاسية ، قاسية مسرفة في القسوة ، ما لها تقف موقف العذول بين المحبين فتفرق بين المديرين وعشاقهم من أهل الأقاليم ؟ ما لها لا تدع هؤلاء المديرين حيث كانوا هم راضون عن أقاليمهم وأقاليمهم راضية عنهم ! فلم تنغص العيش عليها وعليهم ؟ ولكن الغريب أن أهل الأقاليم سيعشقون المديرين الذين ينقلون إليهم وسيهيمنون بهم هيأما لا حد له .

سيجد أهل قنا في مديرهم الجديد رجلا يعشقونه كما عشقوا مديرهم القديم ، وسيجد مدير قنا القديم من أهل المنيا قوما يحبهم ويكلف بهم ، كما أحب القنائين وكلف بهم من قبل . فما تفسير هذه الظواهر التي تعجز عن فهمها العقول ؟ تفسيرها يسير ، فأهل الأقاليم لا يحسون عشقا ولا غراما . والمديرون لا يجدون حبا ولا هيأما . وإنما كل ذلك شيء مصنوع موضوع ، يجب أن يقبله أولئك وهؤلاء لتقوم الأدلة الواضحة على أن الأمور تجري في مصر على خير حال .

ولكن مع الأسف الشديد ليس من المصريين ولا من الإنجليز من يصدق شيئا من هذا أو ينخدع لحيلة من هذه الحيل . وإذن فقيم هذا العبث ؟ وقيم الإلحاح في هذا العبث ؟

جواب هذا يسير أيضا فإن من لم يستطع الجدد مضطر إلى الهزل ، وإلا فوجوده مستحيل . صدقتي إن أمر المديرين الراحلين وأقاليمهم لا يعدو قصة زياد . كل إقليم يودع مديره مستريحا لهذا الوداع ، ويستقبل مديره الجديد خائفا من هذا الاستقبال .

غموض

كان (١) الناس يتهامسون في الأسبوع الماضي بأن شيئاً جديداً قد طرأ في مسألة الدين ، وأداء فوائده ذهباً أو ورقاً ؟ وكانوا يتهامسون بألوان من الأحاديث في تفسير هذا الشيء الطارئ ؛ وأشرنا نحن إلى هذا كله حين أخذنا الوزارة القائمة بالمواقف المريبة التي تقفها بازاء المفاوضات والامتيارات والدين . ولم نرد أن نفصل ولم نرد أن نبسط القول . فقد زعموا أن من الحق على الصحف إذا عرضت لبعض المسائل السياسية الخارجية أن تصطنع الدقة وتحرص على الاحتياط ، وألا تقول كل ما تعلم حتى لا تخرج الدين يشتغلون بهذه السياسة الخارجية ، ولا تثير من المشكلات ما لا خير في أن يثار .

لذلك لمنا ولم نصرح ، وأجملنا ولم نفصل ، وقدرنا أن في هذا التلميح ما يكنى ، ولكن يظهر أن « الأهرام » تريد أن تخطو خطوة أوسع من خطوتنا نحن ، فهي تلمح أيضاً ولكن تلميحها أقرب إلى التصريح ، وهي تجمل ولكن إحاطها أدنى إلى التفصيل .

وهي تحدثنا صباح اليوم بأن مسألة الدين قد ظراً عليها تعقيد سياسى له قيمته وخطره . فالظاهر أن المندوب السامى قد ذهب إلى لندرة ليقنع حكومته بمعونة مصر في ألا تدفع ذهباً . وكانت حكومته قد أظهرت استعدادها لهذه المعونة ، وموافقتها على وجهة النظر المصرية . والظاهر أيضاً أن إيطاليا قد أظهرت ميلاً إلى إجابة مصر إلى ما تريد . وإذن لم تبق إلا دولة واحدة هي التي لم تغير موقفها ، وهذه الدولة هي فرنسا .

والأهرام تتساءل عن الأسباب التي تدعو فرنسا إلى التشدد في موقفها هذا ، وتمنعها أن تظهر لمصر ما أظهرته دائماً من المودة وحسن الاستعداد لتوثيق الصلات بينها وبيننا على قاعدة التعاون الصادق الخالص من الشوائب بمقدار ما تستطيع الصلات السياسية بين الأمم أن تخلص من الشوائب .

وتحاول الأهرام أن تجيب على هذا السؤال ، فلا تصدق أن فرنسا تشدد في موقفها ، لأن الفرنسيين الذين يملكون السندات المصرية كثيرون جداً ، وتلاحظ الأهرام ولها الحق أن منفعة فرنسا إنما هي في حسن الصلة بينها وبين مصر ، وفي المحافظة على تقاليدها في معاملة مصر ، وفي الظفر بما ظفرت به دائماً من حب المصريين لها ، وإيثارهم إياها بالمودة حين يقيمون في بلادهم ، وبالزيارة حين يرحلون عنها .

وإذن فليس هذا السبب هو الذي يضطر فرنسا إلى أن تشدد في موقفها بازاء مسألة الدين ، ويكون حظها من حسن الاستعداد أقل من حظ إنجلترا وإيطاليا ، فيجب أن يكون هناك سبب آخر ، وهذا السبب تستنتجه الأهرام بالظن والحدس ، ونريد نحن أن نستنتجه بالحدس والظن أيضاً كما فعلت الأهرام ، لأن الظن والحدس هما أقرب وسائل الاستنتاج وأصدقها في مثل هذه المسائل ، وهو أن فرنسا ليست قليلة الحظ من حسن الاستعداد بالقياس إلى مصر ، ولعلها شديدة الحرص جداً على أن تحتفظ بتقاليدها ، وتؤثر حب المصريين ومودتهم على هذه المبالغ المالية اليسيرة التي لا تلائم حقاً ، ولا عدلاً .

ولعلها كانت تريد أن تقبل وجهة النظر المصرية ، ولكنها على أن تقبلها هي ، وعلى أن تسدى هي إلى مصر هذا الصنيع ، وعلى أن يشعر المصريون شعوراً واضحاً بأنها قد آثرت مودتهم على منفعة فريق من أبنائها .

فأما أن تغير موقفها لأن الإنجليز أرادوا ذلك ، وأشفعوا فيه فتخسر هي من الناحية المادية ، ولا تربح شيئاً من الناحية المعنوية ، ويستأثر

الانجليز بهذا الربح المعنوى ، ويعتقد المصريون أن إنجلترا هي التى وضعت
عندهم ثقل الدفع ذهباً ، فذلك شىء تنفر منه فرنسا ولا ترضاه لا لكرامتها
ولا لما تريده لأعمالها من حسن الموقع فى نفوس المصريين .

وتدافع الأهرام بعد ذلك عن توسط الإنجليز بما ليس يعيننا أن نقف
عنده الآن ، إنما الذى يعيننا هو أن تخرج فرنسا من أن تسدى إلى مصر
صنيعة بإرادة الانجليز أو بشفاعتهم أمر قد تحدث فيه الناس منذ أيام ،
وكرهنا نحن أن نفصل القول فيه . وما كنا لنعود إليه لولا أن استنتجته
الأهرام صباح اليوم بالظن والحدس والتخمين كما تقول .

ومن المعقول جداً أن تجد دولة عظيمة كفرنسا مثل هذا الحرج ، ولكن
من المعقول أن يتساءل الناس عن الذى اضطر فرنسا إلى هذا الحرج ،
فالمعروف أن الإصبيح الإنجليزية لا تدع أمراً من أمور السياسة الخارجية
المصرية إلا مسته ولعبت فيه . والمعروف أن فرنسا وغيرها تعلم هذا حق
العلم ، وتعلمه بنوع خاص منذ سنة ١٩٠٤ ، وتعلمه بنوع أخص منذ
أرسلت إلى الدول تبليغها بعد صدور تصريح فبراير ، ١٩٢٢ .

وإذن فأى شىء جد فى الأمر ؟ أهى حكومتنا التى لم تحسن تصريف
هذا الأمر الدقيق ، ومراعاة ما يحيط به من الظروف ، فاضطربت فيه
اضطراباً مريباً ، أظهرت للفرنسيين استقلالاً لم تستطع أن تحتفظ به وتمضى
فيه . وأظهرت للانجليز تهالكاً لم تستطع أن تخلص منه أو تراجع عنه ؟
فصدقها الفرنسيون وهما أن يعاملوها معاملة الحكومة المستقلة ، وأسرع
الانجليز فاستغلوا تهالكها عليهم ، وإسرافها فى الاستعانة بهم ، ونشأ عن
هذا الموقف المريب ما كان موضوع حايث الناس منذ أسبوع ، وما
استنتجته الأهرام بالظن والحدس والتخمين صباح اليوم .

أم هو شىء آخر لم يصل إليه حظ الأهرام من الظن والحدس
والتخمين ؟ قد يكون هذا وقد يكون ذاك ، وكلاهما يحزن ، وكلاهما
بسوء ، ولكن وراء هذا وذاك شيئاً لا يحزن ولا يسوء ، بل يسر ويرضى

وهو أن موقف الأمة المصرية بإزاء مسألة الدين قد أحدث آثاره الطبيعية ، فأخذت الدول تظهر استعدادها لقبول الرأى المصرى ، وكلها يحرص على أن يشعر المصريون منها بحسن هذا الاستعداد .

وراء هذا وذاك شيء آخر ، هو أن من الخير أن تتخذ الحكومة فى السياسة الخارجية طريقا واضحة وخطة صريحة جلية ، لا يظهر فيها عوج ولا التواء . فقد يدعو فساد الظروف السياسية الداخلية للحكومة إلى أن تدور وتضطرب فتمضى حيناً ، وترجع حيناً ، وتمضى مرة ذات اليمين : وأخرى ذات الشمال ، وتسرف مرة فى القوة ، ومرة فى الضعف ، وتصانع مرة ، وتصارح مرة أخرى . كل هذا يحدث مع الأسف ، وكل هذا يمكن تفسيره وتأويله فى السياسة الداخلية .

أما فى السياسة الخارجية فشبهه إن حدث عظيم ، لأن السياسة الخارجية لا ينبغى أن تعتمد على مداورة الأحزاب ، ولا مصانعة الأصدقاء ومدافعة الخصوم . وسواء أصححت كل هذه الأحاديث أم لم تصح فإن الذى يلاحظ دائما على سيرة وزارتنا القائمة فى مسائل السياسة الخارجية هو أنها لا تخلو من غرابة وإيثار للغموض والإبهام . والواقع أننا لم ننتظر خيرا منذ ارتحل رئيس الوزارة إلى أوروبا ، فأخذ يظهر فى سياحته تلك بهذه المظاهر الفخمة الضخمة التى هى أشبه شيء بالإعلان التجارى منها بالزيارات السياسية .

لم ننتظر خيرا من هذا الإعلان ، بل توقعنا منه شرا كثيرا . فقد يكون من الحسن أن يظهر رئيس وزرائنا فى إيطاليا وفرنسا مظهر رئيس الوزراء لبلاد مستقلة حقا ، ولكن على شرط أن يجد من نفسه القوة على أن يظل كذلك ، وبشرط ألا يستحيل هذا الاستقلال متى وصل رئيس الوزراء إلى جنيف ، فأخذ ينتظر وزير الخارجية الإنجليزية ، ويصطنع المقبول وغير المقبول من الوسائل ليظهر برؤيته والتحدث إليه ، ثم إذا عاد إلى القاهرة اتخذ المقبول وغير المقبول من الوسائل ليظهر أنه متمتع بعطف وزير الخارجية الإنجليزية .

هذا التناقض نفسه مريب ، وهو إن كان مريبا بالقياس إلى المصريين مع أنهم يعلمون من أمر رئيس الوزراء ما يعلمون ، فهو أكثر ريبا بالقياس إلى الأجانب الذين إن عرفوا شيئا فقد تخفى عليهم أشياء .

لقد زار رئيس وزرائنا روما وفرنسا ، وتحدث إلى الحكومتين الإيطالية والفرنسية في مسألة الدين حديث الوزير المستقل ، ولكنه لم يلبث أن ذهب إلى جنيف فدار حول وزير الخارجية الإنجليزية دوران الوزير غير المستقل ، ثم عاد إلى القاهرة وإذا الإنجليز يتوسطون عند فرنسا وإيطاليا فيما كان يحدثهما فيه رئيس الوزراء من غير واسطة . فاحدى اثنتين ، أما أن يكون رئيس وزرائنا مستقلا فيسير سيرة المستقلين . أو تابعا فيسير سيرة التابعين .

أما الاضطراب بين هاتين السيرتين فهو الذى لا خير فيه ، وهو الذى يثير الريب والشكوك ، ويملأ الجو بهذه الأحاديث التى أفاض الناس فيها منذ أيام والتى استنتجتها الأهرام بالظن والحدس والتخمين صباح اليوم ، والتى لا تفيد أحدا من الأجانب ولا من المصريين .

(٢٠)

أحلام

أكانت (١) الأفريكان ورلد على ضالة قدرها ، وصغر شأنها تحلم بأن تعنى الصحف المصرية بما تكتب هذه العناية التى ظهرت صباح اليوم فى السياسة والأهرام ...

سخر السكوكب أمس مما كتبه الأفريكان ورلد ، وتحدث عن رأيها فى الوزارة الائتلافية على أنه حلم من أحلام رئيس الوزراء ، وأمنية من

هذه الأمانى التى تعبث برأس الرجل الضعيف ، ولا سيما حين يستريح فى ظل الأهرام (١) ، حيث تكثر الصور والأشباح التى تؤرق قوماً ، وترسل الأحلام إلى آخرين .

ولكن السياسة والأهرام لم تسخرأ بما كتبتة الأفريكان ورلد .

فأما السياسة فالظاهر أنها حرصت على أن تعيد للناس مالم يشك أحد فيه ، من أن الأحرار الدستوريين أكرم على أنفسهم وأحرص على مبادئهم من أن يشتركوا مع صدق باشا فى اجتهال تبعات الحكم مهما تكن الظروف .

وأما الأهرام فيظهر أنها نظرت إلى مقال الأفريكان ورلد نظرة عناية وجد ، تعلم الأهرام حتى العلم أن هذه الصحيفة لا تستحقها . ومن يدرى لعل الأفريكان ورلد إنما اتخذت وسيلة إلى إعادة الكلام فى الائتلاف والوزارة القومية (٢) ، ولعل الذين ألم بهم فى اليقظة أو فى النوم طيف هذا الائتلاف مع رئيس الوزراء ، هم الذين أوحوا إلى الأفريكان ورلد ، وهم الذين تقدموا إلى الأهرام فى أن تعلق على ما كتبت الأفريكان ورلد .

والظاهر أن فى الجو المصرى الآن روحا يطوف حول جماعة من الناس ، هو روح الائتلاف مع رئيس الوزراء ! فقد خابت التجربة ، وأخفقت المحاولات ، وظهر أن الترقيع جهد ضائع ، ولم تبق إلا محاولة واحدة ، وهى أن يستقيل رئيس الوزراء مرة ثانية ،

(١) كان إسماعيل صدق باشا يستجم أحيانا فى فندق ميناهوس :

(٢) كان الإنجليز يلوحون بفكرة الوزارة القومية ليحدثوا انشقاقا فى حزب الغالبية ولكن مصطفى النحاس ومعه آخرون من أعضاء الوفد رفض فكرة الوزارة القومية فى ظل دستور سنة ١٩٣٠ وصمم على عودة دستور سنة ١٩٢٣ واجراء انتخابات حرة ، ويترك الأمر للأمة فى نوع الوزارة التى تتولى الحكم . وكانت الأمة على اختلاف طبقاتها تؤيد الوفد وزعيمه .

ويجدد تأليف الوزارة ، على أن يكون الائتلاف أوسع مما هو الآن !
فيشمل قوما آخرين غير الاتحاديين والشعبيين ، كما قالت بعض الصحف
الإنجليزية منذ أيام .

ما أقدر رئيس الوزراء رغم مرضه على سعة الآمال وبعد الخيال....!
وكأن رئيس الوزراء لم يتبين إلى الآن أن زملاءه وأعوانه وأنصاره لا يمكن
أن يكونوا في يوم من الأيام مصدر قوته ! وإنما هو نفسه مصدر الضعف
الذي يجده ويريد أن يتخلص منه ! ولو اعتدلت آمال رئيس الوزراء ،
واقصد في خياله بعض الشيء لعرف أن الوسيلة الوحيدة التي تخلصه من
هذا الضعف الذي يشكوه إنما هي أن يتعظ بقول الشاعر القديم :

إذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع (١)

وقد ثبت ألف مرة ومرة أن رئيس الوزراء لا يستطيع الحكم ، وإنما
يستطيع الراحة ، فإله لا يدع ما لا يستطيع إلى ما يستطيع ؟ فيستقيل
ويفرغ لصحته ، ويستريح ويريح ؟

ولكن آمال رئيس الوزراء أوسع من قوته ، وخیال رئيس الوزراء
أبعد من طاقته . وكثيرا ما شق الناس بسعة الآمال وبعد الخيال ! !

على أن من الغريب ألا يتعظ الإنجليز وفريق من المصريين بالتجارب
ولا يعتبروا بالحوادث ، وأن يمضوا مع الآمال كما يمضي رئيس الوزراء ،
ويستسلموا للخيال كما يستسلم رئيس الوزراء ، ويقدر كل واحد منهم أن
المسألة المصرية لم تزل من المسائل التي يمكن أن تلتئم لها الحلول العرجاء
أو تسلك إليها الطرق الملتوية ! فقد طالما لجأ الإنجليز ومعهم فريق من
المصريين إلى الحلول العرجاء فلم يظفروا بشيء ، وطالما سلك الإنجليز

(١) هذا البيت ينسب إلى الخليل بن أحمد، قاله للأصمعي وكان قد ذهب ليتلقى
عنه العروض فلم يفتح ، وحينئذ قال له الخليل هذا البيت .

ومعهم فريق من المصريين هذه الطرق الملتوية فلم ينتهوا إلى شيء . . . !
استغفر الله ، بل انتهوا إلى الفشل والإخفاق ، واضطروا إلى أن يستأنفوا
السعي ، وكأنهم لم يسعوا ويجدوا في التماس الحل ، وكأنهم لم يلتمسوه
من قبل . . . !

ومصدر هذا الاضطراب والتورط في هذه المحاولات العقيمة أن الإنجليز
وأعوانهم من المصريين لا يريدون أو لا يستطيعون أن يعترفوا بالحقيقة
الواقعة ، وهي أن الأمة المصرية موجودة حقا ، شاعرة بوجودها حقا ،
جادة في طلب استقلالها حقا ، متنبهة لما يراد بها من الكيد حقا . فهي
لا تؤخذ على غرة ، ولا تخدع بالأمانى والآمال . وهي لا تؤخذ بقوة
ولا بعنف ، ولا تقبل إلا ما ترضاه هي ، لا ما يراد لها .

وإذن فلن يكون لما بينها وبين الإنجليز حل صحيح منتج إلا أن تشترك
هي في هذا الحل . وإذن فالدوران حولها لا يفيد ، ولا خير في هذه
المحاولات التي جربت مرات منذ كانت الحركة الوطنية ، فلم تنته إلا إلى
ما أرادت الأمة نفسها .

نعم إن مذاق هذه الأمة مر على الإنجليز ، ولكنهم مضطرون إلى أن
يحتملوا هذه المرارة ، وإلا فالأمر باق على ما هو عليه . وهم مهما يفعلوا
فلن يزدوا على تأجيل اليوم الذي يذوقون فيه هذه المرارة ويعترفون بأن
أمر مصر يجب أن ترد إلى مصر ، وبأن الاتفاق يجب أن يكون مع
الأمة المصرية .

نعم إن من المصريين من يحبون الحكم ويتعجلون الوصول إليه ويظنون
كما يظن الإنجليز أن خداع هذه الأمة أمر يسير ، وأن من الممكن أن تزين
لها الألفاظ فتغرها وترضيها بما لا ترضى ، ولكن هؤلاء المصريين قد رأوا
وزارات قامت على هذا الخداع فلم تصنع شيئا ، وهم يرون الآن وزارة
تقوم على تزيين الألفاظ حيناً ، وعلى العنف والعسف حيناً آخر ، فلا تصنع
شيئا رغم البقاء الطويل والتأييد القوى المتصل .

إن الزمن لا يمضى عبثاً ، ولا يذهب سدى ، ولعل خير ما أنتجه مر
الغداة وكر العشى في هذه الأيام عندنا هو أنه لم يبق أمل ما لرجل له حظ
من العقل والتفكير في أن يأخذ مصر بغير ما تريد . فما أجدر الإنجليز
وأصدقاءهم من المصريين أن يواجهوا هذه الحقيقة الواقعة في شجاعة وحزم
وزهد فيما يغرو ويخدع من الأمانى والأحلام ...

يذكرون الائتلاف ، فعلام يقوم هذا الائتلاف ؟ وبين من يكون هذا
الائتلاف ؟ وأى طريق تسلك إلى تحقيق هذا الائتلاف ؟ وعن تصدر
الرغبة في هذا الائتلاف ؟ أيقوم الائتلاف على حل الأزمة الاقتصادية !
ولكن هناك أزمة سياسية يجب أن تحل وهى معقدة ، شديدة التعقيد ، تتصل
بعلاقاتنا مع الإنجليز ، وتتصل بالدستور ونظام الحكم .

وإذن فهل يقوم هذا الائتلاف على الاقتصاد دون السياسة ؟ ولعل
الأزمة السياسية عندنا هى أكبر المؤثرات فى الأزمة الاقتصادية ، فإن قام
الائتلاف على حل الأزمة السياسية ، فبأى الأزميتين يراد الابتداء ؟
أبأ لأزمة الخارجية بحيث يحل ما بيننا وبين الإنجليز قبل كل شيء ؟ أم بالأزمة
الداخلية بحيث يرد إلى البلاد دستورهما قبل كل شيء ؟ وعلى كلتا الحالتين
فمن يكون الائتلاف ؟ أمن الأقليات المختلفة التى تمثلها الأحزاب المتباينة
بحيث تحكم القلة وتقف الكثرة موقف المعارضة كما هى الحال الآن ؟ وإذن
فأى شيء تغير ؟ وماذا يصنع المؤتلفون ؟ أو متى كان الحكم للقلة والمعارضة
للكثرة ؟ أم تأتلف القلة والكثرة فلا يكون هناك حكام ومعارضون ؟

وإذن فمن أين تصدر الرغبة فى هذا الائتلاف ؟ أمن المصريين
أنفسهم ؟ وإذن فيجب أن تسمع فى ذلك كلمة للكثرة قبل أن تسمع أى
كلمة أخرى . أم تصدر هذه الرغبة من الإنجليز فيملى علينا الائتلاف
منهم إملاء !! وإذن فأين تكون الكرامة القومية ، ومن ذا الذى زعم أن
للأجنبي أن يكون الوزارات مؤتلفة أو غير مؤتلفة فى البلاد المستقلة ... ؟

كل هذه مسائل يجب أن يدرسها الذين يفكرون في الوزارة الائتلافية أو في الوزارة القومية . وهم إن فكروا فيها عرفوا أن هناك شرطا لا بد منه قبل الكلام في وزارة ائتلافية أو قومية ، وهى أن ترد لمصر حريتها ، فتستقيل الوزارة القائمة ، وتعود الحياة النيابية الحرة . يومئذ ويومئذ فحسب يمكن التفكير الجدى الصادق فى الائتلاف . يومئذ تصدر الرغبة فى الائتلاف عن الشعب المصرى الحر ، وتصدر هذه الرغبة فى وضوح النهار ، ونحت أعين الناس جميعاً ، لا يوصى به أحد ، ولا يملها أحد ، ولا تصدر فى ناحية من الأنحاء .

والى أن يأتى هذا اليوم الذى تستطيع مصر أن تفكر فيه حرة كريمة ، مستقلة الرأى يجب أن تجتمع كلمة المصريين على مقاومة الوزارة القائمة والذين يؤيدونها من الإنجليز .

سيقولون : ولكن الائتلاف هو الوسيلة إلى إسقاط الوزارة ، والتخلص من ثقلها . فمن الذى يشترط هذا الشرط ويلح فيه ؟ أهم الإنجليز ؟ وإذن فلندعهم وما يشاءون حتى يجدوا أنفسهم فى المأزق الذى لا مخرج منه إلا بالنزول عند إرادة الأمة .

قد يكون هذا طويلا ، وقد تحتل فيه الآلام ، ولكن الجهاد السياسى ليس عبثا ولا لعبا . ومن لم يعرف الصبر واحتمال الألم وطول الانتظار فخليق أن لا يتورط فى سياسة الشعوب ...

لست أكره الائتلاف ، ولا الوزارة القومية ، ولعللى أحبهما وأتمناها ، ولكنى أحب ائتلافا يصدر عن إيمان الأمة ورغبتها . أحب ائتلافا يصعد من الشعب ، ولا يهبط عليه . وما رأى أنصار الائتلاف فى حل أرى أنه من العدل الذى لا حيف فيه ، والقصد الذى لا يتعرض لشك ولا يحتمل تأويلا . ما رأيهم فى أن تستقيل الوزارة القائمة قبل كل شئ ، وفى أن يمهّد لانتخاب حر بعد ذلك ، وفى أن يكون الائتلاف والوزارة القومية موضوع الانتخاب .

ويتقدم أنصار الائتلاف والوزارة القومية إلى المصريين برأيهم، ويتقدم خصوم الائتلاف والوزارة القومية إلى المصريين برأيهم هذا . فأى الفريقين انتصر في الانتخاب الحر الشريف، فإليه أمور مصر كلها في حدود الدستور، يقضى فيها دون أن يتعرض لريبة أو شك أو اتهام .

أظن أن عرض المسألة على هذا النحو خليق أن يزيل الخلاف حول الائتلاف ، وأن يجمع كلمة الذين يحرصون على أن يكون حل المسألة المصرية معتمداً قبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، وفوق كل شيء على إرادة الأمة خالصة من كل شائبة ، بريئة من كل شبهة ، آمنة من كل تأثير .

فليتعاون خصوم الوزارة بالصبر والصدق في الجهاد والمقاومة حتى يكشف الله ضررها عن مصر، ثم ليحتكموا بعد ذلك إلى الأمة في الوزارة التي تحمل مشكلاتها الكبرى ، أهى الوزارة الحزبية أم الوزارة القومية ؟

(٢١)

عدوان

وليس هو بالعدوان (١) الذى يقدم عليه الرجل الشجاع الجرىء القادر على أن ينهض بالتبعات ويثبت لعظام الأمور، وجلائل الأعمال . وإنما هو عدوان الرجل الضعيف الذى يشفق من الظل ويخاف من الخيال ، ويرى فى كل ما يحيط به ، ومن يحيط به عفريتا من الجن ، أو شيطانا من الإنس ، يريد به الشر، ويدبر له الكيد ، ويدفعه إلى المكروه .

وليس هو بعدوان الرجل الذى يهيئه عمله للعدوان ، أو يعرضه عمله للتورط فى العدوان . وإنما هو عدوان الرجل الذى يجب أن يمنع عمله

(١) ٤ - ٤ - ١٩٣٣ ، عدد ٢٣٥٤

عن كل إثم ، وبينها منصبه عن كل بغي ، وترده الأخلاق عن كل ما فيه جور أو ظلم أو مخالفة عن أمر الله .

نعم هو عدوان قوامه الضعف وخور الطبيعة ، صدر عن رجل لم يكن ينبغي أن يصدر عنه عدوان ، بل لم يكن ينبغي أن يصدر عنه إلا البر الذي ليس فوقه بر ، والخير الذي ليس فوقه خير . وصدر في ظروف ما كان ينبغي أن يشوبها شر ، أو يكدر صفوها مكدر . وهذا العدوان الذي تحدث السياسة صباح اليوم بأن شيخ الأزهر قد اقترفه ، وتورط فيه ، يوم تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك فشر ف كلية أصول الدين بزيارته الكريمة .

فالساسة تحدثنا أن جماعة من أبناء الأزهر هم من علماء التخصص أرادوا أن يستقبلوا مع الأزهرين حامى الأزهر وراعيه ، وأن يشتركوا مع الأزهرين في الإعراب لحامى الأزهر وراعيه عن حبه لهم ، وشكرهم لنعمته المتصلة عليهم ، وأملهم في أن ترقى إليهم عناية المليك ورعايته من خير إلى خير ، ومن فوز إلى فوز ، ومن إصلاح إلى إصلاح . فأبى عليهم الشيخ أن ينهضوا بهذا « الواجب » وامتنع عليهم الشيخ أن يؤدوا هذا الشكر . وصدهم الشيخ عن أن يعلنوا مع إخوانهم وفاءهم وإخلاصهم لصاحب عرش مصر ، وحامى الأزهر والأزهرين .

وما علمنا قبل اليوم أن من الأعمال التي ينهض بها شيخ الأزهر وزعيم الرياسة الدينية العليا أن يمنع الناس من أداء الواجب ، أو يصرف الناس عن النهوض بالحق ، أو يذود الناس عن الاعتراف بالجميل لصاحب الجميل ، ولا سيما حين يكون صاحب الجميل هو صاحب الجلالة المصرية الذي لا يدع سبيلا إلا سلكها ليصلح من أمر الأزهر ، ويبعث فيه القوة والحياة ، ويرفع الأزهرين إلى حيث ينبغي أن يكونوا من حياة مصر العاملة الراقية .

نعم ما علمنا قبل اليوم أن من أعمال شيخ الأزهر أن يحول بين الأزهرين وبين زائرهم العزيز عليهم ، الكريم في نفوسهم ، ومع ذلك فقد فعل شيخ

الأزهر هذا ، ، وتورط فيه إن كان ما تحدثت به السياسة صحيحا . ولا بد من أن يتبين أولو الأمر أصحح ما تحدثت به السياسة ، فيسأل الشيخ عنه ، ويلام الشيخ فيه . أم غير صحيح ما تحدثت به السياسة فيعلن إلى الناس أن شيخ الأزهر ، ورئيس هيئة كبار العلماء لم يمنع الأزهرين من أداء الواجب ، ولم يصرفهم عن الاحتفال بالزيارة الملكية الكريمة .

والسياسة تروى لنا أن شيخ الأزهر لم يكن قويا في عدوانه ، ولا شجاعا في جوره ! وإنما سلك إلى العدوان طريقا ينتزه عنها رجال الدين ، أوجب أن ينتزه عنها رجال الدين ! هي طريق الوشاية والسعاية واستعداد إدارة الأمن العام على هؤلاء الناس — أستغفر الله — على هؤلاء العلماء الأزهرين الذين يجب أن يحميهم الشيخ ويذود عنهم ، ويحوطهم من سعاية الساعين ، ووشاية الواشين .

زعموا للسياسة أن الشيخ أنبا إدارة الأمن العام بان هؤلاء العلماء يريدون أن يكذبوا صفو الزيارة الملكية ، فسمعت إدارة الأمن العام للشيخ ، ومن الحق عليها أن تسمع له في مثل هذه الأشياء ، ثم أرسلت إلى هؤلاء الناس من روعهم في بيوتهم آخر الليل ، وانتزعهم من بين أهلهم وأبنائهم ، وساقهم في ظلمة الليل وهدوء الناس إلى حيث السؤال والجواب والتحقيق وأخذ عليهم العهود والمواثيق ، ثم أطلقهم مع الصبح وبث حولهم العيون ، ووكل بهم الأرصاد .

ماذا ؟

أحدث هذا كله حقا ؟ وكان مصدره شيخ الإسلام ؟ ! وإذن فماذا ترك الشيخ لغيره من السعاية والوشاة ، والذين يتربصون الدوائر بالناس ، ويدبرون لهم الكيد بالليل والنهار ؟ إحدى اثنتين : إما أن يكون هذا قد حدث من الشيخ ، فلا بد من سؤاله عنه ، وأخذه به ، فان شيوخ الإسلام لم ينصبوا ليروعوا الآمنين ، ويزعجوا المطمئنين ، ويقولوا في الناس بغير الحق . وإنما ينبغي أن يكونوا رسل أمن وسلام : ودعاة هدوء وطمأنينة ، وحراصا

على الصدق والجِد والإخلاص . وإن لم يكن هذا قد حدث فيجب أن يبين للناس ليعلم المسلمون أن الأزهر برىء من أن يكون وكرا من أوكار الكيد، ومكنا من مكامن الساعين والواشين .

يجب أن يعلم الناس جليلة الأمر في هذا ، فنحن نعلم أن التجاء الشيخ إلى إدارة الأمن العام كثير ، وإنه كثير في غير طائل ولا جدوى . ويذكر أنه التجأ إلى إدارة الأمن العام في الصيف الماضي فكلفها من مصادرة الكتب والاعتداء على حرية العلم شرّاً ثقيلاً . ثم ظهر بعد ذلك أنه كان آثماً فيما فعل وأن إدارة الأمن العام كانت متورطة حين استجابت له وصدعت بأمره .

يجب أن يعلم الناس جليلة هذا الأمر ، فقد يروعه أن يكون بين الأزهرين - سواء فيهم العلماء والطلاب - من يفكر في أن يكدر صفو الزيارة الملكية للأزهر . فإذا كان الشيخ قد سعى حقاً بهؤلاء العلماء إلى إدارة الأمن العام فروعهم وأفزعهم ، وبث عليهم العيون والأرصاء ، وحال بينهم وبين الاشتراك في استقبال الزائر الكريم فلا بد أن يعلم الناس نتيجة هذا التحقيق . أبين الأزهرين حقاً جماعة كانوا يريدون أن يكدروا صفو الزيارة الملكية للأزهر ؟ ماذا أثبت التحقيق من أمر هؤلاء ؟ وبماذا كان هؤلاء الناس يريدون أن يكدروا صفو الزيارة الملكية ؟ أبشئ يبيحه القانون ؟ فليس هناك تكدير للصفو إذن . أم بشئ ينكره القانون ؟ فلم لم يسق هؤلاء الناس إلى حيث يسألون عما دبروا .

كل هذه أشياء يجب أن تعنى بها الحكومة ، وأن تبين للناس جليلة الأمر فيها . وأكبر الظن أن الأمر كله وهم وخوف من الظل وفزع من الخيال .

لقد أنبثنا أن الشيخ كان مسرفاً في الخوف حتى انتهى به الإسراف إلى شيء لا يخلو من طرافة ! فقد زعموا أنه لم يدع أستاذاً ولا مدرساً يقول بين يدي جلالة الملك شيئاً حتى اتفق معه على تهيبه هذا الشيء ، ثم قرأه وأنعم النظر فيه ، وحذف منه وأضاف إليه ، وجعل ما ألقى بين يدي صاحب الجلالة من الدروس أشبه بما يلقيه الممثلون في ملاعب التمثيل ... ! يحفظونه

فيتقنون حفظه : وقد هيء لهم من قبل ، ثم يلقنونه فيحسنون إلقاءه . وإذن فلم ير جلالة الملك الأزهر كما هو في حقيقة الأمر ، وكما يحب جلالة الملك أن يراه ليغبط برقيه إن كان قد ارتقى ، ولتفضل فيأمر بالإصلاح إن كان في حاجة إلى الإصلاح . وإنما رأى جلالة الملك الأزهر كما هيأه له الشيخ وأعوان الشيخ . ولعل ما رآه جلالة الملك أبعد الأشياء عن تصوير الأزهر على الوجه الصحيح .

أنصح هذا لولى الأمر أم غش ؟ أجد هذا أم هزل ؟ ومع ذلك فقد أثبتنا أنه كان ، وكذلك تقدم إلى الزائر الكريم صور ليس وراءها شيء . ويتقدم الشيخ بين يدي الزيارة باغراء إدارة الأمن العام بجماعة من العلماء تروعهم وتفزعهم وتغري بهم العيون والأرصاد .

ويقال بعد ذلك أننا نعيش في القرن العشرين ، وفي ظل الدستور والنظام ، وفي جو إسلامي خالص صفو برىء من الكيد ، برىء من الغش برىء من التدليس .

كل شيء ممكن في مصر حتى أن يسعى شيوخ الأزهر بعلماء الأزهر إلى إدارة الأمن العام ...!

(٢٢)

صراحة

من المؤكد (١) أنى لا أحب أن آخذ بخناق أحد ، ولا أن يأخذ أحد بخناقى فى أمر من الأمور مهما يكن عظيما .

فاذا كان الأمر يسيرا ضيلا كأمر الوزارة الائتلافية أو القومية ، كانت رغبتي عن المخالفة فيه أشد ، وانصرافى عنها أعظم . فليطمئن الكتاب الذين

(١) ٧ - ٣ - ١٩٣٣ عدد ٢٣٥٧

يحبون الوزارة القومية ، ويكلفون بها ، ويحرصون على أن يدافعوا عنها منذ الآن ، فلن أخالفهم فيها... ولكنهم يوافقونني فيما أظن على أن الأخذ بالخناق شيء ، والرغبة في الوضوح والصراحة شيء آخر . وهم يوافقونني فيما أظن على أن إطالة الكلام وتكرار القول في هذا الموضوع الآن لا نتيجة له ، إلا أنه حوار في الهواء ، ومناقشة أقل ما توصف به أنها قد تدعو إلى شيء من الحرج في غير طائل ولا غناء . . .

رئيس الوزراء ما يزال مطبقاً يديه الضعيفتين على أعنة الحكم ، لم يرسلها ولم يدعه أحد إلى إرسالها .

ويظهر أنه سيظل كذلك حتى يزهديه مؤبدوه ، وينصرف عنه ناصرته ويطلب إليه أن ينصرف هو عن هذا الحكم الذي يحبه ويتهاك عليه ، ويضحى في سبيله بالشئ الكثير من صحته وراحته ، ومن ذكائه وكفايته . ونحن نتحدث منذ الآن - استغفر الله - بل منذ أكثر من عام في الوزراء التي تخلفه ، أتكون حزبية أم قومية ؟ فلا يجدي حديثنا إلا اختلافاً وافتراقاً ، وإلا إغراء للانجليز بالمضي فيما هم فيه من تأييد رئيس الوزارة ونصرته لعله إن بقي في الحكم أن يزيد الاختلاف بيننا سعة والاضطراب في صفوفنا عنفاً وشدة .

أظن الذين يحبون الوزارة القومية ، ويكلفون بها يوافقونني على أن الحديث فيها كان سابقاً لأوانه منذ عام ، وما زال سابقاً لأوانه الآن ، وما زال الخير في أن ندعه حتى تخلص مصر مما هي فيه الآن ، وينكشف عنها ضرر الوزارة القائمة ، وترد إليها حرية التنفس والحركة والحياة .

وإذن فقد كنت أود لو قنع أنصار الوزارة القومية بما قالوا وقال خصومهم فسكتوا وسكت خصومهم ، وفرغوا جميعاً لما ينبغي أن يفرغوا له من تسجيل الآثام التي تقترف والسيئات التي تجترح ، وتثبيت الأمة في موقفها البديع ، موقف المقاومة لطغيان الطاغين ، وعدوان المعتدين . ولكن أنصار الوزارة

القومية يسرفون في حبها فيعجزون عن الصمت عنها ، ولو صمتا مؤقتا فيقولون ويقولون . . ولا يلتفتون إلى أن غيرهم يقول معهم فيثير الريب ويدفع إلى الشك ، ويدل دلالة قوية على أن فكرة الوزارة القومية هذه إن تكن مصرية من بعض نواحيها ، فإن للإنجليز فيها هوى مرييا . . ومهما يكن من شيء فأنا حريص كل الحرص على أن يكون رأيي في الوزارة القومية واضحا ، لا لبس فيه ولا غموض .

وأنا أفهم من الوزارة القومية - كما قلت من قبل - هذه التي تصدر عن إرادة الأمة ، لا عن إرادة الأجنبي . وعن إرادة الكثرة إذا تعذر الإجماع ، لا عن إرادة القلة . وإذن فكل وزارة يوحى بها للإنجليز فليست وزارة قومية ، وإذن فكل وزارة تؤلفها القلة فليست وزارة قومية . وإذن فلا يمكن أن تكون الوزارة قومية حقا إلا نتيجة للانتخاب الحر الصحيح الذي لا عسف فيه ولا ظلم ، والذي لا يثور حوله شك ولا ريب ، والذي لا يتهم المشرفون عليه بهوى ولا ميل .

وهذا فيما أظن واضح جلي ، ومعناه أن الوزارة القومية يجب في ظروفنا الحاضرة أن تنشأ الانتخابات ، لا أن تجرى هي الانتخابات ...

وليس من الحق ، ولا من المنطق أن يحتج بما صنع الإنجليز ، فقد يقال أن رئيس وزارة العمال ألف وزارته القومية ، ثم لجأ إلى الشعب ليستفتيه في أمرها فأيده الشعب وانحاز إليه .

قد يقال هذا ، ولكن الذين يقولونه ينسون أن رئيس وزارة العمال حين ألف وزارته القومية كان في بلاد خرة مستقلة تجرى فيها أحكام الدستور على سبيلها . وقد حاول تأليف وزارته القومية من أعضاء البرلمان القائم ، فلما خذله العمال ، وأبوا عليه لجأ إلى استفتاء الشعب فمنحه الشعب نصره وأيده فأعاد تأليف وزارته القومية ، مستفيدا من نتائج الانتخابات .

فما كان في بلاد الإنجليز لا يمكن أن يقاس به الأمر في مصر ، فالوزارة القومية التي يفكر فيها بعض الساسة لا يمكن أن تؤلف داخل البرلمان القائم.

وأظن هؤلاء الساسة كلهم أو أكثرهم يرون أن من الخير ألا يشترك في هذه الوزارة القومية أعضاء للبرلمان القائم . وإذن فأين تؤلف وكيف تؤلف ؟

ستؤلف خارج البرلمان ، فإذا أبتها كثرة الناس فقدت صفتها القومية وأصبحت وزارة حزبية تمثل القلة ليس غير فلا مخرج إذن من هذا المأزق إلا بالعدول عن هذه الفكرة الآن وتأجيلها حتى تخلص مصر من الوزارة القائمة ، ثم نهض بالأمر وزارة محايدة أو سمها ما شئت فتجرى الانتخابات الحرة ، ولتكن الوزارة القومية موضوع هذه الانتخابات ، فإن أيدتها الأمة ومنحتها الأغلبية ألفت كأقوى ما تؤلف الوزارات ، وحقت الأصل الدستوري الذي لا خلاف فيه ، وهو نهوض الأغلبية بأعباء الحكم ، وإن أبتها الأمة ونصرت خصومها ومنحتهم الأغلبية ، نهض هؤلاء بأعباء الحكم تنفيذا لأصول الدستور .

هذه هي الطريق التي أعتقد أن الخير كل الخير في سلوكها ، لأنها واضحة مستقيمة ، لا عوج فيها ولا التواء ، ولا شك حولها ولا ريب . وأظن أنصار الوزارة القومية يوافقونني على أن سلوك طريق غير هذه الطريق غير مأمون العاقبة ، ولا مبرراً من الخطر ، وأقل ما ينتجه أن تستحيل وزارتهم القومية هذه إلى وزارة تحاربها الكثرة وينفر منها الشعب نفوراً شديداً .

وأنا أكره لأنصار الوزارة القومية أن يسيروا سيرة صدقي باشا ، فذاكرتهم - والحمد لله - لا يمكن أن تعاب بالقصر . وهم يعلمون أن صدقي باشا قد زعم حين نهض بأعباء الحكم أنه يؤلف وزارة قومية ، وقال وأكثر القول إن وزارته لا تنتمي إلى حزب ، ولا يعنيها أن تعتمد على تأييد حزب . ومع ذلك فلم تكن لوزارته صفة الوزارة القومية يوماً ما ، ولم يستطع أن يثبت على قوميته هذه فاضطر إلى ما اضطر إليه من تأليف حزبه البديع وإقامة وزارته أو أقل وزاراته على أساس من الحزبية ،

بل من الفردية الشخصية ، هو أبعد ما يكون عن رعاية المنافع القومية
المخالصة . . . !!

أرجو ألا يتورط أنصار الوزارة القومية فيما تورط فيه صدق باشا ،
فإن الرجل الحازم ذا النظر البعيد هو الذى يعتبر بالتجارب البعيدة فضلاً
عن التجارب التى ما تزال تقع تحت حسه . وأنا أؤكد لأنصار الوزارة
القومية أن وجود سياسى واحد من أمثال رئيس وزرائنا كثير فى مصر .
فكيف بهم إذا دفعوا بأنفسهم إلى هذه الوزارة القومية التى لا تؤيدها
الكثرة ، ولا تصدر عن إرادة الشعب ، فجعل كل واحد منهم نفسه
مثلاً من أمثال صدق باشا ، وكثرت فى مصر أمثال رئيس وزرائنا النابغة
الفذ . . . ! الذى ينبغى أن يظل وحيداً فى مصر ، ليس له ضريب
ولا نظير . . .

(٢٣)

خاتمة

المصريون (١) جميعاً قلقون وجلون ! لا يستقر لهم نهار ولا ينام لهم
ليل . وما أظنهم عرفوا عيداً كهذا العيد ، لم ينعموا فيه بلذات الحياة ،
ولم يسع فيه بعضهم إلى بعض ما تعودوا أن يسعوا به من التحية والتهنئة ،
لأنهم عن العيد ولذاته وتحياته فى شغل شاغل بهذا الهم المهم ، والخطب
الملم ، والبلاء الذى ليس فوقه بلاء . . . ! استغفر الله - بل أنا
أذكر عيداً شغل فيه المصريون عن لذة الحياة وعن التحية والتهنئة.

كان ذلك قبل الحرب الكبرى حين شبت نار الحرب بين تركيا ودول
البلقان ، وحين دنت جيوش البلقان من قسطنطينية وعرضت دار الخلافة

(١) ١٩٣٣/٤/٨ عدد ٢٣٥٨

للخطر . هنالك شغل المصريون عن العيد ، واتصلت نفوسهم بعاصمة الخلافة ، يشفقون عليها ويتمنون لها النجاة . وقد استجاب الله يومئذ لهذه النفوس فلم تقتحم جيوش العدو خطوط المسلمين ، وذاق المسلمون لذة الحياة فيما بقى من أيام العيد .. !

أما عيدنا هذا الذى نحن فيه فقد شغل المصريون عنه شغلا متصلا . ومع أن الصحف لم تنقطع بل أخذت تنقل إليهم الأنباء وتذيع فيهم الأخبار ، فقد ظلوا قلقين مضطربين ، ترجح نفوسهم في السماء بين اليأس والرجاء ، أى الخصمين ينتصر في هذه الحرب الضروس التى تشب نارها ، ويتلظى أوارها حول سمود . . ! أهو الجيش الظافر أم هو الرئيس الزائر ... ؟

وقد سكنت القيادة العليا فى وزارة الداخلية فلم تصدر بلاغات رسمية عن تفصيل الهجوم والدفاع ، وما كان فيهما من صراع . وأخذت صحف الوفد وحدها تقول فتفصل القول ، والناس يقرأون ويخافون على جيش الدولة ، ويتوقعون شرا من هذا الصمت الذى أغرقت فيه الدولة إغراقا شديداً . . !

وقد استمرت هذه الموقعة ثلاثة أيام ، وانتهت بعد ظهر أمس ، وعاد رئيس الوفد إلى القاهرة يحيط به عشرة من كبار الضباط ، ومن ورائه قطار مسلح ، وعن يمين القطار وشماله جنود منشورة ، وبنود منشورة ! فخيل إلى الناس حين وصل رئيس الوفد إلى محطة القاهرة أن جيشنا الظافر قد ظفر ، وأن قيادتنا العليا ستصدر بلاغا رسميا تطمئن له القلوب بين الجنوب ، وتعلن فيه الدولة هذا الفوز الباهر ، وأنها قد ربحت الموقعة كلها ؛ وجاءت برئيس الوفد أسيرا إلى العاصمة . . . !

ولكن القيادة العليا ظلت مغرقة فى الصمت ! فلم تقل شيئا ، وظلت مغرقة فى السكون فلم تصنع شيئا ! وانطلق رئيس الوفد حيث شاء ،

وسينطلق رئيس الوفد حيث يشاء ، ومن حوله العيون والرقباء على أن لا يبرح القاهرة وإلا تجددت الحملة ، وعبيء الجيش والشرطة مرة أخرى .

وإذن فأى الخصمين انتصر ؟ هل انتصرت الحكومة فجاءت بخصمها أسيراً ؟ هل انتصر رئيس الوفد فذهب وجاء كما شاء ؟ مسألة فيها نظر.. ولكن الشيء الذى لا شك فيه هو أن قلب وزير الداخلية قد استقر بين جنييه منذ أمس ، وليس هذا بالشيء القليل ، فأنت تعرف أن قلب وزير الداخلية إذا خفق خفق له قلب مصر ، وإن جبين وزير الداخلية إذا تقطب تقطب له جبين مصر ، وأن سعادة مصر وكلها رهينة برضى وزير الداخلية ، وشقاء مصر كلها رهين بغضب وزير الداخلية .

فيجب الآن أن تهدأ مصر ، لأن وزير الداخلية قد هدأ ! ويجب الآن أن تسعد مصر لأن وزير الداخلية قد رضى ! ويجب الآن أن ترفع الأعلام ، وتزدان المدن والقرى لأن وزير الداخلية قد انتصر ، ولأن رئيس الوفد قد وقع أسيراً في يده . . . !

ألست ترى أن الأمر قد بلغ من الهزل أقصاه ؟ ! وانتهى من السخف إلى غايته ؟ ! في مصر برلمان حقا ؟ وإذن فهل يريد هذا البرلمان أن يكون تابعا مطيعا لحكومته الرشيدة ، سعيداً أن ظفر من هذه الحكومة بالثقة !

لو أن هذا العبث الذى ليس إلى وصفه سبيل وقع في بلد يتقدر كرامته ويحرص على هيبة الحكومة فيه لأدت الوزارة عنة أمام البرلمان حساباً عسيراً ، أشد العسر . ولاضطرت الوزارة أمام سخط البرلمان إلى أن تستقيل ، فإن لم تفعل أقيلت وأكرهت على أن تنزل عن مناصب الحكم .

فالناس جميعاً يعلمون أن الوزارات إنما تقوم لرعاية مصالح الأمم وحماية منافعها ، فهي تقوم للجد لا للعب ، وهي تنصب للعمل لا للتمثيل.

والناس جميعاً يعلمون أن الوزارات قد تجور عن القصد ، وتضل عن سواء السبيل فتفسد حين يجب أن تصلح ، وتضر حين يجب أن تنفع ، ولكنها تحتفظ على كل حال بهيئة الحكومة وكرامة الدولة ، لأن الاحتفاظ بهذه الهيبة والكرامة شرط أساسى لاستقرار الأمن والنظام . فأما وزارتنا القائمة فقد أضاعت من مصالح البلاد ما أضاعت ، وأهملت من منافعها ما أهملت ، وأنكر الناس منها ذلك ، ولكنهم صبروا عليه ، واعتقدوا أنها ستحتفظ للحكومة بهذه الهيبة التى لا قوام للحكومات بدونها . فإذا هى تضع هذه الهيبة أيضاً ، وإذا هى تجعل سلطان الدولة موضوعاً للسخرية وتعرض جيش الدولة وشرطة الدولة للاستهزاء والازدراء .

يجب أن يعلم الذين إليهم أمر هذه البلاد أن المصريين جميعاً قد سخروا سخرية عميقة خطيرة من هذه الحركات السخيفة التى دفع إليها جنودنا وضباطنا فى هذه الأيام الثلاثة الماضية . فان الإغارة على الحدود وحدها هى التى كانت تبيح تجنيد الجنود وإرسال القطارات المسلحة وتسخير السفن فى النهر ، وحرمان الضباط أن يستمتعوا بحقهم الطبيعى من الراحة فى أيام العيد . الإغارة على الحدود ، أو اضطراب الثورة هما اللذان كانا يبيحان للحكومة أن تأتى ما أتت من الأمر فى هذه الأيام . فأما أن يسافر رئيس الوفد لزور قبر أبويه ، وليلقى أهله وعشيرته الأقربين فأمر يسير ، أيسر من أن يضطر الحكومة إلى كل هذه التعبئة .

إحدى اثنتين : إما أن يكون النظام الطبيعى اليومى عاجزاً عن حماية الحكومة من سفر رئيس الوفد إلى سمنود ، وإذن فيجب أن تستقيل الوزارة لأنها اعترفت بالعجز عن حماية النظام وإقرار الأمن . وإما أن يكون النظام العادى اليومى قادراً على حماية الحكومة من سفر الرئيس إلى سمنود ، وإذن فيجب أن تستقيل الوزارة لأنها عبثت بالجيش والشرطة ، وجعلت كرامة الدولة وسلطانها عرضة للازدراء والاستهزاء !

لو أن البرلمان القائم يريد أن يودى عمله حقاً لحاسب الوزارة حساباً عسيراً على هذا الموقف السخيف الذى وقفته ولاضطرها إلى أن تستقيل

لتقوم مكانها وزارة أخرى تحمى هذا النظام الجديد بعد أن عجز رئيس
وزرائنا المريض ووزير (١) داخلينا الظريف عن حمايته .

ولكن يظهر أن هذا النظام الجديد نفسه لا يمكن أن يحمى ويصان إلا
على هذا النحو ، فهو لا يستمد قوته من إيمان الأمة به وتأييدها له ،
واطمئنانها إليه . وإنما يستمد قوته من رئيس الوزراء ، وقد مرض رئيس
الوزراء فرضت معه الوزارة ، ومرض معه البرلمان ، فلا بد من أن
يمرض النظام أيضا ، وهو مريض ، وأى مرض أشد من أن يسافر رجل
واحد الى مدينة من المدن ، فترسل الحكومة وراءه ألفا من الجند ، وتلغى
الحكومة فى سبيل ذلك أجازة جماعة من الضباط وتأمر الحكومة فى سبيل
ذلك مديرين ألا يبرحا إقليميهما

أى مرض أشد من هذا المرض ؟ ومع ذلك فالذين يؤيدون رئيس
الوزراء ، ويسندونه ما يزالون راضين عن هذه الحالة ، مبتهجين لها ،
ينتظرون منها الخير . . . ! أما مصر فانها مشفقة من هذه الحال أشد
الإشفاق ، لا ترجو منها خيرا ، بل لا تنتظر منها إلا الشر .

لقد نهض رئيس الوزراء ليمحق الفوضى محققا ، وإن وزارته الآن
لتأتى كل شيء لتبسط سلطان الفوضى على البلاد . . . ! أما إذا كان
رئيس الوزراء قد أراد أن يجعل وزارته هو اللاهين ، ولعب اللاعبين فقد
وفق الى ذلك كل التوفيق حين اختار وزير داخلية الجديد . . . ! ولكن
أين رئيس الوزراء ؟ أمتصل هو بالناس والأشياء حقا ؟ أعالم بما يجرى
حقا ؟ إذن فقد فقد رئيس الوزراء بعد مرضه أخص ما كان يمتاز به من
الحصالة ، وهو الإشراف الدقيق على أمور وزارته والضبط الدقيق
لتصرف هذه الأمور . إنما الوزارة القائمة أشبه شيء الآن بسفينة فقدت
ريانها ، وعجز أعوان هذا الربان عن تسييرها ، وهى فى بحر لجى شديد

(١) هو محمود فهمى لقيسى باشا ، وكان محبوبا من سلطات الاحتلال .

العواصف ، ملتطم الموج . . ! فهي تسير على غير هدى ولا نظام !
تتقاذفها الأمواج وتعصف بها الريح ، فليعلم ذلك من إليهم تأييد الوزارات
ونخلانها ، فقد يكون في هذا العلم شيء من النفع .

(٢٤)

نذير

قليل (١) من الناس يستطيع أن ينصرف عن حديث اليوم إلى حديث
أمس . وقليل جدا من الناس من يستطيع أن ينظر إلى أحداث اليوم فيبتين
منها أحداث الغد ، ذلك لأن الحوادث الحاضرة التي تحيط بنا تشغلنا عن
الماضي والمستقبل جميعا ، وتحد أعمالنا وآمالنا وتفكيرنا ، فإذا نحن مثلها
مؤقتون في كل ما نأتي وما نقول . ولو قد أتيح لكثير من الناس أن
يفكروا في أمس لا اعتبروا بما كان فيه ، ولجنبوا أنفسهم شرا كثيرا .
ولو قد أتيح لكثير من الناس أن يتبينوا ما ستكشف عنه غدا أحداث
اليوم لأعرضوا عن كثير من الأعمال : ولجنبوا أنفسهم آلاما كثيرة
وضروبا من الحية لا تحصى ...

هذا كلام نقوله دائما ، ولكننا لانتعظ به ، ولا نعتبر بما فيه ،
وكأنه قد كثر حتى أصبح مملولا ، وكأننا قد أسرفنا في ترديده حتى زهدنا
فيه ، كما نزهد في الحديث المعاد . وليس كل حديث معاد خليقا أن يمل
ونزهد فيه ، بل من الحديث المعاد ما تستطيع أن تعيده وتعيده دون أن
تستقصى ما فيه من عظة ، وتستوعب ما فيه من حكمة ، وتنتفع حق
الانتفاع بما فيه من عبرة .

والظاهر أن الوزراء ورجال الحكم هم أشد الناس إغراضا عن أمس ،
ونفورا من غد . وهم لذلك أشد الناس تعرضا للخطأ ، وتورطا في الشر

والإثم . وكأن الوزارة - كما صورتها جريدة « الشعب » منذ أيام - في تشبيه بديع ، خمر معتقة ، لا يكاد يذوقها شاربها حتى تنسيه كل شيء فتمحو من نفسه أمس ، وتلقى بينه وبين غد حجابا صفيقا ! ولو قد ذكر رئيس وزرائنا ما كان من الأحداث ذات الخطر أمس القريب ، أو أمس البعيد لا تعظ واعتبر ، وصد نفسه عن أشياء ، وكف عزيمته عن أشياء . فما أكثر الذين ضاقوا من قبله بالديمقراطية فنصبوا لها الحرب ، وبحرية الشعوب فدبروا لها الكيد ، ثم باءوا بالهزيمة المنكرة والخذلان المبين ، لأن الديمقراطية أقوى من أن تغالب ، وأصلب عودا من أن تحطم ، لأن الديمقراطية صورة لإرادة الشعب ، ومظهر لقوته ، ومن العسير إن لم يكن من المحال أن يستطيع الفرد مهما تعظم قوته : ويبلغ شأنه من الارتفاع والعلو أن يقهر شعبا كاملا ، أو يذله فيطيل اذلاله .

ولو قد فكر رئيس الوزراء في غد لرأى هولا بشعا ، ونكرا عظيما ، فقدّر قبل أن يخطو ، وتدبر قبل أن يعمل ، ولكن الحكم وهو هذه الخمر المعتقة قد ألهى رئيس الوزراء فأنساه أمس وصرفه عن غد ، ودفعه إلى ما أتى من الأعمال ، وورطه فيما تورط فيه من شر ، فهو يجنى اليوم ثمار هذا النسيان لأمس ، والإعراض عن غد ، ويزدوقها فاذا هي فجأة مرة...!

نهض بالحكم وهو مؤمن بقوته ، معتر بكفايته ، واثق بذكائه ، مطمئن إلى سعة حيلته ، لا يشك في أنه سيبلغ من هذا الشعب ما يريد ، ولم يذكر أن قوما آخرين كانوا مثله أقوياء أعزاء ، وكانوا مثله أذكياء ، وكانوا مثله أكفاء بارعين ، قد نصبوا الحرب للشعب فلم يبلغوا منه ما كانوا يريدون ، بل بلغ الشعب منهم ما أراد . بل يذكر أنه قد وقف قوته وعزته وذكائه وكفايته على حرب الشعب والكيد له فصال وجال ، وقال فأطال القول ، وأذاق الناس ضروب الحن وألوان الفتن ، ثم لم يبلغ منهم شيئا ، وإنما انتهى به الأمر إلى أن أذعن لما كان الشعب يريد ، فعمل تحت لوائه ، وتقرب إلى زعمائه ، وأسرف في تملقهم والتقرب إليهم حتى انصرفوا عنه وزهدوا فيه .

لم يذكر رئيس الوزراء ذلك ، ولم يفكر فيه ، فجدد في عهده الحاضر ما اقترف في عهده القديم ، وأنا زعيم لك بأنه إن يسبغ الله عليه الصحة ، ويمتعه بالحياة الهادئة ، فسيرى فوز الشعب وانتصاره ، وسيرى ظفر الديمقراطية وتفوقها ، وسيحاول الانضواء تحت اللواء ، وسينفق كثيراً من حيلته الواسعة ، وكفايته الرائعة ليتقرب من الزعماء الذين يسرف الآن في الإساءة إليهم ، والإغراء بهم ، والتحريض عليهم ، وسيود بجذع الأنف لو شملوه بالعطف ، ولكن الحكم وهو هذه الخمر المعتقد قد ألهى رئيس الوزراء فانساه أمس ، وصرفه عن غد ، وشغله عن اليوم ... !

ولو أن الأمر وقف عندما يتعرض له رئيس الوزراء من خيبة الأمل ، ومرارة الخذلان لكان احتمالاً يسيراً . فرئيس الوزراء رجل من الناس يجب أن يتعلم كما يتعلم غيره من الناس ، ويجب أن يستفيد من الدروس القاسية التي يلقيها الزمان على أبناء الإنسان ، ولكن الأمر يتجاوز رئيس الوزراء إلى وطنه كله ، وأمتة كلها . فرئيس الوزراء حر في أن يسعى إلى نفسه ، ويعرضها للمكروه ، ولكن رئيس الوزراء لا يملك وما كان ينبغي له أن يملك الإساءة إلى أمتة وتعرضها كلها للمكروه . ورئيس الوزراء يعرض أمتة لخطر ليس بعده خطر ، ويدفعها إلى شر ليس مثله شر . ولو قد تمت له الآن في هذه الراحة التي يضطره إليها المرض أداة الروية والتفكير فنظر ورائه ، ونظر من حوله ، ومد بصره قليلاً إلى أمام لاستيقن أنه قد أشرف بأمتة على هوة بعيدة القرار .

لم يصل رئيس وزارة قط بمصر إلى ما وصل بها إليه صدقي باشا من ترغيبها عن قوة الحكومة ، وإساءة الصلة بينها وبين الحاكمين ، وإفحام قلوبها بالشك والريب في اخلاص الذين يشرفون على أمورها . ورئيس الوزراء أذكى عندنا من أن يصدق أنصاره الذين يزعمون له أن الناس يحبونه ويميلون إليه ! فلم يرغب الناس قط عن وزير كما يرغب المصريون عن صدقي باشا . ولم يضق الناس بوزير كما يضيق المصريون بصدقي باشا .

ورئيس الوزراء يعلم حق العلم أن ليس أخطر على حياة الأمم من أن يسود
البغض بين الحاكمين والمحكومين

ولم يصل رئيس وزارة قط بمصر إلى ما وصل بها إليه صدقي باشا
من سوء الحال الاقتصادية ، وهو يعلم من هذا أكثر مما نعلم ، ولعله يقدر
من هذا مثل ما نقدر . وهو واثق بأن في مصر آلافا وآلافا من الناس
يؤذيهم الجوع ، ويلذعهم الحرمان ، ويعذبهم ذكر ما كانوا فيه من نعمة ،
ويروّعهم انتظار ما يتعرضون له من شقاء . وهو يعلم كما نعلم أن هذا
البؤس المتصل ، وهذا الإعدام المحيط أخطر الأشياء على استقرار النظام
الاجتماعي (١) فضلا عن النظام السياسي .

ولم يعجز رئيس وزارة قط كما عجز صدقي باشا عن إقرار النظام ،
وتثبيت الأمن ، وهو يقيم نفسه بنفسه في كل يوم الأدلة القاطعة والبراهين
التي لا تدع سبيلا إلى الشك على أنه محتاج دائماً إلى الجيش كله ، وإلى
الشرطة كلها ، وإلى المكر كله ، وإلى الكيد كله ليحمي النظام ، ويضمن
هذا الهدوء المصطنع المتكلف .. ! ذلك ولم نذكر هذه القوى الخفية
الظاهرة ، الغائبة الحاضرة ، التي يسمونها الاحتلال ... !

ورئيس الوزراء يعلم كما نعلم أن ليس أخطر على حياة الأمم من هذا
النظام الذي يقوم على دعائم من القش ، والذي لولا الجيش والشرطة والكيد
والمكر لانهار في ساعة من نهار ... !

عجز عن توثيق صلة الحب بين الحاكم والمحكوم ، عجز عن حماية
الشعب من الفقر والجوع ، عجز عن إقرار النظام إلا بهذه القوة الخارقة
التي لا يلجأ إليها إلا في أوقات الخطر الداهم .

(١) يشير إلى احتمال انتشار الشيوعية

هذه هى الحال التى تورط فيها رئيس الوزراء ، لأن الحكم وهو هذه
الخمر المعتمة قد ألهاه فأنساه أمس : وصرفه عن غد ، وهو مع ذلك قائم
فى الحكم . مصر على أن ينسى أمس وينصرف عن غد . فهل لهذه
الكوارث العظام التى قد تتردى فيها مصر إذا استمرت هذه الحال زمنا
طويلا أو قصيرا .

ولكن رئيس الوزراء ليس وحده الذى يجب أن يذكر أمس ، ويفكر
فى غد ، ويقدر هذا الخطر الذى ينتظر وطنه ، بل هناك قوم آخرون (١)
لعلهم حراس أشد الحرص على ألا تتردى مصر فى هذه الهوة السحيقة التى
أشرفت عليها ، ولعلهم حراس على أن تظل مصر كما كانت من قبل بلد
الأمن والنظام ، واللين والرخاء . فما أجدر هؤلاء الناس أن يأخذوا أنفسهم
بما لا يريد رئيس الوزراء أن يلم به ، فيذكروا أمس ، ويفكروا فى غد ..

(٢٥)

وداع

لأول مرة (٢) منذ مرض رئيس الوزراء استطاع أن يزور ديوانا من
دواوين الحكومة ، فذهب مع الأصيل أمس إلى وزارة الداخلية مودعا
رجالها الذين عملوا معه فيها أعواما ، وكان كل شئ فى ذلك الوقت شاحبا
كاسفا ، يلتقى على النفس رداء رقيقا من الشحوب والحزن . كان النهار
فى آخره ، وكانت الشمس منحدرية إلى الغروب ، وكان فى الجو شئ من
هذا الحزن العام الغامض الذى يبعثه ميل الشمس إلى الغروب ، وانحسار
ضوئها عن الأشياء .

(١) يقصد الملك فؤاد ، والإنجليز

(٢) ١٢ - ٤ - ١٩٣٣ عدد ٢٣٦٢

وكان رئيس الوزراء في أكبر الظن نشيطا ، ولكن نشاط المتعب ، مبتسما ولكن ابتسام المحزون ! وكان رجال الداخلية في أكبر الظن مبتهجين للقاء وزيرهم بعد أن حال المرض بينه وبينهم أكثر من شهرين . محزونين لأنهم يلقونه ليودعوه ، لا ليعملوا معه . وكان حديث رئيس الوزراء إليهم لا يخلو من ثناء عليهم وتشجيع لهم ، وأمل فيما سيلقونه من توفيق في غد ، يشبه ما أتيح لهم من توفيق أمس ! ولكن صوت رئيس الوزراء كان في أكبر الظن هادئا مطمئنا ، أدنى إلى الجفوت منه إلى الجهر الذي عرفه الناس ! ولعل شيئا من الأسف والأسى كان يتردد في رنات هذا الصوت ، ويعرب عن حزن وزير الداخلية السابق لفراق أعوانه الذين نهضوا معه بهذه الأثقال الثقال التي تنوء بالرجال !

فكان كل شيء حزينا إذن في هذه الزيارة منذ ابتدأت مع المساء إلى أن انتهت مع أول الليل ، حتى حديث رئيس الوزراء إلى من حضر زيارته من الصحفيين ، فقد كان هذا الحديث شاحبا ممتقعا كثيبا ، يظهر فيه الجهد والاعياء . فانظر إلى رئيس الوزراء ، وهو يتحدث إلى الصحفيين بأنه سيذهب إلى مكتبه في الرئاسة في المساء ، لا في الصباح .

وقد كان يذهب إلى مكاتبه مع الصبح ، ولا يدعها حتى يتقدم الليل ، وسيقضي في مكتبه ساعتين ، وقد كان ينفق فيه بياض اليوم ، وشرطاً من سواد الليل ! وستخفف من المقابلات فلا يلتقي أحدا ، وقد كان يلتقي في البكرة ، ويلقى في الغداة ، ويلقى في العشي ، ويلقى في الآصال ، ويلقى تحت جنح الظلام . . . !

وستخفف من الأعمال فلا ينظر منها إلا ذا الخطر . وقد كان لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا دعاها إليه وقلبها ظهرا لبطن ، ووقف عندها فأطال الوقوف ، ونظر فيها فأنعم النظر ، وجادل فيها فأتعب المجادلين . . . !

ولن يطول تردده على مكتبه إلا ريثما يسافر إلى أوربا ليستريح ويتعجل سعيه إلى الشفاء ، أو سعى الشفاء إليه . وقد كان أزهّد الناس في سفر ،

وأحرص الناس على إقامة ، وأرغب الناس في أن يشرف بنفسه على كل شيء لا في وزارتي المالية والداخلية وحدهما ، بل في كل ما يتصل بالوزارات الأخرى . ثم تضيف « الشعب » أنه سيحضر جلسات البرلمان من حين إلى حين متى سمحت له الظروف . . . !

كل هذا يحزن ، وكل هذا يسوء ! فهما يكن سخط الناس على سياسة رئيس الوزراء ، فهم كانوا يريدون لحكمه خاتمة خيرا من هذه الخاتمة . وهم كانوا يريدون أن تظل الحرب بينه وبينهم قوية عنيفة حتى يدع الحكم ، لا أن تكون كما هي الآن حربا لغير محارب ، وهجوما على من يعيبه الدفاع .

كان كل شيء أمس حزينا كثيبا حين زار رئيس الوزراء ديوان الداخلية ، وسيكون كل شيء اليوم وغدا شاحيا كثيبا حين يختلف رئيس الوزراء إلى حزب الشعب أو إلى ديوان الرئاسة ، لأن رئيس الوزراء قد فقد هذه القوة التي كانت تبعث في أنصاره وأعوانه القوة ، وهذا النشاط الذي كان يبعث في أعوانه وأنصاره النشاط . وأصبح رئيس الوزراء فاترا ، ففتر الناس من حوله ، كثيبا فاكتأب الناس من حوله ، وليس الغريب أن يفتر الناس بعد نشاط ، ويضعفوا بعد قوة ، ويكتئبوا بعد ابتهاج . فهذه أعراض الحياة ، ليس منا إلا من هو معرض لأن يلقاها ، ويأخذ منها بحظ قليل أو كثير . وإنما الغريب أن يحتمل الناس هذه الأثقال ويأبوا إلا إنكارها ! وأن يخضع الناس لهذه الأعراض ويأبوا إلا تصريف أمورهم كأن شيئا لم يعرض لهم ، وكأن حدثا لم ينزل بهم ، وكأنهم مستكملون لكل ما يحتاجون إليه من قوة ونشاط وطمأنينة تمكنهم من تصريف الأمور !

أختار رئيس الوزراء حين يصير على البقاء في الحكم والنهوض بأعبائه الثقال رغم هذا الضعف الذي لا سبيل إلى الشك فيه ؟ وإذن فما أجدر الذين يحبونه ويرفقون به أن يشفقوا عليه ، ويخففوا عنه هذا الثقل ، ويخلوا بينه وبين الراحة يأخذ منها بحظ موفور .

أمكره رئيس الوزراء على البقاء فى الحكم لىمكن للذين إلهم أمر السىاسة من البحث والتفكير فىما يمكن من التغير ؟ وإذن فما أقسى وما أبعداها عن الرفق ! وما أشد إسرائها فىما تطلب إلى أهلها من تضحية لا تتخرج أن تبلغ بها الصحة نفسها . . . !

وأى قسوة تشبه هذه القسوة التى تكره على العمل رجلا قد يكون أحب شىء إليه أن يدع العمل ويستريح . . . ! ! وسواء كان رئيس الوزراء مختارا للبقاء فى الحكم أو مكرها عليه ، فإن حياة الشعوب نفسها أقسى من السىاسة ، وأقسى من الظروف ، وأقسى من هذه الاعتبارات التى تدعو إلى الرفق ، وتفرض المجاملة على الناس .

حياة الشعوب هذه لا تستطيع أن تلقى بأعنتها إلا إلى الذين يقدرون على تصريفها حقا ، ويستطيعون أن يقفوا عليها وقهم وجهودهم وتفكيرهم . وليس رئيس الوزراء بالذى يقدر على هذا الآن . لقد فكر الرجل وأطال التفكير ، وقدر وأطال التقدير ، واستشار الأطباء فأكثر الاستشارة . وأكبر الظن أنه ساومهم وألح فى المساومة ، وأكبر الظن أنهم مانعوه فغلوا فى الممانعة . وانتهى الأمر بينهم وبينه إلى أن يأذنوا له بساعتين يختص بهما أعمال الدولة أياما قبل أن يسافر إلى أوربا ، وعلى أن تكون هذه الأعمال خفافا ، لا مشقة فيها ولا عناء .

هذا أقصى ما يملك الرجل ، وهو أقصى ما يستطيع الأطباء أن يأذنوا به . وهو أيسر ما يمكن أن يقدمه إلى الحياة العامة رجل يشتغل بالحياة العامة . وأين تقع ساعتان من حياة مصر ؟ وأين تقع أيام من هذه الحياة ؟ وكيف يخطر للذين إلهم أمر السىاسة المصرية أن شيئا كهذا يمكن أن تجرى عليه الأمور ، أو يستقر له نظام ؟ ولو أن الوزراء الذين وضعهم صدق باشا فى مناصب الحكم يستطيعون أن يثبتوا لهذه المناصب ، وينهضوا باثقالها لما جاز أن تبقى الوزارة ورئيسها مريض إلى هذا الحد . فكيف والناس جميعا مؤمنون وأولهم الإنجليز بان هؤلاء الوزراء أعجز من أن يحتملوا وحدهم

أعباء الحكم ، أو يستقلوا باثقاله ، فهم قد وضعوا في مناصبهم ليعينوا رئيسهم على تدبيرها : لا ليستقلوا هم بهذا التدبير .

كل شيء يدعو إلى أن تتخلى هذه الوزارة عن الحكم . صحة رئيسها ومصلحة مصر : لا أقول مصلحتها الحقيقية ، فليس هذا بالوقت الذي يقام فيه للمصلحة الحقيقية وزن ، وإنما أقول مصلحة هذا النظام الذي استحدثته صدقي باشا . كل ذلك يدعو إلى أن تستقيل هذه الوزارة ليستريح المريض ، وليجد هذا النظام الناشئ إذا لم يكن بد من محاولته للبقاء من يمكنه من المضي في هذه المحاولة .

ما أجدر رئيس الوزراء ، والذين يؤيدونه في منصبه أن يقرأوا قصة تمثيلية ظاهرها مضحك وباطنها كله عظة ، وهي قصة المحامي التي وضعها الكاتب الفرنسي راسين ، والتي يذكرنا بها ما نحن فيه الآن ...!!

(٢٦)

جلسة

كل شيء (١) مستعجل في هذه الأيام متى وصل إلى البرلمان ! كأن قوة خفية عنيفة تدفع سادتنا الوزراء والنواب والشيوخ إلى أن يمضوا أمامهم مسرعين ، لا يقفون عند شيء ، ولا يلوون على شيء ، ولا يتفكرون في شيء ...!!

فمن أحب منهم أن يتفكر أو يتدبر أو يصطنع الأناة ، فهو قليل حسير ، قد فقد أسباب السبق ، وعجز عن إتمام الشوط ، فلا بد من أن يتخلف ، ولا بد من أن يرد عن المضي في الطريق . ولعل هذه السرعة في العمل ، وهذا الميل إلى خطف الأعمال خطفا ، كما يخطف الناس خطفا

غرض من الأغراض التي من أجلها استحدث رئيس الوزراء الانقلاب
الدستوري الخطير منذ أكثر من عامين ... !

فالأناة منافعها ، والتفكير فوائده . ولكن الأناة في الأعمال العامة
تكشف في أكثر الأحيان عن تقصير وشر كثير ، والتفكير في الأعمال العامة
يظهر أشياء لابد من أن تخفى ، ويجلو أموراً لابد من أن تظل غامضة .

والتفكير والأناة يؤديان في أكثر الأحيان إلى ما لا يحمد ولا يجب .
فمن يدري أي شيء كان يحدث لو لم يخطف رئيس الوفد من قنا ؟ ومن
يدري أي شيء كان يظهر لو لم تخطف ميزانية وزارة الأشغال من مجلس
النواب أمس ؟ لنصطنع إذن الأناة والروية في أعمالنا الخاصة ، فلا نقدم
على شيء حتى نقتله بحثاً ودرسا وتفكيراً . فأما الأعمال العامة فلنمسيها
مسا رفيقا ، ولنمر عليها مرا سريعا ، ولنخطفها خطفا لبقا بديعا ! وكذلك
تجرى أمورنا على وجهها ، لا يظهر فيها عيب ، ولا يتبين فيها فساد
واضطراب .

وكذلك نقيم الدليل على أن الأمة تحب الحكومة : وتتولاها بالود
والنصح والإخلاص حين نخطف منها رئيس الوفد خطفا ، أو نلقى بينها وبين
رئيس الوفد حجابا كثيفا من الجند الكثيف .

وكذلك نقيم الدليل الواضح والبرهان القاطع على أن وزارة الأشغال
قد بلغت الكمال وحقت الآمال حين تعرض ميزانيتها على مجلس النواب ،
وتأخذ هذا المجلس بأن ينظر فيها ويناقشها ويقرها ويتخفف منها في جلسة
واحدة ، لا تزيد عن ساعتين أو عن ساعات .

وكذلك يشهد العالم المتحضر بأن الانقلاب الدستوري الذي أحدثه
صديق باشا قد آتى ثمره حلوا شيبا ! فأقام في مصر إدارة منظمة حازمة
سريعة لبقة ! وأقام فيها برلمانا متقنا فطنا بصيرا حريصا على مصالح الأمة ،
دقيق الإشراف على ما ينفق من أموالها ، سريعا على ذلك كله سرعة

لا تعرفها البرلمانات الأوروبية التي بعد عهدها بالحياة النيابية ، والإشراف
على أعمال الحكومات ... !

قدمت الحكومة منذ حين إلى مجلس النواب قوانين الجامعة ، واستعجلت
نظرها ، فتعجل المجلس نظرها وأقرها في أقل من ساعة ! وقدمت الحكومة
منذ حين إلى مجلس النواب قانون التخصيص في الأزهر وتعجلت نظره ،
فأسرع المجلس في ذلك وفرغ من القانون في جلستين ! وقدمت الحكومة
أمس إلى مجلس النواب ميزانية وزارة الأشغال وتعجلت نظرها ففرغ منها
المجلس في جلسة واحدة !!

وفي قوانين الجامعة مستقبل التعليم الحديث كله فتتظر في أقل من ساعة.
وفي قانون التخصيص مستقبل التعليم الديني كله فينظر في جلستين . وفي
ميزانية وزارة الأشغال أكثر من ستة ملايين من الجنيهات وفيها خزان جبل
الأولياء ، وفيها مستقبل الري ، وفيها مرافق أقل ما توصف به أنها تمس حياة
الامة في أدق فروعها فتتظر هذه الميزانية ويقرها المجلس في جلسة واحدة !
ويقال بعد ذلك إن الانقلاب الدستوري الذي أحدثه رئيس الوزراء لم
يحقق منفعة مصر ، ولم يصن مصالحها كلها من العبث ، ولم يعصم منافعها
من الضياع . اللهم جنبنا العناد في الحق ووفقنا إلى الإيمان بالخير .. !

ماذا تبتغي مصر أكثر مما وصلت إليه ؟ هذه قوانينها تشرع في دقائق.
وهذه ميزانياتها تقر في ساعات ، وهذه وزاراتها تستمتع بثقة البرلمان ،
وهذه إدارتها تستأثر بحب الناس جميعاً . كل شيء يجري على وجهه مستقيماً
لا عوج فيه ولا اضطراب ، فماذا نريد ؟ وماذا نبتغي ؟ وما لنا لا نرضى ؟

ولكن ما هذه الأزمة التي أثرت أمس في مجلس النواب ؟ وما بال
فريق من النواب قد أخذهم هذا الغضب المتأخر فسخطوا وطالما رضوا ،
وثاروا وطالما هدؤا واستقروا . وخرجوا من الجلسة وطالما لزموا كراسيهم
لزوم الغريم ؟

زعموا أن هؤلاء السادة كانوا في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان،
رفعوا إلى مجلس النواب استجوابا عن خزان جبل الأولياء فأهمل ثم أجل
ليرد عليه رئيس الوزراء حين يمن الله عليه بالشفاء . فلما كان أمس ،
وجاءت ميزانية الأشغال أرادوا أن يؤجلوها كلها أو بعضها حتى يكون
الاستجواب وتكون المناقشة فيه ، فضاق بهم وزير الأشغال ، وضاق بهم
رئيس المجلس ، وضافت بهم كثرة المجلس نفسها ، وظهر هؤلاء السادة أنهم
مبطلون والدنيا من حولهم مسرعة ، وأنهم مقصرون والدنيا من حولهم
مشمرة ، وأنهم يريدون الجد ، والدنيا من حولهم تؤثر الهزل . وما هذا
الجد الذي جاء بعد إبانته وتأخر عن أوانه ؟

ظن هؤلاء السادة أن الوزارة كانت جادة حين طلبت تأجيل الاستجواب ،
وقد قيل لهم مع ذلك إن الوزارة إنما تؤجل لتخرج بهذا التأجيل من التأويل
والتعليل ، ولترجيء هذا الاستجواب إلى الفصل الذي ينضج فيه التين
والعنب كما يقول الشاعر القديم . فلما أحس هؤلاء السادة ضيق الوزير
والرئيس والكثرة ، غضبوا واحتجوا وانصرفوا ! فماذا كان ؟ دار الفلك
كما يدور ، ومضى المجلس كما كان يمضي ، وانتهى إلى أقصر الشوط ،
وأقرت الميزانية وفيها خزان جبل الأولياء ، وسيعود النواب المحترمون مساء
اليوم إلى المجلس كأن لم يكن شيء بالأمس ، وقد برئت ذمهم ، ورضيت
ضمايرهم ، ولم لا ؟ لقد غضبوا وأنكروا ، وخرجوا وامتنعوا من إقرار
ما لم يكونوا يريدون . ما أسهل هذه البراءة وما أيسر هذا الرضى ،
وما أسهل أسباب الفكاهة واللعب في مصر !

ثم ينهض وزير الأشغال فيعلن أنه كان يرى في الخزان رأيا ، ثم بداله
فرأى فيه رأيا آخر . وكان ينكره فأصبح يكبره ، وأى حرج في ذلك ؟
وأى بأس ؟ كل شيء يدور حتى الحق والباطل ، وحتى الخطأ والصواب ،
وحتى الرفض والقبول . وسواء أَرْضَى وزير الأشغال عن الخزان أم
غضب عليه فسيقام الخزان ! لقد قبله مجلس النواب منذ عام ، وأقر له

الأموال أمس . ليغضب وزير الأشغال ويرض ، كما غضب النواب ورضوا فلن يغير ذلك من الأمر شيئاً . ويأبى الله إلا أن تكون في المجلس فكاهة أمس ، فقد اعترف وزير الأشغال في صراحة ظريفة بان وزارته لم ترسم لنفسها سياسة بعد ! وإذن فهي لا تستطيع أن تقدم هذه السياسة إلى المجلس ، لأنها لا تحب أن تقدم إليه إلا الكامل الشامل الذى قد يكمل غداً أو بعد غد . ولكنه سيكمل بعد أن يتم إقرار الميزانية على كل حال .

ويؤخذ رأى على الميزانية جملة ، ولم تناقش تفصيلاتها ، فإذا أنكر النواب غضب الرئيس ، وإذا غضب الرئيس وجب أن يرضى النواب ، وإذا رضوا فمرت الميزانية كما يمر البرق . قالت الأهرام : « وكان الأعضاء الباقون خمسة وثلاثين عضواً » عدد يكفى ليقر أكثر من ستة ملايين ، ثم يزعم المصريون أن أمورهم لا تجري على ما يحبون . وهل إلى ما يحبون من سبيل ؟

(٢٧)

أزمة

ليست هي الأزمة الاقتصادية (١) ، فالناس جميعاً يلقون من شرها (٢) ونكرها ، ما يطاق وما لا يطاق . والناس جميعاً يتحدثون عنها بالمعقول وغير

(١) ١٤ - ٣ - ١٩٣٣ عدد ٢٣٦٤

(٢) جاء في تقرير مدير مكتب العمل أن القيود التى وضعتها حكومة اسماعيل صدقى على استخدام سيارات النقل والركوب قد أحدثت ضرراً كبيراً بالمشتغلين بالنقل الميكانيكى حتى ترتب على ذلك أن (٧٢٧٠) شخصاً أصبحوا عاطلين ، فلو قدر أن كلا منهم يعول ثلاثة أشخاص لكانت النتيجة أن ٢٨ ألف شخص قد حرموا من أرزاقهم وتعرضوا للجوع « الشعب فى ١٤ - ٣ - ١٩٣٣ »

هذا وغير الموظفين الذين فصلوا من وظائفهم بحجة الاقتصاد فى الميزانية :

المعقول ، والناس جميعاً يتمنون لما حلا . ويعجزون عن هذا الحل ، لأن الذين إليهم الأمر لا يعملون ، ولا يخلون بين غيرهم وبين العمل .

وليست هي الأزمة الوزارية ، فقد فتح باب هذه الأزمة ثم أغلق ، وانتهى الأمر إلى ما عرفت من ترقيع إثر ترقيع . وما زال باب الأزمة الوزارية مغلقاً منذ الترقيع الأخير وإن كانت الحوادث والأحداث تفرع هذا الباب منذ حين ملحة عنيفة ، وتوشك أن تنتهى إلى فتحه . لأن الشاعر القديم لم يكذب حين قال :

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته

ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

والحوادث والأحداث محتاجة إلى أزمة وزارية ملحة فيها ، وهي ظافرة بها من غير شك ، ولعل ظفرها أن يكون قريباً ، أقرب مما يظن المسلمون على مصر في هذه الأيام .

فلا أريد إذن أن أتحدث إليك عن الأزمة الاقتصادية ، ولا عن الأزمة الوزارية ، لأننى لا أريد أن أحزنك ، ولأننى لا أريد أن أعلك بالأمانى والآمال .

وإنما أريد أن أحدثك عن الأزمة البرلمانية ، لأننى أريد أن أهيك بعض التلهية ، وأسليك بعض التسلية ، وأصرفك بعض الوقت عما أنت فيه من التفكير فى السياسة والاقتصاد . وقد اعتقدت منذ ثقل على الناس هم الوزارة القائمة أن خير وسيلة إلى احتمال هذا الهم الثقيل والتخلص مما يبعث فى النفوس من الحرج والضيق ، إنما هو الضحك منه والعبث به . وكثيراً ما يكون الضحك دواء ناجعاً للأمراض الثقالة والهموم المعضلة ! وقد زعموا أن هذه الأزمة نشأت أول أمس بين المعارضين والمؤيدين للوزارة فى مجلس النواب ، ومضت بعض الصحف فى التفصيل والتهويل إلى حد بعيد ، حتى قدرت « السياسة » صباح اليوم أن الأمر سيتعقد ويغلو فى

التعقد ، وسيتخرج ويغرق في التخرج حتى يرفع إلى حضرة صاحب الجلالة الملك ليتفضل فيرى رأيه فيه قبل أن يتفضل فيأمر بإصدار قانون الميزانية.

وكتبت الأهرام فصلا طويلا عطف في على المعارضين ، وأشفت فيه على المؤيدين ، وسعت فيه بالخير المشوب بين أولئك وهؤلاء ، وكتبت صحف أخرى فصولا أخرى ، منها الهادى ومنها المضطرب ، ولكن شيئا من هذه الفصول لم يصل إلى أن يمس جمهور الناس أو يشير في الرأى العام شيئا من الاهتمام . ومصدر هذا واضح جدا . فقد قلت غير مرة إن في وادى النيل الآن مصرين ، تحيا كل واحدة منها حياة مستقلة أتم الاستقلال عن حياة صاحبها : إحداهما مصر الرسمية التى تتألف من الوزارة والإدارة والبرلمان . والأخرى مصر فحسب التى يكونها الشعب المصرى الذى يألم ، ولكن الألم لا يصرفه عن الأمل ، ويحزن ولكن الحزن لا ينتهى به إلى الجزع . وينحضع للخطوب ولكن الخطوب لا تحوله عن الثقة بنفسه والإطمئنان إلى غده المشرق الرائع .

فاذا حدثت أزمة في مصر الرسمية فقل أن تحسبها مصر الشعبية ، وقل أن تحفل بها أو تلتفت إليها ، لذلك لم يعن أحد من الناس عناية ما بهذه الأزمة الطويلة العريضة العميقة التى حدثت في مجلس النواب أول أمس ، والتى يريد فريق من الناس أن يكبر من أمرها وهو صغير ، ويجل من خطرها وهو ضئيل . وأى شىء يدعو إلى العناية أو يبعث على التفكير في أمر هذه الأزمة ؟ في مجلس النواب مؤيدون رسميون ، ومعارضون رسميون ، ولكنهم جميعا أصدقاء مخلصون للوزارة القائمة ، يؤيدها أولئك وهم يعلمون أن تأييدهم إياها لن يطيل بقاءها ، ولن يعصمها من السقوط ، لأن بقاءها وسقوطها ربما كانا إليهم بحكم الدستور ، ولكنها إلى غيرهم بحكم الحقائق الواقعة ! ويعارضها هؤلاء ، وهم يعلمون حق العلم أن معارضتهم لن تضرها شيئا ، ولن تعرضها لخطر ما ، لأن الخطر إن جاء فلن يجيئها من البرلمان ، ولكن يجيئها من نواح أخرى ، ليس للبرلمان عليها سلطان . . . !

وأولئك وهؤلاء يؤمنون بعجزهم عن الخير والشر ، فتصفو بينهم هذه المودة التي تصفو عادة بين العاجزين ، فهم يختصمون ولكن بالسنتهم ، وهم يحتربون ولكن دون أن تصل الحرب إلى قلوبهم ، وهم متفقون في كل حال على أن لا تكون خصوماتهم وحروبهم مصدراً لتنغيص قليل أو كثير على الوزارة القائمة ، وعلى رئيسها المريض بنوع خاص . وقد رأينا بعض المؤيدين يتمدحون في الصحف لأنهم مستمتعون بثقة الوزارة ، ورأينا بعض المعارضين يقفون في المجلس فيسرفون في الثناء على الوزارة ، لأنها خطلت رئيس الوفد أثناء رحلته في الصعيد .

فاذا كانت هذه نفسية النواب مؤيدين ومعارضين ، فمن غير المعقول أن يحسب أحد لما يقع بينهم من الخصومة حساباً . إنما هو فن من فنون الدعاية ، ولون من ألوان المزاح ! لقد قيل منذ عام إن زعيم المعارضة استقال من مجلس النواب ، أو أُنذر بالاستقالة ، وألح في النذير ، ولكن الأمر جرى بعد ذلك على خير ما تجرى به الأمور ، فعاد زعيم المعارضة إلى مجلس النواب ، واستقامت أموره فيه ، وإن تحدث الناس بأنه ساخط غير راض ، ومحزون غير مسرور . . ! وسمعنا منذ أيام وزير الأوقاف الجديد يصيح في مجلس النواب « الحكومة تريد ذلك » فأذعن لصيحته المؤيدون والمعارضون جميعاً ، وعدل أكثر أصحاب الاقتراح الذي أنكره الوزير عن اقتراحهم لأن الحكومة أرادت ذلك .

وأى شيء كان أول أمس ؟ ثارت الكثرة بالقلة فنعتها من الكلام ، فغضبت القلة وانصرفت محتجة ، وأى غضب لا يعقبه رضى ؟ وأى خروج لا يتبعه رجوع ؟ خرجت المعارضة أول أمس وستر جمع بعد غد إن شاء الله ! فغضبت المعارضة أول أمس وسترضى بعد غد إن شاء الله . وقد تصدر بياناً عن الخروج والرجوع ، ولكن الأمر لا يعدو هذا البيان إن صدر . وأكبر الظن أنه لن يصدر اللهم إلا إن تحس المعارضة ما نحس نحن من أن في الجوع السياسى شيئاً يكفى ليمتنع الغاضبون عن الرضى ، والخارجون عن الرجوع !

وفى « السياسة » تلميح لهذا الشيء الذى لعله يفتح أبوابا إذا لم تستفتح الآن
فقد يتعسر فتحها غدا . . !

يسير جدا إذن ما كان . ويسير جدا إذن ما سيكون بين المعارضين
والمؤيدين فى مجلس النواب ، إلا أن تمتد إلى أولئك وهؤلاء يد من هذه
الأيدي التى تعمل فى بعض النواحي لتأليف الوزارة المقبلة والتمهيد للعهد
الجديد . هنالك يتغير الأمر : ويتبدل الموقف ، ومن يدري ؟ لعل المعارضة
تستقيل من مجلس النواب . ولعل ما يسمونه الحزب الوطنى يسترد حريته
ويهيء نفسه لائتلاف جديد ، وانتخاب جديد ، ولعل بعض الشاردين
أن يعودوا إلى حظائرهم ، ولعل بعض المؤيدين أن ينقلبوا مخاصمين ، ولعل
هذه الأزمة اليسيرة أن تستحيل إلى مشكلة خطيرة — ولكن هذه الآمال
لا تخطر إلا للذين يلتمسون الوسيلة إلى مخرج ما من هذا الموقف الدقيق الذى
نحن فيه .

هناك أزمة أخرى لعلها أشد وأخطر من أزمة المعارضين والمؤيدين
لو أن الحياة النيابية فى مصر تسير سيرة الحياة النيابية فى البلاد الأخرى .
وهى هذه التى ثارت بين مجلس النواب ورئيسه حول ميزانية وزارة الأشغال ،
فقد تغيرت سيرة الرئيس فظهر حازما عازما ، شديدا حديدا ، بعد أن كان
لينا سمحا ، ويسيرا سهلا . وقد أخذ يفرض إرادته على مجلسه فرضا من
غير أن يلتفت حتى إلى الأشكال والأوضاع التى يلتفت إليها رؤساء المجالس
النيابية عادة . أخذ الأصوات أول أمس على ميزانية وزارة الأشغال دون أن
ينظر فى تفصيلها ، وكان المصوتون أقل من العدد القانونى الذى يجز
الميزانيات ، ولكن الرئيس أجاز الميزانية ، وأرسلها إلى مجلس الشيوخ !
وفى هذا كله مخالفة واضحة للدستور والنظام البرلمانى . وقد يستطيع النواب
أن يتعلقوا به على الرئيس ، وقد يستطيعون أن يتخذوه وسيلة إلى أزمة .
والذين يفكرون فى الوزارة المقبلة ، ويلتمسون إليها الوسائل يرجون أن
يتعلق النواب على رئيسهم بهذه الغلطة ، ويأخذوه بهذه الهفوة ، ولكن
الذين يسرون النواب فى الأحزاب أقدر وأمهر من أن يؤخذوا على غرة ،

ومن أن يعرضوا أنفسهم لمثل هذا الخذلان ، فلن يتعلق النواب على رئيسهم بشيء ، ولن ينكر النواب على رئيسهم شيئا ! وسيجتمع النواب يوم الثلاثاء مؤيدين ومعارضين فيمضون في طريقهم هادئين كأن لم يحدث حدث بالأمس ! وستبسم الوزارة لهذه الأزمة كما تعودت أن تبسم للأزمات التي تشبهها لأنها تعلم حق العلم أن ريح السقوط لن تهب من البرلمان ، ولكنها تهب من حيث تعلم ويعلمون .

(٢٨)

مؤتمر

يقال (١) إن أمس كان يسمى يوم الجمعة ، ويقال إن هذا اليوم يوم مشهود عند المسلمين ، تقام فيه الصلاة العامة إذا كان الظهر . ويقال إن لهذه الصلاة العامة في هذا اليوم خطرا ليس لغيرها من صلوات الظهر في كل يوم . أمر المسلمون أن يسعوا إليها وأن يدعوا البيع والتجارة وغيرهما من المصالح التي تمس مرافق الحياة على اختلافها . ويقال إن التقاليد الإسلامية أرادت أن تعني الدول الإسلامية عناية خاصة بهذه الصلاة ، فيشهداها أولو الأمر ، وكانوا هم الذين يقيمونها عادة في العصور الإسلامية الأولى .

كل هذا يقال ، وكل هذا يدرس في الأزهر الشريف ، وكل هذا يعرفه المسلمون جميعا إذا بلغوا سن الرشد ، ووجبت عليهم الصلاة . وكل هذا تؤمن به مصر الرسمية والشعبية معا ، لأن الدين يأمر به ، ولأن الدستور ينص على أن الإسلام دين الدولة .

وقد تقرأ صحف اليوم التي صدرت في الصباح فتري أن رجلا من الناس يقال له مصطفى النحاس كان يشهد هذه الصلاة في مسجد من مساجد المسلمين الجامعة . فحشدت له الجنود حول المسجد ، وحشدت له الجنود داخل

المسجد ، لأن هذا الرجل لا يكاد يذهب ، ولا يكاد يجيء حتى تضطرب له الوزارة ، وتخاف من ذهابه وإيابه على النظام واستقرار السلام ، فهي مضطرة أن تتبعه بالجند إذا قام ، وهي مضطرة أن تحرسه بالجند إذا نام ، وهي مكرهة على أن ترصد له الجند إذا صلى وهي مكرهة على أن تراقبه إذا صام .

وهي لذلك قد حشدت الجنود حول المسجد أمس ، وهي لذلك تمتنع جماعة من المسلمين من أن يشهدوا صلاة المسلمين ، ويؤدوا فرضا فرضه الله على المسلمين ، لأنها تخاف هذا الرجل على المسلمين ، وبينما كان هذا الرجل يصلى وقد رصد له الجند داخل المسجد وخارجه ، في أيدي فريق منهم الشياطين ، وفي أيدي فريق منهم العصي ، وفي قلوبهم جميعا - في أكبر الظن - تحرق على أن يؤدوا الصلاة ، وتخلص ضمائرهم لله ساعة من نهار ، كان جماعة من وزراء الدولة ، وجماعة من نواب الدولة يشهدون في دار من دور الدولة مؤتمرا عظيم الخطر ، بعيد الأثر ، لم يكن بد من انعقاده أمس ، ومن انعقاده في هذه الساعة ، ومن انعقاده في هذه الدار ، لأن حياة المسلمين كانت رهينة به ، ولأن صلاح أمر المسلمين كان موقوتا عليه ..!

أظنك قد عرفت هذا المؤتمر ، وأظنك قد فطنت للموضوعات الخطيرة التي كان يدرسها ويجادل فيها ، ولا يحاول أن ينتهي بها إلى حل تصلح له حياة المسلمين بعد فساد ، وتستقر له نفوس المسلمين بعد اضطراب ...!

فإن لم تكن قد عرفت هذا المؤتمر ، وفطنت لموضوع بحثه الخطير ، فلعلك تتنبه له حين تعرف أن وزير التقاليد كان يشترك فيه وحين تعرف أن وزير الأوقاف كان يشترك فيه أيضا ، وحين تعرف أن زعيم المعارضة الرسمية وأصحابه المعارضين الرسميين كانوا يشتركون فيه أيضا ، فهو إذن مؤتمر المؤيدين والمعارضين ، انعقد صباح أمس ليمحو ما ثار بين الفريقين من شر ، ويزيل ما شجر بين الفريقين من خلاف . وأنت توافقي على أن

الخصومة بين المؤيدين والمعارضين في مجلس النواب خطر على أمن الدولة ، واستقرار النظام فيها ، فيجب أن يفرغ لها الوزراء والنواب ، وأن يفرغ لها بنوع خاص وزير التقاليد ووزير الأوقاف ، فالى أولها تربية الشباب ، وتعويده أن يقدم مصالح الدولة على كل شيء ، وإلى ثانيها بمقتضى النظم الجديدة أن يشرف على الأزهر الشريف ، ويسير به في هذه الطريقة القويمة التى تقدم مصالح الدولة على كل شيء !

وأنت توافقنى على أن تقديم مصالح الدولة على كل شيء ، أن تختار الساعة التى اختيرت أمس لإزالة الخلاف الذى شجر أول من أمس بين المؤيدين والمعارضين في مجلس النواب والجمعة تصلى في كل أسبوع . فإن فاتت يوما فقد لا تفوت في يوم آخر ، ولكن الخلاف لا يشجر بين المؤيدين والمعارضين في مجلس النواب في كل أسبوع فليس من بأس على وزراء الدولة ونواب الدولة أن يفرغوا لمحو الشر إذا ثار ، وقلما يثور ، ولإزالة الخلاف إذا شجر وقلما يشجر . وكذلك كانت ترعى مصالح الدنيا والدين أمس ... !

وزراء التقاليد والأوقاف والزراعة يمحون الشر ، ويزيلون الخلاف بين النواب . ووزير الداخلية يرصد الجنود داخل المسجد الجامع وخارجه ليراقب رجلا يصلى مع الناس هو مصطفى النحاس . فأما رئيس الوزراء فمريض يستريح . وأما بقية الوزراء فعلمهم عند الله وعند أنفسهم . وقد أدى كل عمله . فأما الوزراء والنواب فمحوا الشر وأزالوا الخلاف ، وردوا الأمر صفوا كما كان . وأما الحند فحاصروا وظاهروا . وأما النحاس فصلى وعاد إلى داره موفورا .

وفيم يطمع المصريون بعد هذا ؟ وقد صلحت أمور دينهم ، وصلحت أمور دنياهم ، وجرى كل شيء على أحسن حال ، كأنما كنا ملهمين حين كنا نكتب أمس أن ما شجر من خلاف بين المؤيدين والمعارضين لا خطر له ، ولا شر فيه . وإن الذين يكبرون من أمره ، ويعظمون من شأنه ، ويعقدون به الآمال الطوال ، والأمانى العراض يغفلون ويسرفون . فالكثرة

فى مجلس النواب أحرص من أن تغضب القلة ، والقلة فى مجلس النواب أبرع وأمهر من أن تمضى فى الغضب إلى أمد بعيد .

كنا ملهمين حين كتبنا هذا أمس . فقد كان الحصار بين المختصين أقصر من أن يتصل أياما ، وأيسر من أن يحتاج إلى الجهد الطويل لعلاج وإزالة أسبابه ، فما هى إلا أن يكون التمهيد فى جلسات سرية تعقد بين عضو وعضو وبين نائب ووزير ، ثم يكون المؤتمر العام يجتمع فيه المغضبون والمسترضون ، فيعتب أولئك ويعتذر هؤلاء ، ويتفق أولئك وهؤلاء جهرة على ما اتفقوا عليه خفية ، وهو أن تكتب صيغتان ، يتلو إحداها رئيس المجلس معتذرا عن الكثرة ، ويتلو إحداها الأخرى زعيم المعارضة معلنا رضى القلة . وإذا تليت الصيغتان فقد صفا كل شىء ، وعاد الأمر بين المعارضين والمؤيدين إلى مثل ما كان عليه من نصر الوزارة ، وشد أزرها . أولئك ينصرونها بالتأييد ، وهؤلاء ينصرونها بالمعارضة !

وتسألنى بعد ذلك عن ميزانية الأشغال ، كيف أقرت بما فيها من الملايين فى أقل من ساعتين ، وكيف أقرت دون أن يدرس المجلس تفصيلها ؟ وكيف أحييت إلى مجلس الشيوخ ولم يصوت عليها إلا خمسة وثلاثون من النواب ؟

وتسألنى بعد ذلك عن استجواب المستجوبين ، وسؤال السائلين ، وعن خزان جبل الأولياء ، أأأذن ميزانية الدولة باقامته أم لا تأذن ؟ أتحمل خزانة الدولة نفقاته أم تعيا بتحملها ؟ وتسألنى بعد ذلك عن مذكرة وكيل المسالية فى شأن الخزان ، ورأى المستشار المالى فى أمر هذا الخزان ، أيعرفها المجلس أم يجهلها ؟ أظهار أن أم يستتر أن ؟

تسألنى عن هذا كله فلا أجد مشقة ولا عسرا فى الإجابة ، لأن أمر هذا كله يسير ، أيسر جدا مما تظن . ذهب هذا كله لأن الصلح قد تم بين المؤيدين والمعارضين فى هذا المؤتمر الذى عقده الوزراء والنواب ضحى أمس فى الدار الفرعونية . وهم إنما عقدوا مؤتمرهم هذا ، فى ساعتهم هذه ، فى يومهم

هذا ، فى مكانهم هذا لىذهب هذا كله ولىنساه النواب . ولىنساه الناس جميعا فلىس من الخير للوزارة ولا للبرلمان ولا للمصريين أن يعود الحديث فى الخزان والناس جميعا يعلمون أن إقامة هذا الخزان أمر يتجاوز طاقة الدولة فى هذه الأيام . ولىس من الخير لأحد أن تخرج الوزارة فتظهر مذكرة وكيل المالية . ورأى المستشار المالى . فمن الأسرار ما لا يجوز إظهاره بحال من الأجوال ! ولىس من الخير لأحد أن يعاد النظر فى تفصيل ميزانية الأشغال بعد أن لفها رئيس مجلس النواب لنا ، وخطفها خطنا ! فقد يكون فى النظر فى هذا التفصيل ما يثير القال والقليل ! ولىس من الخير لأحد أن يعترف رئيس مجلس النواب على نفسه بمخالفة النظام . وإحالة الميزانية إلى الشيوخ قبل أن يقرأها النواب . لىس شىء من هذا كله خيرا . وإنما الخير كل الخير أن يسدل الستار على ما كان . وأن يعود المجلس إلى سيرته الهادئة المطمئنة . راضيا عن نفسه وعن الوزارة ، مرضيا من نفسه ومن الوزارة !

وأما الذين كانوا يدورون حول هذا الخلاف . وىنتظرون منه الأزمة الخطيرة التى قد تقلب كل شىء رأسا على عقب ، وقد تضطر الوزارة إلى الاستقالة ، وتمهد للعهد الجديد والوزارة المقبلة فقد يتجرعون شيئا من خيبة الأمل . . . ! ولكنهم قد تعودوا هذه المرارة . فما أكثر ما أملوا ، وما أكثر ما خابت الآمال ، وما أكثر ما تمنوا وما أكثر ما كذبت الأمانى ! ذلك أن الآمال التى تعقد بغير الشعب لا خير فيها . والأمانى التى تناط بغير الأمة لا خطر لها .

ولىس من شك فى أن الوزارة القائمة ستستقيل ، ولكن لىس من شك فى أن الذى سىضطرها إلى الاستقالة لىس هو البرلمان ومن فيه من مؤيدين ومعارضين ، ولعل الشىء الوحيد الذى يريح مصر مما تلقى ، ويزيح عنها هم الوزارة القائمة إنما هو الصبر لها ، والثبات لما تسلط على الناس من شر ظاهر ، وكيد خفى . أما الأمة فصابرة ثابتة لا يعرف اليأس ولا الضعف إليها سبيلا . فهل للمتعجلين أن ينظروا إليها ، ويجدوا فيها الأسوة الصالحة والقدوة الحسنة ... ؟

سجين

أما أن (١) مصر جزء من أوربا كما قال الخديو إسماعيل فيما يتحدث عنه الناس فشيء ليس إلى الشك فيه من سبيل . ففى مصر البخار والكهرباء ، وفى مصر البرق والتليفون ، وفى مصر الأوبرا ، وما يكون فى الأوبرا من تمثيل ورقص وغناء . وبين مصر وأوربا طرق برية وبحرية وجوية تقطعها السفن والقطارات والطيارات فى الأوقات القصار والطوال . وفى مصر وزارات على رأسها وزراء ، وفى مصر مجلس للنواب ، ومجلس للشيوخ . وفى مصر مدارس أولية وأخرى ابتدائية ، وفيها مدارس ثانوية ، وأخرى عالية خصوصية ، وفيها جامعة أيضا . وفى مصر مسارح وملاعب ، وفيها أندية وقهوات . وفيها بعد هذا كله ، وقبل هذا كله ، وفوق هذا كله وتحت هذا كله صحف سيارة ، يظهر بعضها فى الصباح وبعضها فى المساء ، وبعضها حين تتوسط الشمس فى السماء . وصحف أسبوعية وأخرى شهرية ، وكلها يحول وكلها يصول ، وكلها ينتقد فيجيد النقد ، وكلها يحمد فيحسن الحمد . وكلها يؤيد ويعارض . فى مصر هذا كله ، وفيها أكثر من هذا كله ، فليس من سبيل إلى الشك إذن أن مصر جزء من أوربا .

ولكنها جزء مادي من أوربا المادية ، أو جزء ظاهر من أوربا الظاهرة ، أو جزء مترف من أوربا المترفة . فأما أن تكون مصر جزءا متحضرا من أوربا المتحضرة ، أو جزءا مثقفا من أوربا المثقفة ، أو جزءا راقيا فى العقل والخلق ، وفى الحس والشعور ، وفى أنحاء التهذيب كلها من أوربا الراقية فى العقل والخلق والحس والشعور ، وفى أنحاء التهذيب فذلك ما لم يقم عليه الدليل بعد . بل ما زال موضوعا للشك . ويظهر أنه سيظل موضوعا للشك

زمنًا طويلاً . وكأن الخديو اسماعيل حين قال كلمته هذه ؛ إنما كان يصور مثله الأعلى أكثر مما كان يصور الحقيقة الواقعة . ولكن بيننا وبين عهد إسماعيل نصف قرن ، وكان يحسن أن يتحقق شيء من هذا المثل الأعلى الذي كان يصوره إسماعيل فتصبح مصر جزءاً متحضراً من أوروبا المثقفة ، مهذباً (١) من أوروبا المهذبة . كان ينبغي ذلك ، ولكن ما ينبغي شيء ، وما هو كائن شيء آخر . والحق أن الواقع الذي لا شك فيه هو أن هذا المثل الأعلى مازال بعيداً كل البعد عن أن يتحقق . وما زالت مصر المتحضرة في حياتها المادية بعيدة جداً عن الحضارة في حياتها المعنوية . وآية ذلك أن الذين يحكم عليهم القضاء بالسجن في جريمة الرأي ، ما زالوا يعاملون في سجنهم كما يعامل الأشقياء الذين يحكم عليهم في جرائم السرقة وقطع الطريق العام . فهم يحبسون في غرفة ضيقة معرضة للهواء المهلك ، لا للهواء المحي . وهم ينامون على الأرض ، وتحول بينهم وبين الأرض وسادة من القش . وهم يشربون في كوز ، وهم

(٢) كان محمد توفيق دياب صاحب صحيفة « الجهاد » ، نشر مقالين فيهما إهانة لأعضاء البرلمان واللجنة البرلمانية التي عهد إليها يبحث مشروع خزان جبل الأولياء ، وقدم للمحاكمة فحكم عليه بالبراءة . إلا أن النيابة استأنفت الحكم أمام محكمة النقض . وقد حكمت محكمة النقض برئاسة عبد العزيز باشا فهمي بحبس توفيق دياب ثلاثة أشهر مع الشغل والنفاذ . وقد جاء في حيثيات الحكم :

« إنه رمى أعضاء البرلمان واللجنة البرلمانية التي نيط بها بحث مشروع جبل الأولياء بأنهم قوم لا ضمير لهم ، ولا عواطف ، وأنهم في سبيل بقاء الوزارة القائمة في الحكم يضحون بمصلحة وطنهم وتراث أجدادهم لكي يعيشوا في ظل تلك الوزارة غير مباليين بما يجنون بفعلتهم على الأجيال المقبلة »

« وهذا هو منحنى المقالين غير محتمل المكابرة . ولا عبرة بالحيل الإنشائية التي جاء بها الكاتب عندما أورد بعض الجمل البيئة الإهانة بصيغة الاستفهام فان السياق يتم على أن ذلك التساؤل لم يكن إلا تساؤل توكيد وتوبيخ . على أن المداورة في الأساليب الإنشائية بفكرة الفرار من حكم القانون لا تنفع فيها للمداور ما دامت الإهانة تراءى للمطلع خلف ستارها ، وتستشعرها الأنفس من خلالها . إنما تلك المداورة مخبئة أخلاقية ، شرها أبلغ من شر المصارحة ؛ فهي أخرى بترتيب حكم القانون . « الشعب في ٥/٣/١٩٣٣ »

لا يستضيئون في الليل ولا يكادون يتروضون في النهار . وهم يعملون كما يعمل غيرهم من المجرمين ، ويعيشون كما يعيش غيرهم من المجرمين ، تعطل ملكاتهم العقلية كلها ، فلا يقرأون ولا يكتبون ، كأنما تعاقب عقولهم لأنها فكرت فتحرم وسائل التفكير ، وكأنما تعاقب قرائنهم لأنها أنتجت فتحرم أسباب الانتاج . وهم يعرضون بهذا كله للضعف . ثم للضييق ، ثم للمرض المبرح والألم الملح ، وليس لهم رغم هذا كله خطر ، وقلما يصيبهم حظ ولو ضئيل من عناية الطبيب ، وفي السجن مع ذلك أطباء ، وللسجن مع ذلك مستشفيات ، ولكن الطبيب لا يزور المريض إلا إذا أشرف من المرض على الطور الخفيف ، ولكن المريض لا ينقل إلى مستشفى السجن إلا حين لا يكون من ذلك بد . وأنت تستطيع أن تفهم هذا وتقدره في لغة السجون .

هذه هي حال الذين (١) يعاقبون في مصر على جرائم الرأى . وأما الذين يعاقبون في أوربا على جرائم السرقة وقطع الطريق فهم ينامون على الأسرة ، وهم يتروضون ، وهم يعاملون معاملات قد لا يظفرون بها في حياتهم خارج السجن . وهم يقرأون الصحف التي تنشأ لهم في بعض البلاد .

(٢) توجه وفد من الصحفيين إلى وزير الحقانية لمخاطبته بشأن معاملة توفيق دياب في السجن فصرح لهم بقوله : يمكنكم أن تطمثوا على الأستاذ دياب ، فقد زاره أمس مدير مصلحة السجون وعرف منه أنه لا يشكو الآن من شيء ، إذ صرفوا له مرتبة ووسادة ، وزادوا البطانيات التي يستعملها أربعا من الصوف الخالص . وهو في غرفة متسعة ، أي ليست زنزانة . ويتناول الطعام الذي يتفق مع صحته وهو غير طعام السجن وغير طعام المستشفى ، كما يعطى بعض أنواع الفاكهة ، ويعطى له اللبن والشوربة وبعض الخضر . وقال الوزير : اطمثوا على الأستاذ دياب وطمثوا زملاءكم « « الصحف اليومية في ٦ - ٣ - ١٩٣٣ »

فأين هذا من معاملة المواطنين في عهد جمال عبد الناصر . لم يتعرض أحد في عهد إسماعيل صدق لدخول السجن الحربي والتعذيب على يد أحمد أنور ، وحمزة البسيوني وشمس بدران وغيرهم .

أما الذين يعاقبون على جرائم الرأى فى أوربا فهم يقرأون ويفكرون وينتجون ويلقون فى حياتهم المادية من العناية كل ما يحتاج إليه الرجل المترف من أهل الطبقات الوسطى . ذلك أن أوربا قد أصبحت لا تفهم السجن على أنه عذاب ، وإنما تفهمه على أنه كف للمجرم عن الماضى فى جريمته وقتا طويلا أو قصيرا .

أما هنا فالسجن عذاب ، والسجن انتقام ، والسجن نوع من أنواع الأخذ بالتأثر ، والسجن فن من فنون التأديب الذى لا بأس من أن يشوبه العنف من حين إلى حين .

أبعد هذا نستطيع أن نقول إن مصر جزء مهذب من أوربا المهذبة ؟ لا ، ليس إلى مثل هذا القول من سبيل . إن الذين يعيرون الحضارة الأوربية ويزدرونها خليقون أن يفكروا ويظيلوا التفكير قبل أن يتورطوا فى هذا العيب والازدراء . فمصر لم تعرف من الحضارة الأوربية إلى الآن إلا شرورها وآثامها من جهة ، وإلا مظاهرها وأشكالها من جهة أخرى . فأما خيراتها ومنافعها ، فأما حقائقها وجواهرها فمصر تجهلها جهلا يوشك أن يكون تاما .

هذا صديقنا توفيق دياب قد سجن فى جريمة من جرائم الرأى التى يعاقب عليها القانون اليوم ، وقد يثيب عليها غدا ، ولكنه يعامل فى سجنه كما رأيت معاملة غيره من المجرمين ، لا يرمى حق لثقافته ، ولا لعقله ، ولا لمكانته ، ولا لضعفه ومرضه . وإنما دفع به فى معمل العذاب ، هذا الذى يسمونه السجن ، فيجب أن يحتمل فى هذا المعمل ما أعد له من ألوان العذاب .

وأجمل ما فى الأمر وأبدعه ، وأحسن ما فى الأمر وأروع أنه صديقنا توفيق دياب عضو فى أسرة يقال لها أسرة الصحافة . وإن هذه الأسرة الصحافية ترى نفسها كبيرة عظيمة الخطر . وتعطى نفسها الحق فى قيادة

الرأى العام ، وتهذيب العقول والأخلاق ، وترقية الحس والشعور ، وترى لنفسها الزعامة فى الشرق العربى كله ، ولا تتحرج أن تدعو الصحفيين الأوربيين إلى أن يعقدوا مؤتمرهم فى مصر ، ولا تتحرج من أن ترى أنها مظهر من مظاهر الرقى المصرى ، ودليل على أن مصر قد أصبحت جزءا من أوربا !! ثم هى بعد ذلك تقبل أن يعامل أحد أعضائها فى السجن معاملة اللصوص وقطاع الطريق العام .

سيقال لئها لم تقبل ، فقد اجتمعت واجتمعت ، وقد خطبت وكتبت ، وقد قالت فأطالت ، وقد سعت ودعت ، ولكنها على هذا كله تقبل أن يعامل عضو من أعضائها فى السجن معاملة اللصوص وقطاع الطريق العام ! لأن الاجتماع والخطابة ، والكتابة والسعى والدعاء ، كل ذلك أهون ما ينبغى أن تأتبه الصحف للدفاع عن كرامتها والنضال عن حقوقها . هو لا يكلفها شيئا ، وأى مشقة فى أن يلتقى الزملاء ويخطب الخطباء فيصفق لهم ويكتب الكتاب فيثنى عليهم ؟ ويسعى الساعون فلا يحفل بهم ؟ ويدعو الداعون فلا يستجاب لهم ؟ لا مشقة فى ذلك ولا غرم . ولعل فى ذلك لذة ، ولعل فى ذلك غما أيضا . ومن ذا الذى ينكر أن الصحفيين يجدون لذة حين يلتقى بعضهم بعضا ، وحين يصفق بعضهم لبعض ، وحين يثنى بعضهم على بعض !! فمن ذا الذى يستطيع أن ينكر أن الصحفيين قد غنموا من قصة الأستاذ دياب فأنشأوا لأنفسهم ناديا يختلفون إليه ، ويسمرون فيه ، ولم يكدها هذا النادى ينشأ حتى سعت إليه بعض الهدايا !

كان هذا كله ، ولكن الأستاذ توفيق دياب يعامل فى سجنه معاملة المجرمين العاديين حتى مرض - أستغفر الله - حتى عاوده المرض فأضناه وألح عليه .

وعرف الصحفيون هذا فأسفوا ، وأنكروا ورجوا ، وثق بأن أحدا منهم لن يعدو الأسف والإنكار والرجاء ، لا تكلف مشقة ولا تفرض

تضحية ، ولا تحمل ضراما . ومادام الأمر كلاما أو ما يشبه الكلام ،
فنحن قادرون عليه ، بل راغبون فيه . فأما أن تطلب إلى الصحف عملا
يشعر الحكومة والشعب بأنها غاضبة حقاً ، متألمة حقاً . فأما أن تطلب إلى
الصحف الاحتجاب يوما أو أياما ، فذلك منك غلو وإسراف ، لن يجد من
الصحف إلا إعراضا وازورارا . ومع ذلك فهذا أيسر ما كان يجب على
الصحف أن تعمل لو أنها تقدر التضامن حقا .

يجب أن يحتمل صديقنا دياب آلامه وحده ، لأن إخوانه أحب لأنفسهم
من أن يشاركوه في هذه الآلام ! ولكن يجب أن يعلم الذين يسعدون اليوم
وغدا بعيد الفصح وشم النسيم ، يجب أن يعلم هؤلاء الذين يغدون ويروحون
بالتحية والتهنئة ، يجب أن يعلم الذين يذوقون غدا نعمة الحرية واسعة سعة
مصر ، منطلقة انطلاق الهواء ، لذينة لذة النسيم ، أن في السجن مصريا قضى
عليه في جريمة من جرائم الرأي ، فأذعن كما يجب لحكم القضاء ، ولكنه
طريح على وسادة من القش ، ليس بينها وبين الأرض حاجز ، تمضه الآلام
المضنية ، وتنهكه العلة القاسية . ولا يفكر أحد من القادرين على أن يعينوه
ويرفخوا عليه ، في أن يجعلوه سجيناً كغيره من الذين يسجنون في جرائم
الرأي .

يجب أن يفكر الذين سيشمون النسيم غدا أن صديقنا توفيق دياب قد
قبل ألا يشم النسيم ، ولكن من حقه أن يكتفى منه بهذا الرضى ، وألا يذوق
مع هذا الحرمان مرارة الألم والعذاب .

(٣٠)

تبعة

زعموا أن المقاومة (١) في مصر للسلطان الأجنبي قد أصابها الضعف ،
ومشى فيها الفتور ، ودب إليها نوع من الحمود حال بينها وبين أن تنتج في

(١) ١٨ - ٤ - ١٩٣٣ عدد ٢٣٦٧

تحقيق الآمال القومية ما كان ينتظر منها ، فلم تتقدم مصر في سبيل استقلالها كثيرا منذ كانت الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ ، بل مازالت الامتيازات قائمة لا تستطيع مصر أن تلغيها إلا أن تتولى إنجلترا حماية المصالح الأجنبية ، وإلغاء الامتيازات بنفسها ، لأن مصر أعجز من أن تثبت لأوروبا وللانجليز ، وأقصر باعا من أن تقدم على إلغاء الامتيازات بنفسها كما فعل الفرس والترك ... !

وقد أخذ بعض أصدقائنا يعلل ضعف المقاومة هذا ، ويرده إلى مصادره ، ويبحث عن الذين يحتملون تبعته ، فاهتدى إلى العلة الصحيحة لهذا الضعف ، ووضع يده على الداء الذي كان يجب أن يستأصل منذ ظهرت أعراضه ، والذي أصبح استئصاله الآن ضرورة وطنية لا مندوحة عنها إذا كان قادة الرأي في هذا البلد — كما نعتقد — لا يزالون يؤمنون بأن الاستقلال حق لمصر ، وبأن الواجب عليهم أن ينتهوا بها إليه .

وهذا الداء الذي انتهى إليه صديقنا ، ووضع يده عليه ، وهو تشعب الأحزاب في غير داع إلى تشعب الأحزاب . فالمصريون جميعا يطلبون الاستقلال ، ويسعون إليه ويلحون فيه ، ويتمنون لو أتيحت لهم الفرص التي تمكنهم من تحقيقه ، بل من التضحية الكبرى في سبيل تحقيقه . وقد أقاموا على ذلك أدلة واضحة لا تقبل الشك يوم نهضوا سنة ١٩١٩ يطالبون بالاستقلال ويثورون بالحماية حتى ألغوها .

المصريون جميعا إذن يطالبون بالاستقلال ويلحون فيه ، لا تختلف أحزابهم في ذلك ، ولم ينشأ من أسباب الخلاف ما يدعو إلى أن تشعب الأحزاب وتفرق ، وإنما هي — كما يقول صديقنا — الأهواء والأمزجة والمنافع تنشئ الأحزاب وتنقل الأشخاص فيما بينها . وليس في ذلك شك ولا ريب فالحكم وحده هو الذي أنشأ الأحزاب في مصر بعد أن كانت كلمة المصريين مجمعة على المطالبة بالاستقلال والإلحاح فيه ، والتضحية في سبيله .

وتستطيع أن تتبع تاريخ الأحزاب (١) التي أنشئت في مصر بعد أن تألف الوفد للمطالبة بالاستقلال وأيدته الأمة المصرية كلها ، لم يشذ منها شاذ . ولم يخرج عليها خارج فسرى أن الأمل في الوصول إلى الحكم والسيطرة على الأمور . وتحقيق المنافع لبعض الجماعات وبعض الأفراد ، هو الذي ألفت هذه الأحزاب واحدا إثر واحد ، وهو الذي جعل في مصر هيئات سياسية مختلفة تخرب فيما بينها وتقتل ويسىء بعضها إلى بعض ، ويغري بعضها ببعض ، ويكيد بعضها لبعض . وهي كلها تسعى إلى تحقيق غرض واحد . هو الاستقلال .

وهذه الأحزاب وإن تشعبت ليست كثيرة ، وليس تاريخها بعيدا يحتاج إلى الجهد والتعب في درسه وتحقيقه . فأنت تستطيع أن تحصى ما نشأ منها بعد الحركة الوطنية ، وتستقصي الأسباب التي دعت إلى نشوئه ، وتستقصي كذلك الأسباب التي دعت إلى تطوره ، وتستقصي كذلك الأسباب التي دفعته حيناً إلى الشمال حتى اتصل بالوفد وكاد يندمج فيه ، ودفعته حيناً إلى اليمين حتى انفصل عن الوفد ونصب له الحرب . تستطيع أن تستقصي هذا كله فلن تحتاج إلى مشقة ولا إلى جهد لتنتهي بهذا

(٢) عرفت الأحزاب في مصر قبل سنة ١٩١٩ ، فظهر الحزب الوطنى ، وحزب الأمة ، وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية . ثم إن الحياة النيابية لا يمكن أن تتحقق إلا مع وجود الأحزاب السياسية .

إن الذين اختلفوا مع سعد زغلول كانوا يريدون النساھل مع الانجليز وقد سبق لهم أن قبلوا الحماية ، وتعاونوا مع سلطات الاحتلال في خلال الحرب العالمية الأولى . كما عارضوا مصطفى كامل في معاداة الانجليز وكان شعارهم « سياسة المسالمة ، لا المعاندة » وهم أعضاء حزب الأمة الذى تغير اسمه إلى حزب « الأحرار الدستوريين » . ثم أنشأ الملك فراد حزب الاتحاد ليتخذة ستارا يحكم الأمة من وراءه وليسهل عليه اقتناء الأتبان الواسعة والأموال الطائلة . ثم أنشأ اسماعيل صدقى حزب الشعب ، وممكن لسلطة الملك . أما الأمة المصرية فلم تعترف بهذه الأحزاب ، وظلت متمسكة بحزب الوفد إلى سنة ١٩٥٢ حيث صدر قرار بحل الأحزاب ، لأن تحويل الأمة عن حزب الوفد كان أمرا مستحيلا .

الاستقصاء إلى شيء واحد ، هو أن الطموح إلى الحكم قد أنشأ الأحزاب ،
وأن الطموح إلى الحكم قد ترجح بالأحزاب فمال بها إلى اليمين مرة ،
وإلى الشمال مرة أخرى .

ومادام الأمر كذلك فلا بد للأشخاص أن يتنقلوا بين الأحزاب ، منهم
من تغريه المنفعة فيميل من شمال إلى يمين ، ومنهم من يضيق صدره
بالمداورات والمناورات وتقديم المنافع الخاصة على المنافع العامة واتخاذ
الشعب وسيلة إلى الحكم حين يجب أن يتخذ الحكم وسيلة إلى تحرير الشعب
فيميل من يمين إلى شمال .

نعم ، سبب واحد أنشأ الأحزاب هو الحكم ، وسبب واحد دعا إلى
تطور الأحزاب هو الحكم ، وسبب واحد رغب في الائتلاف ورغب عن
الائتلاف هو الحكم . فما أجدر الأحزاب التي نشأت بعد الحركة الوطنية
أن تعاود تاريخها الحديث في وقت واحد متذكرة فإن الذكرى تنفع
أحيانا . وما أجدر الأحزاب التي نشأت بعد الحركة الوطنية أن تعود إلى
الفكرة الصالحة التي يجب أن تقوم عليها الأحزاب ، وهي أن الحكم وسيلة
لا غاية ، وأن سعادة الشعب غاية لا وسيلة ، وأن جهود الأفراد والجماعات
يجب أن تخلص لتحرير الشعب إن كان مستذلا ، وتعليم الشعب إن كان
جاهلا ، وإغناء الشعب إن كان فقيراً . وإن من الإثم أن يتخذ خداع الشعب
وتضليله وسيلة إلى الاستمتاع بالحكم والاستئثار بالثروة والجاه والسلطان .

لقد لاحظ صديقنا الذي استكشف هذا الداء ، ووضع يده عليه أنه
الإنجليز اضطروا أن يقمعوا الحركة الوطنية بقوتهم الانجليزية بعد أن نشأ
الوفد ، وقبل أن تنشأ الأحزاب . فلما نشأت الأحزاب استغنى الإنجليز عن
قوتهم واستعانوا بالمصريين على إذلال المصريين ، ووجدوا أحزابا تصل
إلى الحكم عن طريق الإنجليز حتى إذا اطمأنت في المناصب ، سخرت جنود
الدولة وأموال الدولة لإضعاف المقاومة المصرية ، والتمكين لسلطان الإنجليز ،
وهذا — مع الأسف الشديد — حق لا شك فيه .

ولكن استكشاف الحق شيء ، والانتفاع بهذا الاستكشاف شيء آخر !
وإذا كان من الخير أن تعرف الداء ، فإن من الواجب أن تحسمه وتشفى منه
المريض . وأى حسم لهذا الداء الذى استكشفه صديقنا ووضع يده عليه
أحسن من أن تعود وحدة الأمة إلى ما كانت عليه قبل نشأة الأحزاب ،
ومن أن تجتمع كلمة الأمة كما كانت مجتمعة قبل نشأة الأحزاب ، ومن أن
تنحل هذه الأحزاب ويعود أفرادها إلى العمل للشعب ومع الشعب ، لأفضل
لأحد منهم على صاحبه إلا بالكفاية وصدق الجهاد ، وحسن البلاء فى سبيل
الاستقلال .

هذا هو الدواء بعد أن استكشف الداء ، ولكن الانتفاع بهذا الدواء
مع أنه واجب وطنى لا سبيل إليه فيما يظهر ، لأن الانجليز ما زالوا يلوحون
بالحكم ، ولأن نفوسا ما زالت تهفو إلى الحكم . وما دام الانجليز يلوحون ،
وما دامت النفوس تهفو وتصبو ، فقد يكون انحلال الأحزاب مستحيلا ،
بل قد يكون ائتلاف الأحزاب على ما يحقق المنفعة الوطنية الحالصة عسيرا .
وإذن فلا بد من أن تمتحن الأمة فى أبنائها كما تمتحن فى حياتها كلها . ولا بد
من أن تنهض الأمة بمجاهدين ، فتجاهد الانجليز من جهة ، وتجاهد أصدقاء
الانجليز من أبنائها من جهة أخرى !

ولا بد من أن تصبر للإنجليز حتى يعجزهم صبرها ، ولا بد من أن
تحتمل المحنة فى أبنائها حتى ينقطع أمل هؤلاء الأبناء فى الحكم أو تردهم
ضمايرهم الحية إلى الصفوف . وإذا كان هناك واجب يحسن أن تنهض به
الشعوب فى شجاعة وكرامة لتصل إلى الحياة الكريمة المستقلة ، فهو ألا تخدع
هذه الشعوب نفسها عن نفسها ، ولا تعتمد الجهل بمواطن الضعف فيها .
وإذن فالواجب على الشعب المصرى إن كان يريد أن يعيش حرا كريما أن
يعترف أمام نفسه بأن فيه موطنا للضعف ، هى هذه الأحزاب التى نشأت
بعد الحركة الوطنية ، والتى تيامن حيناً ، وتياسر حيناً آخر ، وتأتى أن تسير
فى طريق مستقيمة ، لأن الطريق المستقيمة طويلة شاقة ، لا توصل إلى الحكم
إلا بعد جهد ثقيل وعناء شديد .

لتكن تبعة ذلك بعد هذا على من تكون ، لتكن على المصريين ، لتكن على الانجليز ، لتكن على فريق من المصريين دون فريق ، فان الذى يعنى من هذا كله هو أن تعرف الأمة موضع الضعف فيها فتجد فى حقها ، وتشتد فى المحافظة على وحدتها ، وتوسع صدرها للذين يريدون أن يعودوا إلى هذه الوحدة ، وتتذكر فى رحمة وإشفاق للذين يأبون إلا أن يتخلفوا عن الصفوف . !

(٣١)

قمر

هو رئيس وزرائنا أتم الله له الشفاء ، وأسبغ الله عليه العافية . وقد طلع فى سماء مجلس النواب فبهر الأبصار ، وخلق العقول ، وهز القلوب فى الصدور ، وأطلق لسان أحد النواب المحترمين بهذه الجملة الشعبية الظريفة « طلع القمر » .

ولكن القمر يطلع فى أول الشهر ، ويطلع فى أثنائه ، ويطلع فى آخره . وله فى مطالعه المختلفة هذه أسماء مختلفة ، منها ما يبعث السرور والبهجة ، ومنها ما يبعث الأمل والرجاء ، ومنها ما يبعث فى النفس شعورا هادئا شاحبا ، لا بهجة فيه ولا سرور . ولا أمل فيه ولا رجاء . فالهلال يبعث فى النفوس الأمل لأنه سيصير بدرا كاملا كما قال أبو تمام . والبدر يبعث فى النفوس بهجة وسرورا وثقة ، لأنه يصور القمر فى أجمل صورته وأبهأها ، وأخيلها للعقول والأبصار .

ما القمر فلا يبعث فى النفوس شيئا خاصا ، وإنما هو شعور هادىء قلما يتجاوز هذا الجمال العام . فى أى طور طلع قرر رئيس الوزراء أمس فى مجلس النواب ؟ لم يكن هلالا من غير شك ! فقد كان هلالا منذ زمن بعيد حين ألف الوزارة ونهض بأعباء الحكم ! ولم يكن بدرا من

غير شك ، فقد كان بدرا منذ زمن بعيد حين استحكم له الأمر ، واجتمعت له أسباب القوة ، فسيطر على مصر غير منازع ولا مدافع ، وأجرى أمورها كما أحب بيد قوية حازمة ، لا تعرف الضعف ، ولا يجد الخور إليها سبيلا . وأطلق لسانه بألوان الخطابة في السياسة حيناً ، وفي الاقتصاد أحياناً ، بالعربية حيناً ، وبالفرنسية أحياناً ، في القاهرة حيناً وفي الأقاليم أحياناً ، بل في مصر حيناً : وفي أوروبا أحياناً .

كان في ذلك الوقت بدرا كاملاً ! كان قوى البأس ، شديد المراس ، حديد الشكيمة . وكان صحيح الجسم ، موفور النشاط . أما الآن فقد هان بأسه ، ولان مراسه ، وضعفت شكيمته ، وتفرقت عليه الأمور فهو لا يضبطها ، وندت عليه الأعمال فهو لا يستقل بتسييرها وتدبيرها ، وأثر فيه المرض فهو لا ينحطب فيطيل ، وإنما يشكر فيوجز . وهو لا يزور فيقيم ، وإنما يلم ثم ينصرف .

لم يكن هلالاً ، ولم يكن بدرا ، وإنما كان قمرًا في آخر الشهر على أنه لم يكن قمرًا فحسب وإنما كان عرفاً وطيباً أيضاً ، لاح نورة في مجلس النواب ، وكان المجلس مختنقاً بريح (١) البصل كما قال بعض الخطباء !! فتبددت هذه الريح ، وتردد في الجو عطر خفيف ظريف ، أنعش نفوساً ، وأحيا آمالاً . وأقر السلام في نصابه بين

(١) كان المجلس يناقش مشكلة تراكم محصول البصل وإضراب المصدريين عن شرائه . وقد عقد اجتماع في الاسكندرية حضره أحمد عبد الوهاب باشا وكيل وزارة المالية وكبار التجار ، فاقترح أحد الحاضرين أن يعدم جزء من البصل الموجود في الميناء حتى يخف الضغط على السوق كما فعلت حكومة البرازيل فرد وكيل الوزارة قائلاً إن هذا الحل ليس من الحلول العملية بدليل أن حكومة البرازيل لم تكرر هذا العمل بعد المرة الأولى . وقد بيع جانب منه بسعر يتراوح بين عشرين وأربعين قرشاً للقنطار . وأخيراً قررت الحكومة شراء البصل لحسابها وتصديره إلى الخارج لبيع بمعرفة مندوبي الحكومة ، وتحملت هي مسئولية ذلك . « كوكب الشرق » في ١٩٣٣/٣/٣٠ .

الفريقين المختصين ، بين المؤيدين والمعارضين . وكان هذا السلام قد استقر من قبل في ذلك المؤتمر الذي انعقد صباح الجمعة ، والذي مهد له بالاجتماعات الخاصة والمقابلات المتكررة ، والذي انتهى إلى صيغتين كتبنا ثم قرئتا ثم أقرتا ، ثم تم الاتفاق على أن يتلو إحداها رئيس المجلس ويتلو الأخرى رئيس المعارضين . وقد أنفذ الاتفاق في أمانة لا غبار عليها . واتخذ تنفيذه مظاهر تمثيلية لا تخلو من جمال ، ولا تميزها اللباقة والرشاقة .

فأما في الفصل الأول من القصة فيجتمع مجلس النواب وتفتح جلسته ، ويأخذ في أعماله كأن لم يكن شيء ، ولكن النظارة لا يشكون في أن شيئا قد كان ، لأن هناك مجالس خالية ولم تكن عاداتها أن تخلو ، وكراسي تنتظر أصحابها ولم يكن من شأنها أن تطيل الانتظار . فأنت إذا تردد بصرك بين المجلس وهو يمضي في أعماله أو يظهر المضي فيها ، وهذه الكراسي الفارغة ، لا تشك في أن شيئا ذا بال قد كان ، وفي أن أمرا ذا خطر سيكون . وفيما أنت تفكر فيما كان وتترقب ما سيكون يدخل المعارضون وعلى رأسهم زعيمهم فتشخص الأبصار ، وتشرئب الأعناق ، ويتقدم زعيم المعارضين إلى رئيس المعتدلين ، فيكون حديث لا يسمعه أحد ، ولكن كل إنسان يذهب في تقديره وتفسيره المذاهب . ثم يعود زعيم (١)

(١) زعيم المعارضين هو حافظ رمضان رئيس الحزب الوطني ومعه عبد الحميد سعيد وعبد العزيز الصوفاني . وكانت المعارضة تقدمت باستجواب إلى وزير الأشغال محمد شفيق باشا بخصوص خزان جبل الأولياء وما هي الحاجة الملحة لإنشائه . فذكر الوزير أن دولة رئيس الوزراء سوف يرد على هذا الاستجواب بنفسه ، وطلب مهلة شهر . والذي حدث أن رئيس الوزراء سقط مريضا ، وأرادت الحكومة أن تمرر ميزانية وزارة الأشغال مع إهمال الاستجواب ، فانسحبت المعارضة احتجاجا على ذلك ومرت الميزانية بعد أن وافق عليها النواب جملة واحدة دون مناقشة تفصيلاتها ثم عقد مؤتمر بين المعارضة وبعض الوزراء وانتهى الأمر بإجراء صلح بين الطرفين . صافي يالبن .

المعارضة إلى مكانه ، ويتلو رئيس المجلس الصيغة التي كتبت فإذا هو يعتذر فيبسط العذر ، ويؤكد حبه لحرية الرأي ولحرية الكلام . ثم إذا أتم هذه الصيغة نهض زعيم الغاضبين فتلا صيغة الرضى ، وإذا هو يسجل ويشكر ويتمنى ! ثم يجلس ويمضى المجلس في أعماله كأن لم يكن شيء ! وكأن لم يحدث خلاف .

وتفكر أنت في العواطف التي ثارت في نفوس الغاضبين والمعتذرين ، والعواطف التي هاجت في قلوب المعارضين والمؤيدين ، وهم يسمعون اعتذار الرئيس واسترضاءه ، وشكر الزعيم ورضاءه ، وتفكر في العواطف والعواصف فلا يهتدى تفكيرك إلى شيء ، وتحقق النظر في الوجوه ملتصقا للعواطف ، والعواصف فلا ترى عاطفة : ولا تنظر بعاصفة ، وإنما هو هدوء شامل قبل الاعتذار والرضى ، وهدوء شامل بعد الاعتذار والرضى . كان الجو مليدا بالغيوم كما يقولون ، ويقصف فيه الرعد ، ويخطف فيه البرق ، ولكنك تعلم أن الجو يصفو بعد الزوبعة . وقد كانت الزوبعة يوم الأربعاء فبدأ الجو يصفو يوم الخميس ، وانجلى صباح الجمعة ، وتم صفوه وانجلاؤه بعد ذلك ، وعاد إلى المجلس هدوءه الشامل وسكونه الكامل ، وإذا هو يتحدث في بنك التسليف العقاري وفي قانون البصل .

ثم يكون الفصل الثاني ، وفيه يشرق القمر فيبعث في المجلس ضروءا هادئا فاترا مريحا ، ولكنه باعث للنشاط ، موقظ للهمم على كل حال . وإذا القوم يقفون إجلالا للقمر ، وإذا القوم يهتفون ترحيبا بالقمر . وإذا القوم يصفقون إكبارا للقمر ، وإذا أشد القوم نشاطا وأعظمهم قوة يطير في الجو ، ويصعد في السماء حتى يبلغ القمر فيقبل راحته !! وأي غرابة في أن يكون للقمر راحة ينال عليها محب القمر باللثم والتقبيل ؟ ثم يتكلم رئيس المجلس فيرفع التحية إلى القمر ، ويتكلم القمر فيرد التحية على محبيه ، ثم يغيب القمر فتتبعه القلوب والنفوس ، وتمضى في أثره الأمانى والآمال .

ويعود كل شيء إلى الهدوء والاطمئنان ، وقد نجا المجلس من خصومة
المختصمين ، واعتذار المعتذرين ، ورضى الراضين . وريح البصل وانغمس
في وزارة الزراعة يدرس ميزانيتها في نفس العجلة التي درس فيها ميزانية
وزارة الأشغال مساء الأربعاء !

كذلك تجرى أمورنا في مصر ، اضطراب يعقبه هدوء ، وغضب يعقبه
رضى ، وقر يطلع ثم يغيب ، ونظارة يرون فيتسمون ، ويسمعون فيضحكون
حتى إذا أصبح الصباح وتناول الناس الأهرام ، نظروا فإذا الجد كل
الجد في لندرة ، وإذا سياسة مصر تدبر في وزارة الخارجية البريطانية .
أيعود المندوب السامي فيظل القمر مشرقا في السماء ؟ أم ينقل المندوب
السامي فيهوى قر ويصعد مكانه قر آخر يبدو هلالا ، والله يعلم أيتم دورته
أم يهوى قبل أن يصير بدرا !

(٣٢)

توسع

بين يدي مجلس النواب (١) في هذه الأيام مشروع قانون تتعجل
الحكومة إصداره كما تعجلت إصدار قوانين الجامعة منذ حين . ومن الحق
على المصريين الذين يفكرون في المستقبل السياسي لهذا البلد تفكيراً نزيهاً
صادقاً ، خالصاً من كل شائبة أن يقفوا عند هذا القانون وقفة فيها شيء
من الروية والتنبه لما يشتمل عليه من نذير . فهو ينذر بخطر شديد لا يفتن
له الناس عند النظرة الأولى ، ولكنهم لا يكادون يطيلون النظر فيه حتى
يشعروا بأن حرباً عنيفة تهباً لمستقبل الديمقراطية في مصر ... !

ومهما أقل في ذلك فلن أصل إلى المبالغة ، ولن أتورط في الغلو ، فان
بعد النظر وقصره لا يمان تنظيم الصلات بيننا وبين الإنجليز فحسب ،

ولا يمسان حل المشكلة السياسية الظاهرة من إنزال الوزارة القائمة عن مناصب الحكم ، وإقامة وزارة حزبية أو قومية مكانها فحسب ، بل يجب أن يمس شيئا آخر ، هو قيام حياتنا السياسية الداخلية والخارجية ، وهو إقامة الديمقراطية في مصر على أساس ثابت متين . وأنا واثق بأنك ستدهش حين أسمى لك هذا القانون ، لأنك لم تتعود أن تحفل بمثله . ولكني أرجو ألا يصرفك الدهش عن التفكير ، وأن تنتهي معي إلى الإيمان بأن هذا القانون كيد يدبر للديمقراطية المصرية ، والناس عنه غافلون .

هذا القانون هو قانون التخصص في الأزهر . أسمعت هذا اللفظ ! إنه يسير ، تراه كل يوم في الصحف فلا تقف عنده . وقد يتحدث الناس به من حولك فلا تلتقي إليه سمعا ولا بالا . ولكنه مع ذلك خليك أن تقف عنده ، وخليق أن تلتقي إليه سمعك وبالك . وخليق أن تهيا لاتقاء ما فيه من شر . ولست أريد اليوم أن أتحدث عنه إلا من ناحية واحدة ، هي التي تعينني ، وهي التي تعنيك حين تفكر في المستقبل السياسي لهذا البلد الحزين .

يشتمل هذا القانون على حكم ييسط سلطان الأزهر بسطا منكرا على التعليم في مصر . وإذا سيطر الأزهر على التعليم فقد سيطر على كل شيء . ولم لا ؟ وهو يسيطر على تنشئة الأطفال وتثقيف الشباب .

هذا الحكم هو الذي ينشئ في الأزهر قسما للتخصص في المهنة ، وأنت تنكر لفظ المهنة هذا كما أنكراه أنا ، وتراه مبتدلا سقيا ، ولكن معناه ليس مبتدلا ولا سقيا ، فهو يدل على فن التعليم .

ينشئ هذا القانون إذن في الأزهر قسما يتخصص فيه الأزهريون في فن التعليم ، حتى إذا أتموا تخصصهم هذا خرجوا منه فانتشروا في أقطار مصر ، يعلمون في المدارس المصرية على اختلافها ، وليس بهذا بأس إذا حسن الدرس في الأزهر ، وضمن لنا قسم التخصص تخريج المعلمين

الأكفاء . ليس بهذا بأس على عقول الأطفال والشبان وأخلاقهم ، فالأزهر إذا صلح كان كغيره من المدارس مصدرا للخير ، لا خوف منه ولا بأس به . ولكنك تعلم أن للأزهر نظاما أقل ما يوصف به أنه بدعة في الإسلام ، وهو هذا النظام الذى يجعل لهيئة كبار العلماء سلطانا واسعا يشل سلطان الحكومة أيضا ، فكل من تخرج من الأزهر خاضع لسلطان هذه الهيئة ، تحاكمه إذا شذ في سيرته شذوذا ما ، وتحاكمه بنوع خاص حين يشذ في التفكير ، وحين يخرج فيما يكتب أو ينشئ عن مألوف العلماء الأزهريين . وهى إذا حاكمته جازلها أن تخرجه من زمرة العلماء الأزهريين ، وهى إذا أخرجته من هذه الزمرة حرمت طائفة من حقوقه المدنية ، وأوجبت على الحكومة أن تفصله من أى عمل فيها ، وحرمت على الحكومة أن تكل إليه أى عمل من أعمال الدولة . وقد ظهرت آثار هذا النظام منذ سنين حين حوكم الأستاذ على عبد الرازق أمام هذه الهيئة فأخرجته من زمرة العلماء ، وأذعنت الحكومة المصرية يومئذ لحكم هذه الهيئة فعزلته من منصب القضاء .

ومعنى هذا أن الأساتذة (١) الأزهريين الذين سينبثون في مدارس

(١) هذا المقال من تخريف طه حسين ، فكثيرا ما يخونه التوفيق فيأتى بالمضحكات . فهؤلاء المتخصصون في اللغة العربية يدرسون مناهج مقررة على تلاميذ الابتدائى والثانوى . فما هو الشذوذ الذى يتحدث عنه الكاتب ، والذى يستوجب العتوبة التى ذكرها . حقا لقد صدق الشاعر حين قال :

سبحان من قسم العقول فلا عتاب ولا ملامه

وقد مر نصف قرن على هذا الكلام ولم يقع الخطر الذى نبه عليه الكاتب ودعانا لإعمال الروية ، وأنذرنا بقيام حرب عنيفة تهدد الديمقراطية في مصر من جراء إنشاء كلية للغة العربية بالأزهر .

وقدر لطله حسين أن يعيش حتى يرى الأزهر يتحول إلى جامعة ذات كليات لا تختلف عن غيرها من الجامعات .

الحكومة على اختلاف درجاتها وأنواع التعليم فيها سيخضعون لهذه السلطة القضائية الغريبة ، فيفكرون بمقدار ، وينتجون بحساب ، ويسرون على الشوك . فإذا شذ أحدهم عما يجب للأزهر - استغفر الله - بل عما يراد لهيئة كبار العلماء أن تحب ، أقول إذا شذ أحد من هؤلاء الأساتذة حوكم أمام هذه الهيئة ! فإذا قضت بإخراجه من زمرة العلماء الأزهريين وجب على وزارة المعارف أن تخرجه من زمرة المعلمين ، وأن تحول بينه وبين التعليم . ووجب على الحكومة كلها بعد ذلك ألا تكلفه عملا رسميا ما .

سيخضع هؤلاء الأساتذة لهذه الهيئة ، وستخضع معهم وزارة المعارف لهذه الهيئة ، وستنزل الحكومة عن شيء من سيادتها لهذه الهيئة ، وسيصبح الوزراء منفردين في مكاتبهم ومجتمعين في مجلسهم أداة لهذه الهيئة تصرفهم كما تريد ، أو كما يراد لها . هم كذلك الآن بالقياس إلى القضاة الشرعيين وإلى الموظفين القليلين من رجال الأزهر في مصالح الدولة .

فسينبسط هذا السلطان بعد أعوام فيتناول التعليم كله . أرأيت إلى هذا الخطر الذي يضع وزارة المعارف تحت سلطان شيخ الأزهر ؟ أفكرت فيما قد يكون لهذا من تأثير ؟ لا أقول في مستقبل التعليم ، بل أقول في مستقبل السيادة التي يجب أن تكون لحكومة الدولة ، بل أقول في مستقبل الديمقراطية المصرية كلها ...

أنا واثق كل الثقة بأن الديمقراطية متصورة آخر الأمر ، بل إنها ستشتمل الأزهر نفسه . فهما تبلغ قوة المحافظين والمسرفين في المحافظة ، فلن تغير طبيعة الأشياء . وطبيعة الأشياء تقضى أن يأتى النظام الديمقراطي على كل شيء ، ولكنك توافقني فيما أظن على أن الذين يشرعون هذا القانون يهملون طبيعة الأشياء ، ويخلقون لمصر مصاعب ومشاكل لا فائدة في خلقها . وقد أثبت كل شيء أنها كانت دائما مصدر الشر والفساد .

لقد كان الأزهر حريصا على إنشاء قسم التخصص في التعليم منذ زمن بعيد ، وكان ظاهر هذا الحرص أن تفتح أبواب العمل للأزهريين ، وباطن

هذا الحرص أن يبسط (١) سلطان الأزهر على المرافق المصرية . وقد قاومت الحكومة هذه الفكرة في عهد الوزارات التي سبقت هذه الوزارة القائمة ، وأبت على الأزهر العناية بتخريج المعلمين ، لأن هذه العناية حق خالص لوزارة المعارف في كل دولة لها حظ من حضارة ، ولكن الذين يحرصون على بسط هذا السلطان الأزهرى قد انتهزوا قيام هذه الوزارة التي لا تأتي شيئاً إلا على الشعب ، فوضعوا قانونهم ، ووضعوا فيه هذا الحكم وقدموه إلى مجلس النواب . والغريب (وهل بقي شيء يستغرب في مصر) أن اللجنة البرلمانية في مجلس النواب قد نظرت هذا القانون وأقرته ورفعته إلى مجلس النواب ، ولم تفتن لهذا الحكم ، ولا لما فيه من اعتداء على وزارة المعارف ولا لما فيه من تجاوز لأصول الديمقراطية ، ولا لما فيه من بسط هذا السلطان الخطر إلى جانب سلطان الحكومة . لم تفتن لشيء من هذا ، أو فطنت له ولكنها طوته طياً واكتفت بأن تلاحظ أن تعليم اللغات الأجنبية في أقسام التخصص ضيق يجب أن يوسع ، وناقص يجب أن يزداد .

ومع ذلك فالبرلمان بطبيعته خليق أن يدافع عن النظم الديمقراطية ، وأن يحوطها من كل ما يمكن أن ينتقص أطرافها أو يحد من سلطانها . ولكنك تعلم أن الديمقراطية شيء بغيض إلى بعض الناس في هذه الأيام ، ماذا ؟ أيجد استقلال الجامعة حتى يحى ؟ أيبسط سلطان الحكومة على الجامعيين إلى أقصى حد ممكن ؟ أيقسم السلطان الجامعي بين الحكومة والأجانب وتحرم الجامعة حتى أن تقضى في أبنائها ورجالها ، ثم يبسط سلطان الأزهر حتى يتجاوز الأزهر إلى مدارس الدولة ومصالح الدولة ؟ !

ماذا ؟ أبلغ الأمر بسادتنا الذين يحكموننا الآن أن يضعوا معهد العلم الحديث تحت هذه الوصاية الخائفة المشفقة ، المسرفة في الخوف والإشفاق وأن يمكنوا لمعهد قديم من أن يبسط سلطانه إلى هذا الحد البعيد !

(١) لم يحدث أن بسط الأزهر سلطانه على المرافق المصرية . والأزهريون مواطنون ، لهم ما لطلبة كلية الآداب من الحقوق . فلماذا لا يعملون مدرسين للغة العربية وما الذي يمنع من ذلك ؟

ماذا ؟ أيراد بمصر أن تمشى إلى أمام فيسيطر العلم الحديث على مراققتها
ويسعى بها إلى تحقيق آمالها ، ويرقى بها إلى مثلها العليا ؟ أم يراد بمصر أن
تمشى إلى وراء فيصبح أمر التعليم والتربية فيها إلى من لاحظ لهم من
تربية وتعليم !!

كل هذا مخالف لطبيعة الأشياء . وكل هذا جهد ضائع وتبديد للقوة
والوقت ، ولكنه على كل حال تأخير للرقى . واستهزاء بحق الشعب في أن
يرقى ويأخذ مكانه بين الشعوب الحرة .

أست توافقنى بعد ذلك على أن الوزارة القائمة لا تفسد من شئوننا
الحاضرة وحدها في السياسة والاقتصاد والتعليم ، ولكن لها برنامجاً آخر خفياً
تنفذه شيئاً فشيئاً ، وهو أن ترد مصر إلى حيث كانت في القرون الوسطى ،
بلداً خاضعاً لسلطان (١) مطلق يؤيده رجال الدين ... !!

يجب أن يتنبه المعارضون وأن يسجلوا هذه الحركات الخفية التي تهيأ
لحرب الديمقراطية فسيصلون إلى الحكم غداً أو بعد غد : وسيجدون أمامهم
أبنية قائمة تمنعهم من التقدم إن لم يزيلوها .

(٣٣)

معضلة

هى (٢) معضلة فلسفية لا تمس السياسة ، ولا الاقتصاد ، ولا التعليم ،
ولا شيئاً من هذه المرافق التي يعنى بها الناس ، ويريدون الصحف اليومية

(١) أخطأ طه حسين في حمته على رجال الدين المسلمين في هذا الموضوع . فهل
إنشاء كلية للغة العربية في الأزهر يرد مصر إلى حيث كانت في القرون الوسطى ؟ !
والعجب من صحيفة « كوكب الشرق » التي نشرت هذا المقال .

على أن تتحدث إليهم فيها . لا تلمس شيئا من هذا ، وإنما تلمس فرعاً من فروع الفلسفة العليا ، هو ما بعد الطبيعة أو ما وراء المادة كما يسميه الفلاسفة .

وأنا أريد أن أتحدث إليك في هذه المعضلة الفلسفية العليا ، وأنا أُلح عليك في ألا تخاف ولا تفزع ولا تنصرف عن هذا الحديث مخافة أن تجد فيه من العسر والمشقة ما لا تحب أن تجد حين تقرأ في الصحف أحاديث الصباح وأحاديث المساء ، فلن تجد مشقة ولا عسراً . ولعلك أن تجد فكاهة ولها ، لأن وزير التقاليد هو بطل هذه المعضلة الفلسفية العليا . ومجلس الشيوخ هو المدرسة التي عرضت فيها هذه المعضلة ، وحاول الفيلسوف العظيم أن يحلها فظفر من التوفيق بما لم يظفر به أنلاطون في الأكاديمية ، ولا أرسطاطليس في اليسييه ، ولا ديكارت في مدفته ، ولا أحد من الفلاسفة المعاصرين في مدرسة من المدارس ، أو مجمع من المجمع ، أو رواق من الأروقة .

وكل ما أطلبه إليك هو أن تمنح هذه المعضلة شيئاً من عنايتك ، وقسطاً من التفاتك وفراغ بالك ، فسأيسرها لك ، ولكن يحسن أن تعينني أنت على هذا التيسير .

المعضلة هي أن الحكومة تريد أن تشرف على الجامعة ، فكيف يكون هذا الإشراف ؟ وإلى من يكون هذا الإشراف ؟ أياكون لوزارة المعارف ؟ أم يكون لوزير المعارف ؟ وبعبارة أوضح ، أياكون لوزير المعارف من حيث هو وزير المعارف ؟ أم يكون لوزير المعارف من حيث هو الرئيس الأعلى للجامعة ؟

هذه هي المعضلة ، وأظنك توافقني على أنها خليقة بالعناية والتفكير ، خليقة بالخطابة والتعبير خليقة بالكتابة والتحرير ، خليقة بالجدال والنضال خليقة بقليل وقال ، خليقة بأن ينفق فيها مجلس الشيوخ جهداً عظيماً ،

ويأن يقف عليها وزير التقاليد قوته الهائلة ، وبراعته الرائعة وبلاغته التي لا تطاق .

وقد حقق مجلس الشيوخ أملنا فيه ، فقلب العضلة ظهرا لبطن ، وجاءها من حيث تجاء ومن حيث لا تجاء . وقال وزير المعارف فيها فأبدع ، وانصرف القوم بعد جدال طويل . وأكبر الظن أنهم لم يتفقوا ، وأكبر الظن أن بعضهم لم يفهم بعضا ، وأكبر الظن أن تبعة هذه العضلة تقع على أستاذنا الجليل أحمد لطفي السيد بك ، لأنه هو الذي أثار هذه العضلة أثناء وضع قانون من قوانين الجامعة ، فزعم أن لوزير المعارف صفتين : باحداهما يشرف على وزارة المعارف ، وبالأخرى يشرف على الجامعة .

وفهم الجامعيون عن مديرهم هذا الكلام لأن لهم بالفلسفة إلماما ، قد يكون قليلا ولكنه يمكنهم من فهمها أحيانا . فلما انتقل هذا الكلام من الجامعة إلى الوزارة ثم إلى مجلسي البرلمان ضاقت به الوزارة ، وأعرض عنه مجلس النواب ، وحاول أن يفهمه مجلس الشيوخ .

أما وزير المعارف فقد وجد هذه العضلة خصبة تمكن من الكلام وهو يحب الكلام ، وتمكن من الفلسفة وهو يكلف بالفلسفة ، وتمكن من الخطابة وهو يتهالك على الخطابة ، وتجعله هو مشكلة من مشاكل الفلسفة ومعضلة من معضلات ما بعد الطبيعة وما وراء المادة . فقبل العضلة واعتنقها ، وضمها بين ذراعيه ، وما هي إلا أن تمتزج به ويمتزج بها ، ويصبح هو العضلة ، وتصبح العضلة هي وزير المعارف ، ويعجز الشيوخ عن فهم الوزير العضلة أو العضلة الوزير ! ويجد وزير التقاليد في أن يفسر نفسه لمجلس الشيوخ فيقول ويقول ، وبطيل وبطيل ، ويردد على الشيوخ المحترمين أن له صفتين : فهو وزير المعارف ورئيس الجامعة ، فيجيبه أحد الأعضاء : ولكنك وزير المعارف في الحالين . فيقول الوزير : نعم ، ولكن لي صفتين ، فأنا وزير المعارف ورئيس الجامعة . ويقول بعض الأعضاء الآخرين : ولكنك وزير المعارف حين تكون رئيس الجامعة . فيجيب

الوزير : نعم ، ولكن لي صفتين ، فأنا وزير المعارف ، وأنا رئيس الجامعة .
ويدور الوزير ، ويدور معه الشيوخ حتى يأخذ جميعا شئ من الدوار الخفيف ،
فيصبح شيخ من الشيوخ : لست أدري ما عناية وزير المعارف بهذه
القشور ؟

وهي في حقيقة الأمر قشور منذ خرجت من الجامعة ووصلت إلى
الوزارة والبرلمان . فالفكرة الأولى في هذه المعضلة هي ألا تكون بين
الجامعة ومكاتب وزارة المعارف صلة ما ، وأن تكون الصلة بين الجامعة
وشخص الوزير .

وقد خطر للجامعة في يوم من الأيام (في أيام العز) أن تتخذ للوزير
مكتبا في دارها حتى لا تذهب أعمال الجامعة إلى ديوان الوزارة . فالفكرة
كما ترى فكرة عملية ، تقوم على حقيقة واقعة ، وهي أن وزارة المعارف
أعجز من أن تفهم المسائل الجامعية ، وأضيق عقلا من أن تصرفها فيجب
أن تقطع الصلة بينها وبين الجامعة . ولما كانت الجامعة معهدا من معاهد
الدولة ، لا بد أن يشرف عليه البرلمان ، والوزراء هم أداة البرلمان في
الإشراف على أعمال الدولة ومصالحها ، فقد جعل وزير المعارف رئيسا
أعلى للجامعة يتكلم باسمها في مجلس الوزراء ، ويتكلم باسمها في مجلسي
البرلمان .

هذه هي الفكرة الأولى ، وهي كما ترى يسيرة سهلة لا غبار عليها ،
ولا عسر فيها . ولكنها لم تكد تنتقل من الجامعة حتى أعجز غير الجامعيين
عن فهمها ، فألفوا معناها واحتفظوا بألفاظها . ورأى وزير التقاليد أن
في هذه الفكرة مجدا وفخرا يميزه من زملائه الوزراء ، ويقربه من رئيس
الوزراء ، فهو ذو صفتين وغيره من الوزراء ذو صفة واحدة ! وهو ذو
لسانين ، وغيره من الوزراء ذو لسان واحد . ورئيس الوزراء وحده هو
الذي يشبه في ذلك بأن له صفتين ، فهو وزير ورئيس وزارة ! لذلك
حرص وزير التقاليد على هذه الفكرة الجامعية في ظاهر الأمر ، ولم ينفذها

في حقيقة الأمر ! وليس أوضح دليلا على ذلك من أن مضبطة مجلس الشيوخ تنص في صراحة على أن الذي تولى الدفاع عن قوانين الجامعة أمام لجنة المعارف فيه لم يكن جامعا ، لم يكن مدير الجامعة أصالة . لأن الجامعة لا مدير لها الآن ، ولا نيابة ، لأن مدير الجامعة بالنيابة مشغول عن هذا السخف في أكبر الظن ، ولا سكرتيرها العام ، لأن سكرتيرها العام كان في تونة أو في الغردقة ليزور حفائر الجامعة في الصعيد ، أو محطة الأحياء المائية على ساحل البحر الأحمر . أو ليفتش على أعمال الأساتذة الجامعيين هنا وهناك .

إنما الذي تولى الدفاع عن قوانين الجامعة هو السكرتير العام لوزارة المعارف الذي ليس بينه وبين الجامعة . ولا ينبغي أن تكون بينه وبين الجامعة صلة ما ، لأنه من أعوان الوزير من إحدى ناحيتيه . لا من هاتين الناحيتين جميعا .

لوزير التقاليد إذن صفتان في اللفظ . وليس له في حقيقة الأمر إلا صفة واحدة ، هي أنه عضو في مجلس الوزراء ، أي وزير المعارف . وأظنك تراني قد أطلت في هذا الحديث . ولكني معذور في هذه الإطالة ، فقد أطلت مجلس الشيوخ ، وأطال وزير التقاليد في هذه المعضلة . وأقام كلاهما الدليل للمرة الثانية بعد الألف على أن الأمر في مصر أمور ألفاظ وأشكال أكثر من أي شيء آخر ، فقد وافق مجلس الشيوخ بعد أن وافق مجلس النواب على قانونين من قوانين الجامعة في غير مشقة ولا جهد إلا في الألفاظ ، ومع ذلك فقد وقف بعض الشيوخ وقفة لا بد من إنصافها حين أبي على وزير المعارف أن ينقل أعضاء هيئة التدريس دون تقييد برأي مجلس الجامعة ، وقد أطل الرجل في ذلك وألح ، رذهب في الإطالة والإلحاح مذاهب مختلفة قيمة ، ولكن الأمر كان مقضيا ، فلم يجد الرجل إلا شيخين أو ثلاثة وافقوه على هذا الموقف ، وتم لوزير التقاليد ما أراد من طغيان . فأصبح رأى مجلس الجامعة استشاريا في نقل الجامعيين ، لأن هذا المجلس الذي يتألف

من عشرين عضوا ، منهم وكيلان من وكلاء الوزارات ، ومنهم خمسة تعيينهم الحكومة ، ومنهم أربعة من عمداء الكليات ، وأربعة من وكلائهم ، وأربعة من أساتذة الكليات ذوى الكراسى . هذا المجلس كله لا يمكن أن يؤتمن على مصالح الجامعة ، فلا بد من إشراف الوزير عليه ! هذا المجلس كله لا يمكن أن يأمن من محاباة الجامعيين ، فلا بد من إشراف الوزير عليه ! هذا المجلس كله قاصر محتاج إلى الوصاية ، فلا بد من إشراف الوزير عليه !

ولست أنا الذى أقول هذا الكلام ، وإنما هو كلام قيل كله فى مجلس الشيوخ ، وأثبت كله فى مضبطة المجلس ، وسمعه كله مدير الجامعة بالنيابة ، وعميد كلية الحقوق ، وأقره كله مجلس الشيوخ ، وسيقبله كله الجامعيون راضين أو كارهين ، بعد أن قبله كله مدير الجامعة بالنيابة صاحب السعادة الدكتور على باشا إبراهيم !

يجب أن يهنا الجامعيون الذين تكل إليهم مصر تعليمها العالى ، أى نقل الشاب من طور الشباب إلى طور الرجولة واحتمال التبعات . ويقرر فيهم مجلس الشيوخ أنهم عرضة للمحابة ، فهم محتاجون إلى المراقبة ، وأنهم قصر ضيق ، فهم محتاجون إلى الوصاية ، وأى وصاية ؟ وصاية رجل واحد ، هو وزير المعارف ! فيهم أساتذة الطب ، وأساتذة الحقوق ، وأساتذة الآداب ، وأساتذة العلوم . وفيهم موظفون غير جامعيين ، وكلهم يفترض فيه أن يكون مجربا ، قد انتفع بالتجربة ، وكلهم يفترض فيه أن يكون حسن الخلق ، رضى النفس ، نقى الضمير ، شريف السيرة ، ولكنهم على هذا كله ، بل لهذا كله عرضة للمحابة ، فيجب أن يراقبوا ! وهم على هذا كله قصر فيجب أن يقام عليهم وصى ، وهذا الوصى هو وزير قد يكون عالما ، وقد يكون جاهلا . قد يكون ذكيا ، وقد يكون غبيا . قد يكون مستقيم السيرة ، وقد يكون معوج الحياة ، لأن مصادفات الظروف السياسية هى التى تضعه فى كرسى الوزير .

فالدولة لم تضع بعد قانونا كقانون الجامعة تبين فيه الشروط التي يجب أن تتم لمن يشغل منصب الوزارة ، كما بينت الشروط التي يجب أن تتم لمن يشغل منصب الأستاذ . ووزير التقاليد يعلم حق العلم أنه قد استطاع أن يكون وزيرا ولن يستطيع أن يكون أستاذا في الجامعة إذا نفذ قانون الجامعة على وجهه ، ومع ذلك فوزير التقاليد الذي لا يستطيع أن يكون أستاذا في الجامعة وصي على الجامعيين والجامعيين يقبلون هذه الوصاية ، ويتسم لها اثنان من عمدائهم في مجلس الشيوخ ، ما أشد تأثير المناصب في النفوس !

وأجمل من هذا أن وزير التقاليد أراد أن يدافع عن اعتداء الحكومة على الجامعة ، فاستدل بما يحدث في أوروبا ، ولم يفتن مجلس الشيوخ إلى أن الدليل لم يكن للوزير ، وإنما كان عليه .

زعم الوزير أن القانون الفرنسي لا يسمح بنقل أحد من أعضاء هيئة التدريس في الجامعات إلا بعد أخذ رأي الوزير . فإذا كان هذا حقا فهو الذي يراد للجامعة ، لأن رأي الوزير فيه استشاري لا قطعي ، والرأي القاطع للجامعة ، لا للوزير . أما عندنا فقد أقر البرلمان للوزير أن ينقل بعد أخذ رأي مجلس الجامعة . فجعل رأي الجامعة استشاريا ، ورأي الوزير قاطعا على عكس ما هو واقع في فرنسا بالضبط .

وأكبر الظن أن المجلس لم يفتن إلى هذا التورط الذي اضطر إليه وزير التقاليد وفي صفتيه المعضلتين ! وكذلك تم لوزير المعارف نحو استقلال الجامعة حتى في أشد أعمالها اتصالا بحياتها الداخلية ، فكل عضو من أعضاء هيئة التدريس في الجامعة خاضع لسلطان الوزير ، أو لسلطان الذين يصرفون الوزير . ويكفي أن يغضب الوزير ، أو أن يغضب المسيطرون على الوزير لينقل الأستاذ من الجامعة إلى حيث تريد له الحكومة . وقد تجرؤ الجامعة على الكلام فتأبى ، ولكن الوزير قادر على ألا يحفل بما تقول الجامعة .

وأجمل من هذا كله وأبدع أن وزير التقاليد أراد أن يدافع عن سلطانه هذا بالمنطق لأنه فياسوف فتورط في سخف لم يفتن له مجلس الشيوخ أيضا.

وهل فطن مجلس الشيوخ لكل شيء؟ زعم الوزير أن بعض الأساتذة قد
يُتهم بالتحريض على الإضراب ويثبت عليه ذلك ، أو قد يتهم بإذاعة آراء
خطرة ، ويثبت عليه ذلك ، وإذن فيجب أن يترك للوزير الحق في نقله !
ولكن فيم أنشئ مجلس التأديب إذا لم يكن إليه محاكمة الذين يحرضون على
الإضراب أو يفسدون آراء الشباب ؟ يجب أن نفهم من هذا أن سيكون
في الجامعة منذ اليوم مجلس للتأديب ترفع إليه الأمور الواضحة الجلية التي
يقال فيها نعم أو لا ، والتي يمكن أن يقام عليها الدليل . وسلطة أخرى هي
سلطة الوزير تقضى فيما لا يقوم عليه الدليل ، وإتباعي به الوشاة والخواسيس .
فاذا سئل الوزير عنه تسلم باحدى صفتيه وبأنه مسئول أمام البرلمان وأمام
الوطن وأمام الضمير !

والجامعيون يقبلون هذا ويرضونه ، ويتسم له مديرهم بالنيابة ، أمام
مجلس الشيوخ ! ما أكثر ما تحمل النفوس من الضيم لتتمكن من أكل
العيش !

(٣٤)

مسكينة

هي (١) كلية الآداب ، وإن شئت فقل هي الجامعة ، وإن شئت فقل
كل مصلحة من مصالح مصر في هذا العهد السعيد الذي يشرف على أمورنا
فيه وزراء يرعون مصالح البلاد حقاً ، ويعنون بآمالها ومستقبلها حقاً ،
ولا يبخلون على مرافقها بجهد ولا قوة . ولا يضمنون على رقيها من المال
بقليل ولا كثير .

مسكينة كلية الآداب فقد قص جناحها حتى لم يبق فيه ريش ! وقد
ثقلت عليها الأغلال والقيود حتى ما تستطيع حركة ! وقد أخذت عليها

(١) ٢٢ - ٤ - ١٩٣٣ عدد ١٣٧١

منافذ للضوء والهواء حتى ما تستطيع تنفسا ولا حياة صالحة . ولولا أن مصر لا تعرف اليأس ، وأن الأيام السود مهما يشتد سوادها ، فهي ماضية منقضية مع طلوع الشمس وغروبها ، وأن ما تكره النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال . لولا هذا كله لقلنا للمصريين : أعظم الله أجركم في كلية الآداب !

لقد أفكر فأطيل التفكير ، وأروى فأنعم في التروية ، وأؤول فأذهب في التأويل مذاهب شتى ، ولكنى لا أستطيع أن أفهم هذه الحرب المنكرة التي ما تزال تشب على كلية الآداب من الجامعة ، ومن وزارة المعارف ، ومن الحكومة والبرلمان .

كان في كلية الآداب رجل كرهته الحكومة وأقصته عنها ، وزعمت أنها بذلك قد خدمت الجامعة ونصحت لها ولكلية الآداب ! فكان من المعقول بعد أن أقصى هذا الرجل عن كلية الآداب وعن الجامعة أن لا تلتى كلية الآداب من الجامعة ومن الحكومة نكرا ولا شرا . وأن لا تصلى كلية الآداب من الجامعة والحكومة نارا ولا عذابا ، ولكن النكر ما يزال يصب على كلية الآداب ، ولكن الحرب ما زالت تشب على كلية الآداب . فإذا جنت هذه الكلية البائسة ؟ وما هذا الحقد الذي يملأ عليها قلوبا ، ويؤجج حولها لهيبا ، ويجعلها غرضا للسهم وهدفا للأحداث ؟ إلى أين تمضى ؟ إلى أمام أم إلى وراء ؟ لقد استكثروا على الجامعة الاستقلال فمحوه وأتوا عليه . أفهم أنهم يستكثرون (١) علينا العلم أيضا ؟ أفهم أنهم يستكثرون علينا حتى الثقافة الخالصة ؟ أفهم أنهم يأبون علينا إلا أن

(١) أرسلت وزارة إسماعيل صدقي ثلاثة طلاب إلى أوربا لدراسة فقه اللغة وذلك في عام ١٩٣٣ وهم : عبد الحليم على محمد النجار من الأزهر ، وإبراهيم أحمد من دار العلوم ، وعبد الحميد عبد السلام الدواخلي من كلية الآداب ، بعد إجراء امتحان تبحر فيه هؤلاء الطلاب .

نرد إلى الجهل بعد العلم ، وإلى الظلمة بعد النور ؟ أفهم أنهم يأبون أن يحكموا إلا شعبا جاهلا لا يستطيع أن يفهم ، ولا أن يفقه ، ولا أن يقدر ما يراد به . وكيف يبيع المصريون لأنفسهم أن يعينوا على هذا الشر ويغمسوا أيديهم في هذا الإثم العظيم ؟ لقد أنشئت كلية الآداب واسعة ، شديدة العناية للدرس العلمى ، فلم تكد تنشأ حتى جدت فى توسيع أفاقها ، وتعميق الدرس العلمى فيها . وفتح أبواب للثقافة لم تكن قد فتحت فى مصر من قبل . ومضى المصريون معها فى طريقها هذه فرحين مستبشرين ، يدفعهم الأمل إلى أمام ، ويشجعهم الفوز على الماضى ، فما بالهم يردونها اليوم عن طريقها ردا عنيفا ؟ وما بالهم يغلقون هذه الأبواب التى كانت مصر تنتظر منها الخير كل الخير ، والتى كانت وحدها سبيلنا إلى أن ندانى الغربيين فيما انتهوا إليه من رقى ، ونستغنى بعد ذلك عن معونتهم لنا ، ونستقل بعد ذلك بأمور التعليم فينا ، ونرفع بعد ذلك أدبنا العربى إلى حيث ينزل منزلة الكرامة بين الآداب . أهذا كله ليس شيئا إلى جانب خمسة آلاف من الجنيهات تقتصد فى خزانة الجامعة أو فى خزانة الدولة ؟ فما بالهم لا يقتصدون هذا المبلغ من إعانة الأجانب الممثلين والراقصين ؟ أيهما أهون على مصر : إلغاء التمثيل فى الأوبرا أم تعطيل الدراسة فى كلية الآداب ؟ أيهما أهون على البرلمان : أن تغلق دار للرقص والغناء ، أم أن تضيق دارا للعلم والتعليم ؟ وأى علم وأى تعليم ؟ أمس أنواع العلم بقديمتنا وحديثنا ، وأشد أنواع التعليم اتصالا بقوميتنا ؟

بين يدي الآن هذا القانون الذى أقره البرلمان ، والذى الحق به ثبت الكراسى التى أقرها القانون فى الجامعة . ويكفى أن تنظر فى هذا الثبت لتحزن وتأسى ، ويكفى أن تنظر فى هذا الثبت لتتكلف جهدا شديدا تنفى به ما يهاجمك من الجزع ويغمرك من اليأس ، حين ترى إساءة المصريين إلى المصريين .

كانت كراسى كلية الآداب أربعة عشر أو خمسة عشر ، فردت فى القانون الجديد إلى تسعة . وهل تدرى أى الكراسى ألغى ؟ كرسى فقه

اللغة العربية ، فستدرس إذن آداب اللغة العربية في كلية الآداب دون أن تدرس فيها اللغة وفتحها . وألغى كرسى اللغات السامية فستصبح إذن دراسة اللغات السامية في كلية الآداب دراسة ثانوية إضافية ، وستصبح تكميلا بعد أن كانت أساسا ، وستصبح فرعاً بعد أن كانت أصلاً ، وستظل لغتنا مجهولة في كلية الآداب كما هي مجهولة في غيرها من معاهد العلم ، وسيظل علمنا باللغات السامية محدوداً في كلية الآداب ، كما هو محدود في دار العلوم . وستظل قوميتنا العربية ناقصة أبشع النقص من هذه الناحية ، وستظل عيالا على المستشرقين الأوروبيين كما كنا من قبل في لغتنا العربية ولغائنا السامية الأخرى .

وألغى كرسيان من كراسى التاريخ ، فلم يبق لهذا العلم إلا كرسى واحد ، يكون مرة للتاريخ القديم كما هو الآن ، وأخرى للتاريخ الحديث ، وثالثة لتاريخ القرون الوسطى . وسيعود درس التاريخ في كلية الآداب مشوهاً ممسوخاً سطحياً كما كان في مدرسة المعلمين .

وألغى كرسى الدراسات اليونانية واللاتينية ، وأصبحت دراسة هاتين اللغتين صورة من الصور ، وشكلاً من الأشكال ، ومظهراً من المظاهر ، يندع الأبصار ، ولا يدل على شيء . وسيظل المتحف المصرى محتاجاً دائماً إلى الأجانب يدرسون فيه الآثار اليونانية والرومانية . وسيظل تاريخنا في أيام اليونان والرومان ، وفي أول العصر الإسلامى مقصوراً دائماً على الأجانب ، يدرسونه ويؤلفون فيه ، وستظل عيالا على الأجانب في هذا كله ، وسيظل علمنا بالآداب الأوربية الحديثة محدوداً مقصوراً على الشراهر والقشور ، لأن حكومتنا أرادت أن تقتصد ألف جنيه في كل عام .

الغيت هذه الكراسى كلها من كلية الآداب في القانون الجديد ، ولا بد من أن يعدل نظام الدروس وبرنامجه تعديلاً يلائم هذا الإلغاء ، ولا بد من أن يهدم هذا البناء الذى أقامته مصر فتعبت في إقامته ، والذى بدأ

يؤتى ثماره طيبة ناضجة ، ولا بد من أن ترد كلية الآداب مدرسة كغيرها من المدارس التي ألفتها وزارة المعارف ، والتي يستطيع الانجليز أن يرضوا عنها دون غيرها . ولقد يكون من الحق على أن أسجل أن هذا الإلغاء ليس أمراً طارئاً في هذه الأيام ، وإنما هو أمر دبر منذ عهد بعيد ، وكانت لي فيه مشادات مع جماعة من كبار الموظفين ، لا أحب أن أذكرهم الآن . وكانت لأستاذنا الجليل لطفى السيد بك فيه مواقف مع هؤلاء الموظفين ، ولكنني كنت أعتقد أن خروج الأستاذ لطفى من الجامعة ، وخروجه من كلية الآداب سيردان الأمر إلى نصابه ، وسيصرفان الشر عن هذه الكلية البائسة . وكنت أظن أن محاولة العبث بهذه الكراسي قد كان فناً من فنون سياسة الاحراج تلك التي كان يراد بها اضطراب مدير الجامعة السابق وعميد كلية الآداب إلى الاعتزال ، فإذا الأمر أشد من هذا كله خطراً . وإذا الأمر مكر بالتعليم العالي في مصر ، وإذا الأمر كيد قد دبر لكلية الآداب من الذين يعجزون عن أن يفهموا كلية الآداب ، ومن الذين يشفقون من تأثير كلية الآداب في تكوين الشباب وإذاعة الثقافة العالية فيه .

على أنني إن لمت في ذلك أحداً فلن ألوم وزير التقاليد ، ولا رجال وزارته ، فهم أعجز من أن يفهموا كلية الآداب ما هي ، وكيف تكون ! ولا ألوم الانجليز فهم أمهر من أن يدعوا في مصر كلية الآداب تفتح للشباب أبواب الأمل وتسلك بالشباب طريق الحرية والاستقلال . وإنما ألوم الجامعيين الذين يدعون الحكومة تقص أجنتهم بعد ما نبت فيها الريش ونما دون أن يبصروها بمواضع الخطر في هذا الأمر . كيف يستطيع الجامعيون لأنفسهم أن يروا كلية من كليات الجامعة يمر بها هذا المنكر ، ويكاد لها الكيد ، فينظروا ثم لا يقولوا ؟ أترضى كلية الطب بأن الحكومة لم تبخل عليها بما أرادت من الكراسي ففتحها منها ما شاءت ، وكلية الآداب يلغى (١) ثلث كراسيها إلغاء ؟ أترضى كلية الحقوق بأن

(١) لقد عاش طه حسين حتى رأى الكراسي تلغى كلها لأنها عقبة في طريق ترقية المدرسين .

الحكومة قد منحها ما أحبت من الكراسى فجعلت منها ستة عشر كرسيًا ،
منها أربعة للقانون المدني . وثلاثة للاقتصاد السياسى ، ولم تجعل فى كلية
الآداب إلا تسعة من أربعة عشر ، بينها كرسي واحد للغة العربية ،
وكرسي واحد للتاريخ .

أترضى كلية العلوم أن يكون فيها كرسيان للكيمياء . وفى كلية الآداب
كرسي واحد للغة العربية ؟ وأن يكون فيها كرسيان للرياضة ، وفى كلية
الآداب كرسي واحد للغة العربية ؟ وأن يكون فيها ثلاثة كراسى لعلم
الحيوان . وفى كلية الآداب كرسي واحد للغة العربية وكرسي واحد
للتاريخ ؟ أين التضامن الجامعى ؟ ! أيجب علينا أن نسجل أن هذا العهد
السعيد قد محا التضامن الجامعى . فاكثفت كل واحدة من الكليات بما
أصاب من الكراسى وتركت كلية الآداب للحكومة تضطهدها كما تشاء ؟
أيجب أن نسجل أن الجامعة قد فقدت تضامنها فتركت كلية الآداب نهبا
للعابثين ؟ كما أن الصحافة قد فقدت تضامنها فخلت بين توفيق دياب وبين
ما يلقى من معاملة اللصوص وقطاع الطريق ؟ ولكن لكلية الآداب حاميا
هو فوق الحماة ، وكافيا هو فوق الكفاة ، أنشأها وتعهدها برعايته السامية
فمن الذى يبلغ جلاله الملك أن كليته تلقى فى الجامعة ألوان الضيم ؟

(٣٥)

تنبيه

لا أعرف (١) شعبا كهذا الشعب المصرى يلقى أشد ما تلقى الشعوب
من عناء ، ويبدل أقصى ما تبدل الشعوب من جهد ، ويحتمل أثقل
ما تحتمل الشعوب من أعباء مبتسما لهذا كله ، راضيا بهذا كله ، مخلصا

(١) ٢٣ - ٤ - ١٩٣٣ عدد ٢٣٧٢

في هذا كله . ثم هو بعد ذلك لا يكافأ على ما يلقي ويبدل ويحتمل إلا بالعقوق والجحود ، وإلا بالاستهانة والازدراء !

يهبط الأجنبي إلى مصر فقيرا معوزا ، فما هي إلا أن يغنى بعد فقر ، ويثرى بعد عوز . ويهبط الأجنبي إلى مصر غنيا موسرا فما هي إلا أن تضاعف ثروته ، ويعظم حظه من اليسار . ويهبط الأجنبي إلى مصر جاهلا فما هي إلا أن يصبح عالما ، أو عالما فما هي إلا أن يصبح من كبار العلماء وأفذاذهم .

قلما ينزل أجنبي أرض مصر فتضيق به سبل الحياة ، أو تغلق دونه أبواب الرجاء ، أو ترده مصر عنها قانطا خائب الأمل . والمصري يبذل ما يستطيع وما لا يستطيع ليغنى الأجنبي بعد فقر ، ويؤمنه بعد خوف ، ويرضيه بعد سخط ، ثم هو لا يجد من الأجنبي إلا عقوقا وجحودا ، وإلا ازدراء وامتهانا .

هذا الأجنبي يضيق بمصر لأن جوها يؤذيه في الصيف ، وإن استمتع به في الشتاء . وهذا الأجنبي يضيق بمصر لأن حاجتها إلى الجمال الصناعي والزينة المتكلفة والعناية بأمور الصحة ما زالت شديدة ماسة ، وإن كان قد استأثر فيها بالخير ، وإن كان قد استبد فيها بإدارة الأموال والأعمال ، وإن كان قد أشرف فيها على تدبير كل شيء ، فعليه التبعة فيما يشكو منه قبل أن تكون على أي أحد آخر من الناس . وهذا الأجنبي يضيق بجهل مصر وإن كان قد دعى إلى أن ينهض فيها بأمور التعليم ، ومنح على ذلك أجرا لم يكن يحلم ببعضه في بلاده . فلما هبط إلى مصر لم يخلص في عمله ، ولم يبذل للمصريين من علمه القليل أو الكثير إلا بمقدار ، ولم يكف في لحظة من اللحظات عن التفكير في أن بذل العلم للمصريين خطر ، لأنه يزيل عنهم الجهل ، ويكشف عنهم الظلمة ويبعثهم مثله ، وقد يغنيهم عنه ، وقد يدنعههم إلى أن يضيقوا به ويشعروا بما يعتمد من إهمال وتقصير .

والمبحث عن حياة الأجنبي في مصر من أى ناحية من أنحائها ، وفى أى سبيل من سبلها فستراها قائمة دائماً على هذه القاعدة . خذ من المصريين أكثر ما تستطيع ، وأعظم ما تستطيع . أظهر للمصريين مودة وعظفا واضمر لهم ازدراء واستخفافا ، حتى إذا انقطعت حاجتك إليهم فأظهر لهم ما كنت تضممر ، وأبن لهم عما كنت تخفى ! وكذلك تلقى الأجنبي في مصر فتحس منه ظرفا ومودة وإيناسا ، ثم تنقطع الصلة بينك وبين هذا الأجنبي وتسبح له فرصة الحديث عنك فلن يقول إلا شراً ... !

كذلك حال مصر مع الأجنبي ، وليست حال مصر مع بعض المصريين بخير من حالها مع الأجانب . يظهر المصري شيئاً من الكفاية والقدرة ، فما أسرع ما تفتن به مصر ، وما أسرع ما تحوطه بألوان العناية والرعاية وضروب التشجيع والتأييد حتى يصبح رجلاً ذا خطر ، وينزل منزلة اجتماعية ظاهرة ممتازة ، وإذا هو ينسى الذين رفعوه وعنوا به ، والذين أيدوه وشجعوه ، والذين رفعوه إلى مكانته الظاهرة ، وأنزلوه منزلته الممتازة ، وإذا هو يفكر في نفسه قبل أن يفكر فيهم ، ويعنى بنفسه قبل أن يعنى بهم ، ويصبح أثراً من الطراز الأول ، لا يعرف إلا نفسه ، ولا يعمل إلا لنفسه ، ولا ينظر إلى الشعب إلا على أنه وسيلة تنبه الحامل وترفع الوضع ، وتوصل الناس إلى ما يبتغون من المنافع والمآرب والآمال . وإذا هو لا يتحرج إن أتيح له شيء من السلطان من أن يتخذ السلطان وسيلة إلى المنفعة وإن اضطره ذلك إلى العقوق والجحود وإذلال الشعب الذى رفعه بعد ضبعة ، ونبه من شأنه بعد خمول .

وتستطيع أن تبحث عن حياة كثيرين جدا من كبار الموظفين فسترى أنها تقوم على هذه القاعدة : خادع الشعب ما احتجت إلى خداعه ، فإذا بلغت غايتك ، وحقت أملك ، فأفد لنفسك ما تستطيع من منفعة ، وحقق لنفسك ما تستطيع من مأرب ، واحذر أن يقوم وفاؤك للشعب عقبة بينك وبين شيء مما تريد . . . !

وهذه وزارات لم يكن أعضاؤها شيئاً قبل أن تلقى إليهم أئنة الحكم وأزمته ، فما هى إلا أن يختلف أعضاؤها إلى مكاتبهم ودواوينهم حتى ينسوا ماضيهم القريب ومستقبلهم المحتوم ، ويلهيهم المنصب عن كل شيء إلا لذة المنصب والجاه والسلطان . وإذا هم ينعمون بهذه اللذة ، ويتهاككون عليها ، ويضحكون في سبيلها بأشياء كثيرة أيسرها منافع هذا الشعب الذى إنما رفعهم إلى مناصب الوزارة ليكونوا له خداما ، لا أكثر ولا أقل .

وكذلك يريد الله لهذا الشعب الهادىء الوداع في نشاط وقوة أن يكون العوبة للذين يحسن إليهم ، ويسدى إليهم الصنيعة والمعروف . وهو يحس هذا العقوق أحيانا فينكره ويضيق به ، ثم لا يلبث أن ينساه ويعرض عنه ، وهو حين ينكر رفيق في الإنكار ، وهو حين يضيق متسامح في الضيق ، فلا يحفل بانكاره ولا بضيقه هؤلاء الذين يعتمونه ويحجدون فضله ، ويجزون إحسانه إليهم بالإساءة إليه . وهو حين ينسى مغرق في النسيان ، قلما يتذكر ، وقلما يتفكر . ويستغل خصومه قصر ذاكرته ، وسعة مغفرته فيغلون في الاساءة إليه ، ويغرقون في إزدرائه وإهماله والانصراف عن التفكير فيه .

بهذا وحده تستطيع أن تفسر هذه الحياة المنكرة التى نحياها ، التى يسعى إلينا الشر فيها من كل سبيل ، وتهجم علينا الكوارث فيها من كل وجه . فلو أن الذين إليهم أمورنا السياسية يقدرون أنهم حين نهضوا بأمورنا السياسية لم نهضوا بها لأنفسهم ، وإنما نهضوا بها للشعب وأنهم بحكم مناصبهم ومكانتهم ليسوا سادتنا وإنما هم خدامنا . وإنهم بحكم مناصبهم ومكانتهم لا ينبغى أن يستدلونا ، ولا أن يستغلونا ، وإنما ينبغى أن يستدلوا أنفسهم لمصلحة أمتهم ، وأن يستغلوا جهودهم لمنفعة بلادهم .

لو أن الذين إليهم أمور سياستنا يقدرون هذا لما طغى منهم طاغ ، ولا بغى منهم باغ ، ولما أهدرت حقوق ، وامتهنت كرامات ، ولقيت الحرية ما تلقى في هذه الأيام . ولو أن ذاكرة الشعب لم تكن قصيرة ،

ولو أن تسامح الشعب لم يكن مسرفاً ، لا يضطر هؤلاء الساسة أن يفكروا في الشعب ، ويحسبوا له حساباً ، فيردوا نفوسهم عن شهواتها ، ويضطروها إلى القصد والعدل والإنصاف والاعتراف بالجميل .

ولو أن الأجانب الذين يفدون إلى مصر يقدرّون حقهم وواجبهم في مصر كما يقدرّونها في بلادهم ، ويستمعون لضائرتهم في مصر كما يستمعون لضائرتهم في بلادهم ، لما لقيت منهم مصر ما تلقى من هذه المودة الظاهرة ، والعقوق الخفية . ولو أن مصر لم تكن مغرقة في التسامح ، ولا مسرفة في النسيان ، ولا غالية في التهاون بحقوقها وكرامتها ، لما طمع فيها الأجنبي ، ولا وجد إلى خداعها والمكر بها سبيلاً .

ولو أن مصر إذا جاءت أمضها الجوع ، ولو أن مصر إذا ظمئت أضناها الظمأ ، لما كانت فيها هذه الحوادث التي أخذت الأزمة الاقتصادية تحدثها ، والتي أخذت تبدو الآن يسيرة ولكنها على ذلك مروعة مخيفة ، تنذر بشر لا يعلم نتائجها المنكرة إلا الله .

هذه الأمراض الخطرة للجوع والبؤس قد أخذت تظهر في القاهرة بشكل مفرع مخيف . هذه حمى التيفوس تسعى بين الفقراء المعدمين بشرها ونكرها . وهؤلاء الفقراء المعدمون يسعون بهذه الحمى فيحملونها إلى أطبائهم في القصر العيني (١) ليردوا عنهم شرها ، فإذا الشرا أقوى من الأطباء ، وإذا الأطباء أنفسهم يسقطون في شباك هذه الحمى وينقلون إلى المستشفى مع مرضاهم ، وإذا طلاب كلية الطب لا يخلصون من هذه الحمى فيسقطون في شباكها أيضاً .

هذا هو المرض يغزو قلعة الطب ويضطرها إلى الدفاع ، وكان يجب أن تكون هذه القلعة هي التي ترسل جيوشها إلى أحياء الفقراء والمعدمين

(١) الصواب : قصر العيني

لتكافح فيها الشر والضرر ، وترد عنها جيوش الأوبئة والأمراض ، ولكن أين السبيل إلى ذلك ، والذين إليهم تدبير ثروة الشعب لا يفكرون في الشعب؟ أين السبيل إلى ذلك والذين إليهم حماية صحة الشعب لا يفكرون في الشعب؟ وإنما يفكر أولئك وهؤلاء في مناصبهم أولاً ، ثم في تمكنهم من هذه المناصب ثانياً ، ثم في استمتاعهم بلذات هذه المناصب وجاهاها ، ثم في الشعب بعد هذا وهذا وذاك .

كيف السبيل إلى ذلك والمصري قد تعود أن يجوع فيحتمل الجوع ، وأن يظلم فيحتمل الظلم ، وأن يعدم فيألف الإعدام . تقصير من أولى الأمر في ذات الشعب ، وتقصير من الشعب في ذات نفسه . والحمى تستفيد من تقصير أولى الأمر ، ومن تقصير الشعب فتفتك بالفقراء ، وتغزو الأطباء ، كما يستفيد الأجنبي من تقصير أولى الأمر في ذات الشعب ، ومن تقصير الشعب في ذات نفسه فيعبد بحقوق الشعب وحرياته وثروته ومقومات حياته الوطنية كلها ويسخر بعد ذلك من المصريين جميعاً ... !

فكرت في هذا كله حين قرأت في الصحف صباح اليوم أن رئيس الوزراء المريض قد حدد موعد سفره للاستشفاء ، فسياسافر في منتصف الشهر المقبل ، فيقضى في أوروبا أربعة أشهر أو نحوها . ومن قبل ذلك مرض رئيس الوزراء شهرين لم يعمل فيهما شيئاً . وبين مرض الرئيس وسفره أخذ يختلف متباطئاً متثاقلاً بحكم المرض إلى ديوانه فلا يكاد يعمل شيئاً . ومن قبل هذا كله أقام في أوروبا ثلاثة أشهر أو نحوها مستشفياً متروخاً ، وهو في أثناء هذا كله يحتفظ برياسة الوزارة ، ويقبض مرتب رياسة الوزارة ، ويعطل مصالح البلاد لأنه مسافر يتروخ ، أو لأنه مريض ، أو لأنه في دور النقاهة ، أو لأنه مسافر يستشفى .

لو قدر رئيس الوزراء حق بلاده عليه لما أذن لنفسه أن يحتفظ بمنصبه هذا وهو عاجز عن النهوض به . ولو قدر المصريون حقهم على أنفسهم لما قبلوا من رئيس وزارتهم أن يحتكر رياسة الوزراء ، ولا يعمل فيها

إلا ثلاثة أشهر أو أربعة في سنة كاملة ، ولكن مصدر الشر كله في مصر
أن الشعب متسامح ، مسرف في التسامح ، وأن حكام الشعب يغفلون في
استغلال هذا التسامح فلا يحفلون بالشعب : ولا يلتفتون إليه .. !!

متى يتنبه الشعب إلى حقه ، فيجد في المطالبة به والحرقص عليه ؟ ومتى
تقننه ضمائر الحكام فتردع أصحابها عما يتورطون فيه من اعتداء وإهمال ؟ !!

(٣٦)

أحاديث

إذا أعسرت الحكومة والشعب (١) موسر كانت عاجزة وإذا أيسرت
الحكومة والشعب معسر كانت طاغية . وإنما يصلح أمر الحكومة ويعتدل
بين العجز والطغيان حين تكون الملاءمة بين ثروة الحكومة وثروة الشعب.
وكل ما يمكن أن يطلب إلى الحكومات في أيام العسر والأزمة هو أن تدبر
أموالها وتحسن التدبير حتى لا يخنقها الضيق ولا يضطرها العسر إلى
الإفلاس .

والظاهر أن حكومتنا تكره العجز ، ولا تحب الفقر . والظاهر أيضا
أنها تكره الملاءمة بين حياتها وبين حياة الشعب . وقد رأت الشعب فقيرا
فأبت إلا أن تكون غنية ، ورأته معسرا فأبت إلا أن تكون موسرة .
ورأته مضطرا إلى الجوع والحرمان فأبت إلا أن تصيب من الترف ما يباح
وما لا يباح ، حتى إذا انتهى العام المالي أو كاد ، أعلنت إلى الشعب في شيء
من التحدى والازدراء أنها على إترافها وإسرافها قد استطاعت أن توفر
ثلاثة ملايين ونصف مليون ، بينما كثير من الناس يتلظون جوعا ، ويصلون
نار المتربة والحرمان . ولم يكذ الناس يقرأون ما نشرته الصحف أمس من

(١) ٢٤ - ٤ - ١٩٣٣ ، عدد ٢٣٧٣

أن حساب الدولة قد أظهر أن دخلها قد زاد على خرجها هذه الملايين حتى أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، وإذن فقيم كان الإرهاق للشعب ؟ وقيم كان التضيق على مرافق الدولة التي لا بد من التوسعة عليها ؟ وقيم كانت هذه الجهود التي بذلت عند المصارف ؟ وقيم كانت هذه الاتفاقات التي أبرمت مع المصارف ؟ وقيم كان هذا القرض الذي عقد لكف أيدي المصارف عن الناس ؟ وقيم الاستمرار على جباية طائفة من الضرائب يشكو الناس منها ويضيقون بها ، ويلحون في أن يرفع عنهم شرها ، ويكشف عنهم ضررها ؟ وقيم تشريد الطلاب والتلاميذ حين يعجز آباؤهم وأولياؤهم عن أداء المصروفات أو جزء من المصروفات ؟ وقيم رفع المصروفات في كلية الطب وتقاضي ما يزيد فيها من طلاب السنة الثانية التي كان يجب إعفاؤهم من هذا المزد ؟ وقيم إلغاء ثلث الكراسي في كلية الآداب ؟ وقيم إثبات هذه القاعدة المخزية في ميزانية الجامعة ، وهي أن بعض الكراسي التي يشغلها الأجانب تنحل إلى مناصب أساتذة مساعدين إذا شغلها المصريون ؟ ثم فقيم التضيق على الموظفين أو بعبارة أدق على بعض الموظفين هؤلاء الذين توقفت حقوقهم في العلاوات والترقيات رغبة في الاقتصاد ، وإشفاقا على خزانة الدولة من العسر ، بل من الإفلاس ، ثم لا يمن الله عليهم باستثناء من هذه الاستثناءات التي تسقط على بعض الموظفين الآخرين ، كما يسقط الندي على أزهار الربيع .

أقبل الناس بعضهم على بعض يتساءلون : فقيم هذا كله إذا كانت خزانة الدولة مكتظة بالمال إلى هذا الحد ؟ وأقبل بعضهم على بعض يتحدثون أيضا بأن من الفلاحين من يبيع ماشيته ليؤدي المصروفات عن أبنائه ، وبأن من الفلاحين من يبعث حتى آنيتهم اليسيرة لأداء الضرائب ، وبأن من الفلاحين من عبث بأجسامهم السياط فزقتها تمزيقا ، ومن عبث بقلوبهم اللوعة فحرقها تحريقا ، وبأن من الفلاحين من شد بعضهم إلى بعض في حبل وسيقوا إلى مركز الشرطة ، تلهب جلودهم السياط إن تلكأوا وأبطأوا ، وبأن من أهل المدن من تضيق بهم الحال ، وتقطع بهم أسباب العيش

حتى إنهم ليقضون بياض النهار، وسواد الليل لا يجدون ما يأكلون ، ولا يجدون ما يلهون به صغارهم عن ألم الجوع . وبأن هذا الحرمان المنكر قد أخذ يعيث بالناس في بعض أحياء القاهرة حتى ظهر فيها التيفوس ، وحتى هجم هذا التيفوس على مستشفى القصر العيني وكلية الطب فأصاب فريقا من الأطباء . ونفرا من الطلاب والطالبات ، وبأن كثيرا من الأغنياء الذين لم يعرفوا البؤس قد ذاقوا مرارته ، وتجرعوها واحتملوا ألوانا من الذل في الاقتراض ، يلتمسون في هذا المصرف فيأباه ، ويلتمسونه في ذلك المصرف فيردهم خائبين . وما تعودوا قط أن يسألوا ، وما تعودوا قط أن يدوقوا ألم الرد والاعتذار .

أقبل الناس بعضهم على بعض يتساءلون : فيم هذا كله إذا كانت خزانة الدولة غنية هذا الغنى ، ثرية هذا الإثراء ، موفرة الحظ . لا من الألوف ، ولا من مئات الألوف ، بل من الملايين ... ! وأخذ بعضهم يجيب بعضا بطائفة من الأجوبة لايسر الحكومة أن تعرفها لو أن الحكومة تشعر بما يشعر به الشعب من ألم ، ولو أن الحكومة تجد ما يجد الشعب من أذى ، ولو أن الحكومة تحسب لما يدور في نفس الشعب حسابا .

قال بعضهم إن الانجليز تعصرهم الأزمة ، وهم يعصرون الحكومة المصرية كما قالت الأهرام منذ أسابيع . والحكومة مضطرة أن تعصر الشعب ، فما تستصفيه من هذه البقرة الحلوب التي تسمى مصر ، يستصفيه منها الانجليز فيما يريدون أن ينهضوا به من الأعمال في السودان ، وفي الحبشة .. !

وقال بعضهم إن ذاكرة المصريين قصيرة ، فهم قد نسوا أن الصحف الانجليزية في الصيف الماضي ، وفي الخريف الماضي تحدثت فأطالت الحديث عن وزير الأشغال السابق ، وعن بعض المقاولين ، وعن مشروعات هائلة للرى وغير الرى ستنفق فيها الملايين والملايين . فلم يكن بد إذن من أن تهباً الأموال وتدخر حتى إذا تهباً الانجليز للأخذ في هذه المشروعات كانت الأموال 'مهياة' مرصدة ، فانتفعت الشركات الانجليزية واندفعت

إلى الانتفاع ، ووجدت منها الوزارة المصرية في بلاد الانجليز أعوانا لها
على البقاء في مناصب الحكم !

وقال بعضهم الآخر : ليس المصري قصير الذاكرة فحسب ، ولكنه
سريع الانخداع ، تعبت به الألفاظ وتسهيويه الوعود ، فيصدق ما لا يجب
تصديقه ، ويؤمن بما لا يجب الإيمان به . زعموا أن طرائق الحكم في هذا
العصر الحديث قد تغيرت فأصبح الشعب لا يستغل ولا يستذل ، ولا يسخر
لمنفعة سادته ومواليه ، وإنما تدبر أموره لنفسه ، وتجي منه أمواله لترد
عليه - ورأى المصري هذا واقعا في البلاد الأوربية ، وسمع أن بلده قد
أصبح جزءا من أوربا فأنخدع وظن أن أموره ستجرى كما تجرى أمور
الأوربيين ، وأن وزارته قد قامت لتخدمه ، لا لتظلمه ، وأن أمواله تجي
منه لتنفق عليه ، وترد عنه السوء إن تورط فيه ، حتى إذا كانت هذه
الأيام السود ، نظر إلى الوزارة فإذا هي تقطب له الجبين . ودعا الوزارة
فإذا هي تضع الأصابع في الآذان ، وألح على الوزارة فإذا هي تعلن الفقر ،
وتعلن الإعدام ، وتلح في إعلانها ! ثم لم تكتف الوزارة بالتقطيب له
والإعراض عنه ، والإباء عليه ، بل أقبلت عليه تستعينه على أزمته ، وتلتمس
منه أن يكشف عنها ضرر الفقر والإعدام ، فلما عجز عن ذلك كذبت وعذبت ،
واضطرت إلى أن يكون عندما تريد ! وقد احتمل التكذيب ، وخضع
للتعذيب ، وأدى من راحته وأمنه ودمه ما طلب منه ، ثم نظر فإذا هو
بائس ، وإذا الحكومة ناعمة ، وإذا هو معسر والحكومة موسرة ، وإذا هو
يلتمس القرش وبعض القرش إن كان فقيرا فلا يجده ، ويلتمس الجنيه
أو بعض الجنيه إن كان غنيا فلا يظفر به ، وإذا الحكومة قد وفرت ثلاثة
ملايين ونصف مليون في أقل من عام ... !

ظن المصري المخدوع أنه يحكم لنفسه ، فإذا هو يحكم لغيره ! واعتقد
المصري المغرور أن الوزارات قد قامت لتخدمه ، فإذا هي قد قامت
لهضمه ! وآمن المصري الغافل بأن طرائق الحكم قد تغيرت ، وبأنه قد

أصبح سيدا راشدا مالكا لأمره ، فاذا طرائق الحكم هي هي كما كانت
في العصور القديمة ، تغيرت أشكالها ولم تتغير حقائقها ، وإذا هو كما كان
في العصور القديمة مسود قاصر ، لا يملك لنفسه نفعا ، ولا يدفع عن نفسه
ضرا . وإنما أموره كلها إلى سادته المعصومين ، الذين يقضون في أمره
وفي أمواله كما يريدون ، لا كما يريد !

تحدث الناس بعضهم إلى بعض بهذه الأحاديث المرة التي تقطع لها
القلوب ؛ وتتصدع لها الأفتدة ، وتذوب لها النفوس . وزاد أحاديثهم
مرارة ، وآلامهم لدعا أن الوزارة تفاخر بهذا الاقتصاد ، وأن صحيفة
الحكومة تتمدح بهذه الثروة الحكومية ، والشعب معسر معوز معدم ،
تلفحه الفاقة ، ويحرقه الجوع . وأصبح الناس اليوم وسيمسى للناس اليوم ،
وسيصبحون/غدا ويمسون ، وفي مصر صوتان يسمعها الشعب : صوت
ينكر غنى الحكومة وبؤس الأمة ، وصوت يحمد غنى الحكومة ويراه
منخرة لرئيس الوزراء . وهذان الصوتان يقعان من نفس الشعب مواقع
مختلفة ، ولكنها كلها تنتهي إلى نتيجة واحدة ، وهي إحساس الشعب
بأنه بائس تعس ، مستغل مستذل ، يرثى له قوم ، ويسخر منه قوم
آخرون ! ونتيجة هذا الاحساس المؤلم الذي يجده الشعب ، والذي يتغلغل
في طبقات الشعب كلها سيئة منكرة ، يعرفها رئيس الوزراء ، ويقدرها
إذا خلا إلى نفسه ، ولكنه لا يريد أن ينزل عندما تقتضيه من المواقف
وعندما تدعو إليه من الاستقالة والتنحي عن الحكم لقوم آخرين هم أرفق
بالشعب وأعطف عليه ، وأرحم له من أن يدعو في هذا البؤس والعسر
والفاقة ، بينما تقتصد الحكومة ثلاثة ملايين ونصف مليون . . . !

كل شيء في مصر الآن مؤلم محرج ، يثير حفيظة الشعب ، ويملا
قلبه مرارة وحزنا . حكومته غنية وهو فقير ، حكومته مترفة وهو
بائس ، حكومته مسرفة وهو لا يجد ما يتفق . ثم يفكر الشعب فيرى
رئيس وزرائه يستمتع بما لا يستمتع به المصري العادي ، يعمل أشهراً
ويقتضى أجر سنة ! ومع ذلك فبين المصريين من يعملون ويجلون ثم

لا يقتضون شيئاً ! وبين المصريين من يصيبهم المرض فإذا ظهر أنه مانع من العمل أبعادوا عن أعمالهم ، وإذا ظهر أن علاجه قد يطول انقصت أجورهم ، فما بال رئيس الوزراء لا يكون كغيره من الناس ؟ ما باله لا يعتزل العمل إن كان مرضه لا يمكنه من المضي فيه ؟ وما بال أجره لا ينقص كأجر غيره من الموظفين إن كان علاجه يحتاج إلى زمن طويل ؟ وما بال مصالح الدولة كلها توكل إلى من لا يستطيع أن ينهض بها أو يقوم عليها ؟

الله يشهد ما نحب لرئيس الوزراء إلا أن يكون كغيره من الناس في كل شيء ، في نتائج الصحة ، وفي نتائج المرض ، وفي نتائج القدرة وفي نتائج العجز .

كل شيء مؤلم ممض في مصر الآن ، حكومة غنية ، وشعب بائس . رئيس وزارة يمتاز في مرضه من بقية الناس ، بل من بقية رؤساء الوزارات ، وموظفون في الدواوين يوكل بكل منهم الخادم والخدامان . والمصريون خارج الحكومة يجدون ويجهدون ، ويحملون ألوان المكروه لعلهم يعيشون فتضيق بهم الحياة ، وتتقطع بهم الأسباب ، وتفتح أمامهم أبواب من اليأس فإذا نظروا منها رأوا من الآثام والسيئات ما لا نحب أن نتحدث عنه أو أن نفكر فيه . . . !!

(٣٧)

أنباء

يجب (١) أن يعترف خصوم رئيس الوزراء وأصدقائه بأنه رجل جلد ، طويل الجلد ، صبور طويل الصبر ، لا يعنيه يأس ولا أمل

(١) ٢٥ - ٤ - ١٩٣٣ ، عدد ٢٣٧٤

ولا يؤثر في نفسه قنوط ولا رجاء . وإنما هو الحكم والحكم وحده ،
قد أراد فظفر به حتى إذا استقر فيه أقسم ليتعلق به ما قدرت يده على
أن تمسك الأزمة ، وتقبض على الأعنة . فحينئذ تنحرف عليه الدواعي إلى
الاستقالة فلن يسمع لها . ومنها تلج عليه البواعث على الاعتزال فلن
يحتفل بها !

وقد بر بقسمه فهو قائم في مكانه لا يبرح ، يفسد كل شيء من
حوله في مصر فلا ينجف ، وينعكس عليه كل شيء في إنجلترا فلا يثب .
وتأنيبه النذر من كل مكان وكأن شيئاً لم يأت ، وكأن نذيراً لم يصل إليه !
لم يكد يستقر في الحكم حتى حاول المفاوضات فقبل له حتى تمنحك الأمة
ثقتها ، وتنصبك معرباً عنها ، متحدثاً بلسانها .

واجتهد في أن يظفر بهذه الثقة فلم يجد إليها سبيلاً ! فكانت قصة
الانتخاب وما أدراك ما قصة الانتخاب ، حتى إذا تهيأت الأسباب واجتمع
الشيوخ والنواب ، سعى الرجل إلى المفاوضة ، فأخذ الإنجليز يرجئونه
من شهر إلى شهر ، ومن عام إلى عام حتى إذا أسرف في الإلحاح ، وأغرق
في الإلحاف ، أرجأوه إلى أجل غير مسمى ، وهم يعتذرون بكثرة
العمل عندهم حينئذ ، وبسوء الحال عندنا حينئذ آخر . وهم يبينون له في
كل حال وهو يفهم عنهم وكأنه لا يفهم (١) أن ليس إلى المفاوضة معه من
سبيل ، لأنه لا يمثل مصر ، ولا يستطيع أن يتحدث عنها ، ولا يستطيع
أن يلتزمها إذا التزم ، ولا يستطيع أن يأخذها بتنفيذ ما يقبل من معاهدة ،
وإبرام ما يمضي من اتفاق ، ولكن رئيس الوزراء ذكي ماهر ، يفهم
وكانه لم يفهم ، ويسمع وكأنه لم يسمع ! فالإنجليز يرفضون وهو يطلب

(١) صرح صدقي باشا لمكاتب صحيفة التيمس البريطانية بأنه سينتظر أقرب فرصة
لاستئناف المفاوضات - الأهرام في ١٥ - ٧ - ١٩٣٠ ، وألح في ذلك طوال
مدة حكمه . وعين حافظ عفيفي باشا وزيراً مفوضاً في لندن لهذا الغرض ، ولكن
الإنجليز رفضوا إجراء مفاوضة معه .

ويستأنف الطلب . والانجليز يأبون وهو يلح ويسرف في الإلحاح ! وما يزالون في إياهم ، وما يزال في إلحاحه حتى تنه قواه ، وتنقطع به الأسباب . وإذا هو مريض لا يقدر على العمل ولكنه على ذلك يقدر أن يطلب المفاوضات ويجد في الطلب ، ويصوغ اقتراحات يقدمها إلى المندوب السامي ، ويسافر بها هذا المندوب إلى لندرة ليعرضها على رؤسائه في وزارة الخارجية . ويلح المقربون إلى رئيس الوزراء عليه في أن يؤثر نفسه بالصحة والعافية ، ويدع الحكم لمن يستطيع النهوض به ، ولكن بين رئيس الوزراء وبين لندرة أسبابا من الأمل تحمله على ألا يسمع لنصح الناصحين . وعلى أن يبقى في الحكم لعل اقتراحاته أن تقبل ، ولعله أن يمضي معاهدة مع الانجليز ، ولعله أن يخرج من الحكم مخرجا حسنا ، ولعله أن يسجل في كتاب استقالته أنه أتم مهمته فأحدث للبلاد نظاما جديدا ، وعقد للبلاد اتفاقا مع الانجليز ، ولكن اقتراحاته ترفض في لندره وتعلن وزارة الخارجية كما يحدثنا مكاتب الأهرام صباح اليوم أن نبأ المفاوضات (١) مع صدقي باشا لا أصل له مطلقا . ويفسر مكاتب

(١) كان بعض الانجليز ، ومنهم المندوب السامي البريطاني في مصر يرون من الممكن أن تجرى مفاوضات مع إسماعيل صدق وتعتقد معاهدة ، كما فعلت إنجلترا مع نوري السعيد في العراق . وبعضهم عارض الفكرة معارضة شديدة . لأن الجيش الذي رغبت إنجلترا في إبقائه في مصر بحجة الدفاع عن قناة السويس لا أثر له في العراق . ولم تقبل العراق بوجود مستشارين لإنجليز في الوزارات كما أريد من مصر . والعراق ليس لها سودان تطمع فيه إنجلترا وتجعله الصخرة التي تنحطم عليها المفاوضات . وليست بها امتيازات أجنبية ومحكم مختلطة يتطلب للغاها مفاوضات دولية شاقة . وهي غير مدينة لأحد فتتخذ إنجلترا من هذا الدين حجة لمراقبة مالياتها . وحتى المطارات التي حصلت إنجلترا على حق استخدامها في العراق كان يشرف عليها عراقيون .

فمن هنا قويت حجة المعارضين للتفاوض مع إسماعيل صدق ، وأعلنت إنجلترا أخيراً أن المعاهدة يجب أن يصدق عليها برلمان يمثل الشعب .

الأهرام هذا الإعلان بأن وزارة الخارجية قد رفضت اقتراحات صدقي باشا
في أدب وظرف ، كما تعودت دائماً !

ومن الحق على وزارة الخارجية لصديقها المريض أن ترفق به ،
وتعطف عليه ، فلا ترده في عنف ، وإنما تأني ما يريد ، وتعلن أن
لم تكن بينها وبينه مفاوضات ما . ومهما يكن من شيء فقد فشل رئيس
الوزراء فيما كان يريد من مفاوضات الإنجليز للمرة السابعة أو الثامنة ، أو
العاشرة إن شئت ! ولم يبق له أمل ما في أن يعيد الكرة ويستأنف الطلب ،
ويأمل في المستقبل القريب أو البعيد . لأن كل شيء يحول بينه وبين
الأمل ، فلم يضعف مركزه السياسي في مصر كما ضعف في هذه الأيام
وصحته مع الأسف لا تمكنه من أن يحاول تقوية مركزه واسترجاع قوته
السياسية .

ند عليه كل شيء ، وأفلت من يده كل شيء ، وأصبح بقاؤه في
في الحكم لغوا من اللغو ، وفنا من فنون العبث ! وأكبر الظن أنه إنما
يبقى في الحكم حتى تنهأ الأسباب للذين كانوا يؤيدونه أمس ، لعلهم
يجدون من يخلفه اليوم أو غدا .

ومهما يقل أصدقاء رئيس الوزراء ، ومهما تقل أبواقه فلن يستطيع أحد
أن يخدع المصريين عن أن بقاء صدقي باشا في الحكم الآن إنما هو تعلقة
ليس غير . وقد تبقى هذه التعلقة أياما ، وقد تطول أسابيع ، وقد تزول
فجأة ، ولكن نزول رئيس الوزراء عن الحكم في وقت قريب أمر لا بد
منه ، ولا مندوحة عنه ، لأنه النتيجة المحتومة الملائمة لطبيعة الأشياء في
مصر وفي بلاد الإنجليز .

كل شيء مضطرب حول رئيس الوزراء في مصر . الشعب منصرف
عنه منذ نهض بالحكم ، ولكن انصراف الشعب عنه قد اشتد حتى انتهى
إلى أقصاه . وآية ذلك أن وزارته تفزع من كل شيء ، وتعيء الجيش
والشرطة استعدادا لأيسر الأشياء وأقلها خطرا . والإنجليز قد نفضوا

أيديهم منه، وأكذبوا أنهم لن يفاوضوه ، وأكذبوا مرة أخرى أنهم مستعدون للمفاوضة ولكن مع الوزارة التي تمثل مصر ، وتعرب عن إرادتها ، وتحدث بلسانها : وتعاهد فتنفذ مصر ما عاهدت عليه .

وإذن فأمر الوزارة القائمة مفروغ منه رغم ما ستقوله صحيفة صدق باشا غدا وبعد غد ، وإلى أن يتقدم رئيس الوزراء باستقالته إلى صاحب الحلالة الملك . وكل يوم من الأيام المقبلة خليك أن يغلق فيه باب ، ويفتح فيه باب آخر ، وأن تطوى فيه صفحة وتنتشر فيه صفحة أخرى . وسيودع المصريون غدا أو بعد غد وزارة أذاقهم ألوان الألم وصروف الحزن . وسيدكرون وسينسون ، ولكنهم على كل حال سيطوون صفحة أمس ، وسينظرون في صفحة غد . سيودعون عهدا ويستقبلون عهدا آخر . وإذا كان التذكير ينفع فإن التحذير ليس أقل منه نفعا .

وأكبر الظن أن هذا النبأ الذي أذاعته الأهرام صباح اليوم سيوقظ آمالا نائمة ، ويجدد نشاطا قد فتر بعض الشيء وستهباً الأحلام وتأخذ زينتها ، وتشكل بأشكال مختلفة أشد الاختلاف ، ولكنها مغرية أشد الإغراء على كل حال . وستلم هذه الأحلام ببعض البيئات وستراءى هذه الأحلام لبعض النفوس ، وسيهباً قوم للوزارة وإن لم تسع إليهم بعد . وسيستعد قوم للحكم وإن لم يدعهم الحكم إليه بعد . وستكثر الأحاديث ، وسيشتد الجدل .

فمن الحق أن نذكر المصريين ، ومن الحق أن نحذرهم ، ومن الحق على المصريين أن يحذروا ، فمهما يكن ضيقهم بالوزارة القائمة شديدا ، ومهما يكن احتمالهم للوزارة القائمة ثقيل ، فإن من الحق عليهم لأنفسهم ألا يتعجلوا زوال الشر ليقعوا في شر آخر قد يكون أشد منه نكرا ، وأقبح منه أثرا . وخير لهم أن تطول المحنة على ما هي فيه من ضعف ووهن واضطراب من أن يخيل إليهم أنها زالت فإذا هي تتجدد ، وأنها انجلت فإذا هي تستأنف نشاطها قويا عنيفا .

يجب أن يذكر المصريون ماذا ينكرون من وزارة صدقي باشا ، ويجب أن يعرفوا ماذا يريدون حين يتمنون أن تستقيل هذه الوزارة ، فهم ينكرون تغيير الوزارة القائمة للدستور ، وهم يريدون أن يعود إليهم هذا الدستور . وهم ينكرون بطش الوزارة القائمة بالحرية ، ولسنا نريد حرية الأفراد وحدها ، وإنما نريد حرية الأمة كلها . نريد الحرية البرلمانية ، نريد الحياة النيابية كلها . وهم يريدون أن ترفع عن الحرية هذه الأغلال والقيود ، وأن تعود حياتهم السياسية كما كانت يوم نهض رئيس الوزراء فألف وزارته .

يجب أن يذكر المصريون هذا كله ، وألا يخذعهم عنه الأمل في زوال المحنة ، وألا تلهيهم عنه الأحاديث والأمانى . هذه الأهرام قد عادت تذيع تفكير الإنجليز في الوزارة القومية ، وأخذت تتحدث عنها ، وتعلن أنها لا تريد منذ الآن أن تدعو إليها لأنها مع إيمانها بأنها ضرورة من ضرورات الحياة المصرية الآن ، تكره تزيينها والترغيب فيها بعد أن دعت إلى ذلك فساعت بها الظنون . وهذا نوع من الدعوة إلى الوزارة القومية ، فيه شيء من المهارة واللباقة ، وفيه شيء من الاحتياط والاستحياء . ومن المحقق أن صحفا أخرى ستذكر الوزارة القومية ، وستدعو إليها وستلح في ذكرها والدعوة إليها . ومن المحقق أن أحدا لن يرفض هذه الوزارة القومية ، ولكن بشرط أن تكون نتيجة لإرادة الأمة حرة طليقة ، لا شرطا يمليه الانجليز لتغيير الموقف السياسى الذى نحن فيه .

لن يرفض أحد فكرة الوزارة القومية إذا استفتيت فيها الأمة فأفتت بها ، وإذا دعيت إليها الأمة فأجابت إليها . فأما أن تملى هذه الوزارة القومية على الأمة إملاء من ناحية من النواحي ، أو ناد من الأندية ، أو من حزب من الأحزاب فلن يبسم لها أحد ، ولن يستجيب لها أحد ، ولن يقبل عليها إلا الذين يفكرون فيها ويدعون إليها .

يجب أن يذكر المصريون أنهم ليسوا هم الذين أنشأوا هذه الأزمة السياسية القائمة ، وإنما أنشأها غيرهم ، فيجب على من أنشأها أن يحلها ، وليس لها حل إلا أن ترد الأمور كما كانت يوم نهض صدق باشا بأعباء الحكم . هنالك وهنالك فحسب يمكن أن تستشار مصر في الوزارة القومية ، وأن يجرى الأمر في هذه الوزارة القومية على حكم الدستور ، لا على شيء آخر .

نظن أنه ليس في هذا الكلام لبس ولا غموض ، ونعتقد اعتقادا لا سبيل إلى الشك فيه أنه يصور تصويرا صادقا رأى كثرة المصريين الذين سيرد إليهم الأمر كله اليوم أو غداً .

(٣٨)

العفو

إذا مرض الممثلون (١) انصرفوا عن التمثيل ، وإذا مرض المغنون كفوا عن الغناء ، وإذا مرض اللاعبون أعرضوا عن اللعب ، وإذا مرض الوزراء تعلقوا بالوزارة وتهالكوا عليها ، وشدوا أجسامهم إلى كراسيها بأمراس من الكتان كما يقول امرؤ القيس .

ومن الممثلين والمغنين من يعتزلون التمثيل ويكفون عن الغناء قبل أن تتقدم بهم السن ، ويدركهم الضعف لأنهم يعلمون حق العلم أن لكل شيء أمدا لا يتجاوزه ، وحدا لا يعده . وإنهم إن مضوا في التمثيل والغناء حتى يدركهم الضعف عجزوا وقصروا وأثاروا في النفوس عاطفتين مختلفتين : عاطفة السخط عند قساة القلوب المؤثرين لأنفسهم باللذة والمتاع ، وعاطفة الرحمة والإشفاق عند رفاق الأفتدة ، الذين يؤثرون الضعفاء بالعطف والرثاء .

(١) ٢٧ - ٤ - ١٩٣٣ عدد ٢٣٧٥

وقد رأينا الممثلة الشهيرة «مارتية» تترك بيت مولير سنة ١٩١٧ وهي في أوج مجدها ، لأنها كرهت أن تتقدم بها السن فيتحول إعجاب الناس بها رثاء لها ، أو سخطا عليها . ورأينا «سلفان» الممثل العظيم يبق في بيت مولير على تقدم سنه حتى يلقاه قوم بالرثاء ، وآخرون بالصغير والعداء .

وكذلك رأينا من رؤساء الوزارات من يحس الضعف أو تعطل صحته اعتلا لا يسيرا فيستقيل حتى لا تتعرض مصالح الدولة للخطر، وحتى لا تصبح كفايته مثارا للقال والقليل . ورأينا منهم قوما آخرين يلم بهم المرض فيطيل الإلمام ، وينزل بهم الضعف فيطيل الإقامة ، فلا يستقيلون ولا يستمعون لنصح الناصحين لهم بالاستقالة . وإنما يحتفظون بمناصبهم وكأنهم لا يكرهون أن يكون المرض لهم رفقا في طريقهم هذه التي يسلكونها في بطاء حتى ينتهوا إلى غايتها وهي اعتزال الحكم راضين أو كارهين .

رأينا من الممثلين أولئك وهؤلاء، ورأينا من رؤساء الوزارات أولئك وهؤلاء، واثارت في نفوسنا لأولئك وهؤلاء عواطف الرحمة حيناً، وعواطف الضيق بهم والسخط عليهم حيناً آخر . وكم كنا نحب أن يكره رئيس وزرائنا لنفسه أن يثير هذه العواطف أو تلك . فهذه الصحف قد أخذت أمس واليوم تعلق اضطرابه وتهافته أمام تلك البرقية التي نشرتها الأهرام أول أمس ، واستلحقها البلاغ أمس بأن صحته قد ضعفت ، وأعصابه قد وهت فأصبح عاجزا عن المقاومة ، قاصرا عن ضبط النفس والسيطرة على الأمور . ولو قد كان صحيحا قويا موفورا النشاط ، مسيطرا على نفسه وعلى غيره أيضا ، لما احتاج إلى هذا التصريح الطويل الذي أذاعه في الصحف أمس ، والذي لا يثبت شيئا ولا ينفي شيئا، ولا يدل إلا على شيء واحد، هو أن الأمور قد أفلتت منه ، وتفرقت عليه ، فلا يستطيع لها ضبطا ولا تصريفا ! والناس يزعمون أن من أشد أعراض المرض الذي نرجو أن يبرىء الله منه رئيس الوزراء ، النسيان واعوجاج التفكير، والعجز عن

حسن الاستنباط . وقد كان جماعة منهم يتحدثون أمس في تصريح رئيس الوزراء ، ولم يكونوا جميعا من خصوم الرئيس ، ولم يكونوا جميعا من أصدقائه ، وإنما كان منهم من يخاصمه ، وكان منهم من يؤيده ، ويسرف في تأييده . وكانوا جميعا ينكرون هذا التصريح ، ينكره بعضهم في سخط وهم الأصدقاء ، وينكره بعضهم الآخر في إشفاق وهم الخصوم . ووقفوا جميعاً عند آخر هذا التصريح حين يتحدث رئيس الوزراء عن أسطورة الوزارة القومية ، فيضع لهذه الوزارة شروطا وقيودا كتلك التي وضعها السير برسي لورين منذ عام ، والتي نشرتها الافريكان ورلد ، وتحدثت عنها الأهرام ، وخاضت فيها الصحف منذ أسابيع ، والتي تحتم على الذين يميلون إلى الوزارة القومية أن يؤمنوا بالدستور الجديد ، ويذعنوا لمنفذه ، ويضعوا أيديهم في أيدي هؤلاء المنفذين ، والتي ترى أن في البلاد دستوراً يجب أن يطاع ويحترم . وأن هذا الدستور يقتضى ألا تؤلف الوزارات القومية إلا على اتفاق مع الأحزاب البرلمانية القائمة ١

وقف هؤلاء الناس عند هذا الموضع من تصريح رئيس الوزراء ، فضحك بعضهم منه ، ورثى بعضهم له . وقال بعضهم لبعض : لقد نهض رئيس الوزراء بالحكم منذ ثلاثة أعوام ، وفي مصر دستور قائم كان رئيس الوزراء ممن أقسم بمين الاخلاص له والوفاء بحقه . وفي مصر برلمان أنشأه هذا الدستور ، وكان من الحق على كل من يؤلف الوزارات أن يتفق مع أحزابه ، ويجد في الظفر بثقته والوصول إلى رضاه . فما بال رئيس الوزراء لم يرع هذا الأصل الدستوري يوم ألف وزارته ؟ ما باله لم يذعن للدستور ولم يرع حرمة ؟ وكان قد أقسم ليدعن له ، وليرعين حرمة . ما باله لم يقم وزارته على رضا البرلمان والاتفاق مع أحزابه ؟ ما باله ألغى ذلك الدستور ، واستحدث مكانه دستورا آخر ، وصرف ذلك البرلمان وأقام مكانه برلمانا آخر ؟ أكان يومئذ يؤمن بأنه يقترف إثما ، فن أظلم من الذين يقترفون الإثم وهو يعلمون أنهم آثمون . أم كان في ذلك اليوم يؤمن بأنه إنما يأتي أمراً مباحا ، فما بال هذا الأمر يباح له ويحرم

على غيره ؟ ومن الذى زعم أن مقاييس الأخلاق والتانون والنظام تقصر على رجل دون رجل ، وعلى فريق دون فريق فترى خيراً ما يأتيه صدق باشا ، وترى شراً ما يأتيه غير صدق باشا .

إن الذين يشرعون للناس هذه السنن السيئة خليقون أن لا يغضبوا ولا يسخطوا حين يلقاهم الناس بما شرعوا لهم من شر . إن الذين يفتحون للناس أبواب الخروج على النظام والاعتداء على الدستور ، خليقون ألا يجزعوا حين يدخل الناس من هذه الأبواب التي فتحوها ، فيهبثوا أنفسهم ليحدثوا مثل ما أحدث السابقون لهم ، والدافعون لهم إلى الشر . إن الذين يعرضون للنظم القائمة فيبدلون فيها ويغيرون لا لشيء إلا لأنها لا تلائم آراءهم وميولهم ومنافعهم ، خليقون أن يعلموا أنهم يفرضون على أمة كاملة هذه الآراء الخاصة والميول الخاصة والمنافع الخاصة ، فهم خليقون أن يلقوا من غيرهم مثل ما لقي غيرهم منهم ، فضلاً عن أن تحاسبهم الأمة على ما أهملوا من منافعها وما ضيعوا من حقها ، وما أهملوا من كرامتها .

لقد شرع رئيس الوزراء للطامعين في الحكم والمتهاككين عليه سنة إلغاء الدستور ، وصرف البرلمان . فلا ينكر أن ينجم في مصر من أصدقائه أو من خصومه من يفعل اليوم بالدستور الجديد والبرلمان الجديد مثل ما فعل هو أمس . وما دام الطمع في الحكم والطموح إلى السلطان والجشع إلى المناصب وما تغل من ثروة وجاه ، ما دام هذا كله يبيع للناس أن يحنثوا في الأيمان ، وأن يلغوا المواثيق والعهود ، وأن يضعوا دستوراً مكان دستور ، ويدعوا برلمان مكان برلمان ، فقد فتح على الأمة باب شر عظيم ، وقد وضعت حياة الأمة على شفاهة عميقة توشك أن تردى فيها بسياستها وأخلاقها ونظمها الاجتماعية ، إذا لم يكن لها من الصبر والثبات وضبط النفس والأمل في المستقبل والثقة بالله ما يعصمها من السقوط .

تحدث أولئك الناس بهذا كله وقال بعضهم لبعض : لولا أن رئيس الوزراء مريض لما نم على نفسه بهذا الحديث . وقال بعضهم لبعض لولا

أن رئيس الوزراء مريض لما قال في نفسه بلسانه وفي صحيفته ما يقول خصومه فيه منذ ثار بالدستور فألغاه ، ومنذ ثار بالبرلمان ففرقه ، ومنذ ثار بالحرية فألقاها في أعماق السجون وقيدها بأثقل القيود والأغلال .

ولولا أن رئيس الوزراء مريض لما أنكر على خصومه ما أباحه لنفسه ، ولما نهى الناس اليوم عما كان يدعوهم إليه منذ أعوام . فإلام كان يدعو رئيس الوزراء حين ألف وزارته ؟ كان يدعو إلى الثورة بالدستور وكان يدعو إلى الخروج على النظام . ولو أنه دعا إلى ذلك وألح فيه قبل أن يتولى الوزارة ويظفر بنصر الإنجليز له ، وتأيدهم إياه لكان حق الحكومة القائمة يومئذ أن تقفه أمام القضاء ليسأله عن ثورته بالدستور ، وخروجه على النظام ، ولكنه فعل ذلك وهو رئيس الوزراء فعل ذلك وأزمة الحكم في يده . فعل ذلك وقوة الدولة مسخرة له فلم يستطع أحد أن يقفه أمام القضاء ، ولا أن يأخذه بما فعل . وإنما استطاع معارضوه الذين كانوا يومئذ وما يزالون ينصرون القانون ، ويؤيدون الدستور ، ويرعون حرمة النظام . استطاع هؤلاء المعارضون أن ينكروا عليه سيرته وهم ما يزالون ينكرون عليه سيرته ، وقد لقوا منه وهم ما يزالون يلقون منه شرا عظيما وبلاء ثقيلا .

بهذا كله تحدث أولئك الناس أمس . ويستطيع رئيس الوزراء أن يثق بأن الناس يتحدثون بهذا وبأكثر منه ، وأن الناس سيتحدثون بهذا وأكثر منه ما دام مستأثرا بالحكم ، مسيطراً عليه . يستطيع رئيس الوزراء أن يثق بأن الذين يزينون له موقفه ، ويصورون له أنه منتصر على طول الخط ، وأن رأى الناس فيه حسن كل الحسن ، يخدعونه ويكذبون عليه . يستطيع رئيس الوزراء أن يثق بهذا ، وأن يرجع به على نفسه وأن يفكر فيه فيطيل التفكير . وهو إن فعل لم يلم هؤلاء الذين يحلمون بالوزارة القومية ويسعون إليها إن فكروا في أن ينتهزوا الفرص ويشبوا إلى الحكم دون أن يتقدموا إليه بالمودة ، أو يضعوا يدهم في يده .

فهم لم يريدوا ذلك حين كان قوياً ، فما أجدرهم أن لا يريدوا ذلك وهو ضعيف . وهم حين يتهيأون لتنجيته عن الحكم وخلافته فيه لا يزدون على أن يفعلوا مثل ما فعل ، لأن مقياس الحكم الآن في مصر قد أصبح مع الأسف الشديد بفضل صدقي باشا وأمثاله هو القوة ، والقوة وحدها دون النظام ودون الدستور .

أما مصر التي ينجم فيها الطامعون ، ويعبث بحريتها العابثون ، ويطمح إلى إذلالها الطامحون ، فهي ثابتة في مكانها ، لا تحب الكيد ، ولا تميل إليه . وهي تكره الحكم الذي يأتي من بعيد ، لا من قريب . والذي ينشأ عن العبث بالدستور لا عن الدستور . والذي لا يكون مرآة لإرادتها الحرة ، ورأيها المستقل ، وصورة عزتها وكرامتها .

مصر هذه تكره من رئيس الوزراء ما فعل ، ولا تريد أن تفعل كما فعل ، وإنما تحتفظ بإيمانها وحقها وكرامتها . وهي واثقة أن هذه الحرب الخفية الظاهرة بين الطامعين في الحكم ، والطامعين إليه ستضعفهم جميعاً ، وستستنفد قواهم جميعاً ، وستقر الأمر بعد قليل في نصابه ، وترده إلى أهله .

فليفكر رئيس الوزراء إن سمحت له صحته بالتفكير ، وليعمل رئيس الوزراء إن سمحت له قوته بالعمل ، وليجد رئيس الوزراء إن استطاع في أن يرد عن منصبه هذه النفوس التي تتصل به وتريد أن تثب إليه . هذه النفوس التي قرأت كلام رئيس الوزراء أمس ، واعتداده بقوته ، واشتراطه أن يضع الناس أيديهم في يده ليصلوا إلى الحكم ، فلم تزد على أن نطقت بهذه الكلمة التي تدل على شيء كثير من الإكبار والتقدير :
العفو ... !!

غرور

إذا (١) رأيت في النظام السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي شراً ،
واقنعت بأن إزالته واجبة ، وبأن إقرار الخير مكانه أمر محتوم ، كان
من حقلك أن تدعو إلى ما ترى . وكان من الواجب عليك أن تلج في
الدعوى لما ترى . وكنت آثماً في حق نفسك إن كتمت رأيك وأخفيت
على الناس . وكنت آثماً في حق الناس إن لم تدلهم على مواطن الشر في
حياتهم ، ولم ترشدهم إلى ما فيه المنفعة والخير .

هذه أوليات ينحيل إلى من يقولها أنه لا يقول شيئاً جديداً ، وينحيل
إلى من يسمعها أنه لا يسمع شيئاً طريفاً ، لأن ترديدها قد كثر بين الناس
في جميع العصور ، وفي جميع البيئات ، حتى سئمها القائلون والسامعون ،
ولكنها على ذلك ما زالت غامضة وما زال غموضها مصدر الشر الكثير في
في حياة الأمم والشعوب . ولعل غموضها مصدر ما نحن فيه الآن من فساد
واضطراب .

فقد نخطيء في الخلط بين الحق والواجب ، وقد نخلو في تقدير هذا
الحق وهذا الواجب . وقد يضطرنا هذا الخطأ ، وهذا الاسراف إلى أن
تريد الإصلاح فنسيء ، ونقصد إلى الهداية فنضل ، ونتعمد الارشاد
فتتورط في الاعتداء .

نقتنع بالرأى فيغرننا هذا الاقتناع ، وينحيل إلينا أننا نحن وحدنا
المصيبون ، وأن غيرنا جميعاً مخطئون . ثم لا نلبث أن يملكنا هذا الغرور
ويدفعنا إلى إهدار الحرية . وإذا نحن نحاول أن نفرض آراءنا على الناس

فرضا . وأن نكرههم على ما نحب لهم من الخير إكراها . وإذا نحن نزع
لأنفسنا العصمة ونبرئها من الخطأ ، ونقدس آراءنا تقديسا ، ونتخذ الذين
لا يشاركوننا فيها ، ولا يظاهروننا عليها أعداء ، ونسير فيهم سيرة الأعداء .

ولعلك حين تريد أن تفهم الأزمة التي اضطرنا إليها رئيس الوزراء ،
والذين يؤيدونه لم تجد لها تفسيراً غير هذا الغرور الذي يتورط فيه أصحاب
الآراء في السياسة والاقتصاد والاجتماع .

ظن رئيس الوزراء وأصحابه أن نظامنا السياسي القديم شر ، لأنه لم يكن
يلائم آمالهم وأطماعهم ومثلهم العليا في الحكم وتصريف الأمور . ورأوا أن
في هذا النظام أصولا يجب أن تزال ، وأن تقرر مكانها أصول أخرى . رأوا
أن الانتخاب العام المباشر لا يوصلهم إلى الحكم ولا يضمن لهم كثرة الشعب .
ورأوا أن سلطة البرلمان إذا اتسعت وبعدت حدودها لا تمكن من البقاء في
الحكم إن أوصلتهم إليه المصادفات ، ورفعتهم إليه الظروف ، فأرادوا
تخصيص الانتخاب وتضييقه . وأرادوا تقييد سلطان البرلمان والقص من
جناحه ، وحاولوا أن يدعوا إلى ذلك فلم يفلحوا ، وألحوا في المحاولة فلم
يستجب لهم أحد ، ولم يؤمن لهم إنسان .

وكان الإعراض عن معونتهم والانصراف عن دعوتهم مثيرين لسخطهم
على هؤلاء الذين يدعون فلا يستجيبون ، ويلج عليهم في الدعاء فلا يحفلون .
وزادهم هذا السخط إيمانا بآرائهم وثقة بها ، فألحوا فيها وأصروا عليها .
وما هي إلا أن اغتروا بهذه الآراء ، وأسرفوا في الغرور ، فاعتقدوا أنها
وحدها الحق ، وأنها وحدها الخير . وأن غيرها باطل ، وأن غيرها شر .
ثم أخذوا يفكرون ويقدررون ، وجعلوا يهيئون ويدبرون ليفرضوا آراءهم
هذه على الناس فرضا ، وليدفعوا الناس إلى آرائهم هذه كرها بعد أن أعياهم
الإقناع ولم يواتهم الدعاء الهادئ المطمئن .

هنالك أحكم التدبير ، ووثب رئيس الوزراء إلى الحكم فثار بالدستور
القديم ، وفرق البرلمان القديم ، واستحدث ما استحدث من نظام ، وأجرى

ما أجرى من انتخاب ، وصرف أمور مصر كما يصرفها منذ نهض بالحكم في قوة وعنف ، وفي إكراه للشعب على ما يريد هو ، وإرغام للشعب على ما يحب هو .

وكانت في أوروبا حركات إصلاحية ، ظاهرها القوة والشدة ، فما أسرع ما وجد رئيس الوزراء لنفسه الأشباه والأنداد ، وما أسرع ما قارنه أنصاره بموسوليني في إيطاليا ، وهم الآن يقيسونه إلى هتلر في ألمانيا . ومع ذلك فلم يكن رئيس الوزارة يوم ألغى الدستور إلا خارجا على النظام ، مسيئا إلى القانون ، ومسيئا إلى الأمة كلها . ذلك أن الإصلاح السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي لا ينبغي أن يفرض على الناس فرضا ، ولا أن تؤخذ به الجماعات وهي كارهة له ، معرضة عنه . ولا أن ترغم عليه الشعوب بقوة الحديد والنار ، بل لا ينبغي للمصلح أن يمس الذين يريد إصلاحهم بشيء من الأذى قليل أو كثير حين يعرضون عما يحمل إليهم من إصلاح . وإذا لم يكن بد من أن يصيب الأذى في سبيل الإصلاح أحدا من الناس فانما يجب أن يصيب المصلحين أنفسهم ، ويجب على هؤلاء المصلحين أن يوطنوا أنفسهم على احتمال الأذى والتعرض للمكروه ، بل للموت أحيانا في سبيل ما يدعون إليه من إصلاح .

وربما كانت هذه الأيام التي تبتدىء العام الهجري الجديد ، وتذكر المسلمين بتاريخهم حافلة بالعبر والعظات لمن أنساهم الغرور ، فوجب عليهم أن يتذكروا ، فإن الداعي إلى الإسلام ، والمؤسس لهذه الدولة الإسلامية لم يؤذ أحدا ، ولم يفرض على الناس دينه فرضا ، ولم يأخذهم بهذا الدين كرها ، وإنما دعا الناس إليه رفيقا بهم ، محبا لهم ، شفيقا عليهم . ولقى منهم في سبيل هذا الرفق عنفا ، وفي سبيل هذا الحب بغضا ، وفي سبيل الإشفاق قسوة وعتا . وما زال يدعوهم إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادلهم بالتي هي أحسن ، فيستجيب له خيارهم ، ويلقاه شرارهم بالبغي والعدوان حتى ظهرت كلمة الله وانتشر نوره ، وعز دينه فأمن به الثائرون به والمتنكرون له .

والذين يتمدح رئيس الوزراء بأنه يشبههم ويسير سيرتهم لم يثوروا
بنظم بلادهم كما ثار رئيس الوزراء بنظام بلاده . فلم يصل موسوليني إلى حكم
إيطاليا إلا بعد أن وصل إلى زعامتها ، ولم يصل موسوليني إلى زعامة إيطاليا
إلا بعد أن جاهد جهادا سلميا رفيقا ، قوامه الدعوة إلى الخير والإلحاح
في النصيح حتى استجاب له من استجاب ، واقتنع برأيه من اقتنع ،
والتفت حوله كثرة إيطالية مكنته من أن يطلب الحكم ويظفر به ، ويخلق
إيطاليا خلقاً جديداً .

ولم يصل هتلر نفسه إلى حكم ألمانيا إلا بعد أن دعا إلى رأيه ، واقنع
به والتفت حوله هذه الكثرة التي أظفرت بالانتخاب فاضطر رئيس
الجمهورية الألمانية إلى أن يلقي إليه أزمة الحكم ، وكان يأبأها عليه ، وينوده
عنها في شدة وإصرار .

بعيد جدا ما بين رئيس وزرائنا وبين المصلحين الذين يستحقون أن
يوصفوا بهذا الوصف ، فهو لم يجاهد في نشر رأيه ، ولم يلح في الدعوة
إليه ، ولم يلقي في ذلك شيئا من الأذى ، ولم يتعرض في ذلك لشيء من
المكررة . وإنما هيئت له الأسباب ، ودبرت له الأمور ، ثم أجلس على
كرسي ، وأعطى أعنة الحكم ، وقيل له انطلق فانطلق أمامه ، لا يأتي على
شيء إلا عصفا به عصفا وعبث به ألوان العبث ، وهو على هذا كله
لم يكتف بأن تهيأ له الأمور في غير جهد ولا مشقة ، بل أخضع أمته لمضروب
الجهد وألوان المشقة فعكس الآية ، وآثر نفسه بالراحة في سبيل الإصلاح
وآثر أمته بالشقاء والعناء في سبيل ما يراه إصلاحا .

ولهذا لم يوفق رئيس وزرائنا إلى شيء ، ولم يصلح رئيس وزرائنا
شيئا ، وسينزل رئيس وزرائنا عن الحكم فلا يبقى له في هذه الأمة أثر إلا
هذه الذكريات المؤلة التي تصور ما صب على أمته من عذاب ، وما أنزل
بأمته من شر . فأما السياسة التي فرضها فلن تستقر بعد أن ينزل هو عن
السلطان ، ذلك لأنه وصل إلى الحكم قبل أن يكون لنفسه هذه القوة الشعبية

الصادقة . وصل إلى الحكم قبل أن يقنع الناس بآرائه في الإصلاح . وكان يجب أن يكون وصوله إلى الحكم نتيجة لسعيه لا مقدمة له .

سيستقيل صدق باشا أو سيقال ، فينحل من حوله كل شيء ، ويتفرق من حوله كل إنسان ، وتعود الأمور بعده كما كانت قبله .

أما المصلحون حقاً فقد اعتزلوا الحكم ، بل فارقوا الحياة وبقى إصلاحهم وقوى بعدهم واتسع سلطانه ، لأنهم لم يسلكوا إلى إصلاحهم هذه الطريق التي سلكها رئيس الوزراء ، ولم يؤثرُوا أنفسهم بهذا الخير الذي أثر به رئيس الوزراء نفسه . فما أجدر الذين يفكرون في الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي أن يتعظوا بهذا الدرس القاسي الذي تلقىه الأيام على رئيس الوزراء ، وأن يعلموا أن الأمم لا تكره على الخير إكراها ، وإنما تقنع به إقناعاً ، وترغب فيه ترغيباً . وإن الله - وقد استأثر وحده بالكمال واستأثر وحده بالقوة والسلطان - لم يكره الناس على الخير ، ولم يدفعهم إليه بالشدة والعنف ، وإنما أمر نبيه أن يدعوهم إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يدفعهم إليه بالحجة والعبرة ، وأن يحتمل في سبيل ذلك ما احتمل من الأذى ، ويصبر في سبيل ذلك على ما صبر عليه من مكروه .

أفيؤثر الله الرحمة واللين والدعوة إلى الخير بالتي هي أحسن ، ويأبى الناس إلا أن يكرهوا الأمم والشعوب على ما لا تريد ؟

(٤٠)

ناد

أراد (١) صاحب السعادة حمد باشا الباسل وأصدقائه بعد أن انفصلوا من الوفد المصري أن يتخذوا لأنفسهم نادياً سياسياً بأوون إليه ويلتقون فيه

ويجتمعون فيه إلى من قد يرى رأيهم ، ويذهب مذهبهم من الناس . وهذا حق لهم ، لا ينازعهم فيه منازع ، ولا يحاربهم فيه أحد . وقد استمتعوا بهذا الحق فأنشأوا ناديهم ، وافتتحوه أمس ، ووسعهم لحسن حظهم ، ولحسن حظ الحرية السياسية صدر الوزارة القائمة على شدة ضيقه بالأندية السياسية الأخرى ، وما يكون فيها من اجتماع وحديث . وألقى صاحب السعادة حمد باشا الباسل في ناديهِ الجديد خطبة سياسية ، ما كنا نحب أن نعرض لها ، وما نحب أن نطيل القول فيها لولا ملاحظات نحب أن نسجلها مسرعين . ولعل هذه الملاحظات تنهى آخر الأمر إلى ملاحظة واحدة ، وهي أن الخطيب وأصدقائه يتعمدون الإعراض عن الحقائق الواقعة والانصراف عنها ، ويخلقون لأنفسهم جوا من الخيال غريبا يعيشون فيه ، ويحسبون أنهم يعيشون مع الناس . وهذا الجو الخيالي الخاص الذي لا يعتمد على الحقيقة الواقعة في قليل ولا كثير ، ليس من شأنه أن يسهل على الذين يعيشون فيه الظفر بالفوز وتحقيق الآمال السياسية . فليست سياسة الشعوب خيالا ولا آمالا ، وإنما هي أعمال قد تستعين بالخيال لتحقيق المطالب الوطنية . وأوضح شيء على أن الخطيب وأصدقائه قد خلقوا لأنفسهم جوا من الخيال وعاشوا فيه ، هو هذا الاسم الذي سموه أنفسهم وأسبغوه على ناديهم . فهم يسمون أنفسهم الوفد السعدى ، ويضيفون ناديهم إلى وفدِهم السعدى هذا ، وهم يعلمون حق العلم أن هذا الاسم لا يدل على شيء حين يطلقونه على أنفسهم ، وحين يحلون به ناديهم . وليس الوفد اسما ولا لفظا ، وإنما الوفد قوة حقيقية قائمة يستطيع كل إنسان أن ينظر إليها ، وأن يمتحنها وأن يحقق فيها النظر ، ويلح عليها بالامتحان . وهذه القوة لا تقوم على الخيال ، ولا تعتمد على الوهم وإنما تقوم على الناس الذين يكونونها ويجعلونها حقيقة واقعة ملموسة ، تراها كل عين ، وتلمسها كل يد ، وتغص بها كل وزارة لا تريد أن تعمل لمصر ، ولمصر وحدها .

هذه القوة مكونة من هؤلاء الأعضاء الذين يتألف منهم الوفد ، ومن هؤلاء النواب والشيوخ الذين تتألف منهم الهيئة الوفدية ، ومن هذه اللجان

المنبثة في أقطار مصر والمنتشرة في أرجائها . ومن هذه الملايين التي تؤلف
الكثرة العظمى لهذا الشعب الكريم .

هذه هي القوة التي تجعل الوفد وفداً ، والتي تبيح للوفد أن يسمى نفسه
وفداً ، والتي تمكن الوفد من أن يتخذ لنفسه في السياسة خطة ينفذها ، ومن
أن يرى خطة أخرى لا تلائم رأيه ومبدأه فيصد عنها وينفر منها ، لأنه يعلم
حق العلم أنه مؤيد بهذه الملايين حين يأتي في السياسة ما يأتي من الأمر ، وأنه
مؤيد بهذه الملايين حين يدع من السياسة ما يدع من الأمر ، وأنه معرب عن
آمال هذه الملايين ومثلها العليا حين يسعى إلى الاستقلال ويجد في تحقيقه ،
وأنه ناطق بلسان هذه الملايين حين يقول في السياسة نعم ، وحين يقول في
السياسة لا .

وصاحب السعادة خطيب أمس وأصدقائه يؤمنون بالإيمان كله بأننا
لا نغلو في ذلك ولا نسرف ، وهم يؤمنون بالإيمان كله بأنهم قد يقدمون
غداً على أمر من الأمور فلا يقدم معهم أحد ، وبأنهم قد يحجمون غداً عن
أمر من الأمور فلا يحجم معهم أحد ، وبأنهم قد يقولون نعم ، فتقول الأمة
لا . وقد يقولون لا ، فتقول الأمة نعم . وإذن ففيم التعلل بالآمال ،
والتعلق بالخيال ؟ وفيم إطلاق الأسماء في غير غناء ؟ وفيم رضاهم بالألفاظ
وهم يعلمون حق العلم أن الألفاظ كثيراً ما تكون سراباً يحسبه الظمآن ماء
حتى إذا جاءه لم يعجده شيئاً ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه ... !!

هذا مظهر من مظاهر هذا الجو الخيالي الذي خلقه صاحب السعادة
حمد باشا الباسل وأصدقائه ، وأخذوا على أنفسهم بالحياة فيه . ومظهر
آخر ليس خيراً من هذا المظهر ولكنه مثله سراب ليس من ورائه شيء ،
وهو هذا البقاء على حب الوزارة القومية ، وهذا التعلق بأسبابها والتشبث
بأهدافها ، وبعد أن أصبح تأليفها على الوجه الصحيح المنتج في هذه الظروف
التي تحيط بمصر شيئاً لا أمل فيه ولا سبيل إليه .

إن الذين يذكرون الوزارة القومية جادين غير لاعبين . ناصحين للأمة غير مستدرجين لها إلى ما لا تحب . يعلمون حق العلم أن هذه الوزارة لن تكون قومية حقاً إلا إذا قبلها الوفد وهذه الملايين التي تؤيده كل التأيد، وتثق به كل الثقة ، وتطمئن إليه كل الاطمئنان . فإذا كانت الظروف السياسية الحاضرة تمنع الوفد من الاشتراك في هذه الوزارة ، فمن العبث أن تسمى وزارة قومية ، لأنها ستكون - كما قال بعض الوزراء السابقين - قومية بلا قوم ، وشعبية بلا شعب . وسيكون حظها من هذا الاسم كحظ الخطيب وأصدقائه من اسم الوفد، وكحظ ناديم من إضافته إلى الوفد...!!

نعم ، إذا أبقى الوفد أن يشترك في هذه الوزارة إلا بعد أن تستفتي فيها الأمة فتفتي بها ، وبعد أن تعرب الأمة بالانتخابات الحرة المطلقة عن رغبتها فيها وحرصها عليها ، فلن تكون هذه الوزارة التي تؤلف اليوم أو تؤلف غدا دون اعتماد على إرادة الأمة وزارة قومية ، ولكنها ستكون وزارة حزبية ، تؤلفها هيئة واحدة ، أو تؤلفها هيئتان أو تؤلفها هيئات مهما تقل في نفسها فلن تستطيع أن تزيد على أنها تمثل أعضائها ، ومن يتصل بهم من الأفراد ، وهي بعيدة كل البعد عن أن تمثل كثرة الأمة . أو أن تمثل من الأمة قلة لها خطر صحيح في الحياة الديمقراطية الدستورية الصحيحة . وإذن فقيم التعلل بالآمال والتعلق بالخيال ؟ وفيم إطلاق الأسماء في غير غناء ؟

صاحب السعادة حمد باشا الباسل وأصدقائه أحرار في أن يتعللوا بالأمل ، ويتعلقوا بالخيال ، ويسموا أنفسهم كيف شاءوا ، ولكنهم يرون معنا فيما نظن أنهم يتجاوزون الحق ، ويسرفون على أنفسهم حين يضيفون آراءهم إلى غيرهم ، وحين يزعمون على غيرهم ما لم يفعلوا ، ويقولون عليهم ما لم يقولوا . وقد زعم الخطيب أمس أن الوفد أقر بالإجماع منذ عام قبول وزارة تكون مهمتها العود إلى دستور عام ١٩٢٣ وإجراء انتخابات حرة ، واستئناف المفاوضات للوصول إلى اتفاق عادل شريف ترضاه البلاد ممثلة في برلمانها المنتخب انتخاباً حراً .

والخطيب وأصدقائه يعلمون حق العلم أن إجماع الوفد لم ينعقد في يوم من الأيام على كل هذا ، وإنما اتفق الوفد على بعضه ، واختلف في بعضه الآخر . ولولا هذا الاختلاف لما وضعت هذه الجملة وهي « على أن تجرى في شأن الوزارة بعد الانتخابات أحكام الدستور »

فكيف تجرى أحكام الدستور بعد الانتخابات على وزارة تقيدت يوم تأليفها باستئناف المفاوضات ؟ إن أحكام الدستور حين تجرى على وزارة بعد الانتخابات قد تضطرها إلى الاستقالة قبل أن يجتمع البرلمان ، وقد تضطرها إلى الاستقالة بعد اجتماع البرلمان ، وقبل أن تبدأ في المفاوضات . فلو قد كان إجماع الوفد منعقدا على كل ما قاله الخطيب لما وضع هذا الشرط إنما وضع ليجعل هذه الوزارة وزارة انتقال ليس غير ، تعيد الدستور ، وتصلح ما تستطيع من الأمور ، وتجري الانتخابات الحرة ، حتى إذا تمت الانتخابات وظهرت نتائجها ، جرت أحكام الدستور ، وردت أمور الأمة إلى الشيوخ والنواب الذين يمثلون الأمة .

هذا هو الحق الذي لاشك فيه ، وهو الذي يعلمه الخطيب وأصدقائه ، وهو الذي تنطق به محاضر الوفد في جلساته التي عرض فيها لهذا الموضوع . وإذن فما بال الخطيب يلبس الأمر على الناس ، ويضيف إلى غيره آراء لم يروها ، ومذاهب لم يتورطوا فيها ؟

وله ولأصدقائه أن يروا ما يشاءون ، وأن يجدوا في تحقيق آرائهم ، وأن يجربوا حظهم السياسي منفردين ، وأن يمتحنوا ثقة الأمة بهم ، وتأيدها لهم ، ولكن ليس لهم أن يزعموا أن غيرهم يشاركهم في هذه التجربة ، أو يظاهروهم عليها . ولو كان الأمر كما يزعمون لما كانت فرقة ، ولما كان خلاف ، ولما وقف الخطيب أمس يفتتح ناديه الجديد .

كل هذا يبين ما قلناه آنفا من أن الخطيب وأصدقائه يعرضون عن الحقائق الواقعة ، ويخلقون لأنفسهم جوا من الخيال يعيشون فيه .

ويقول الخطيب « إن الوفد إن قبل الحكم حين تدعوه الظروف إليه ، فهو لم يؤلف للحكم . وإنما ألف للنضال » وإذن فمن حسن النضال أن لا يسعى الوفد إلى الحكم ، وألا يلج في السعى إليه . وألا يظهر من سعيه وإلحاحه في السعى ما يطمع الانجليز فيه ، ويغريهم به . ويمكنهم من إملاء الشروط عليه . إنما النضال الصحيح أن يحتفظ الوفد بالكرامة القومية والعزة القومية ، وأن يعصم الروح الوطني من الضعف ، وجذوة المقاومة من الحمود ، وأن يبين للإنجليز وللعالم كله في وضوح وجلاء أنه فوق الخوف ، وأنه فوق الإغراء ، وأنه أعز وأقوى من أن تضعفه التجارب ، وتفسد عليه المحن أمره . وأنه أثبت على النضال من أن يبلغ منه الانجليز بترغيب أو ترهيب ، وأنه قد رسم لنفسه خطة فهو ماض في تحقيقها ، لا ترده عنها قوة مهما تكن ، ولا تلهيه عنها حيلة مهما تكن حتى إذا أخفقت التجارب وفشلت المحاولات ، وعرف الانجليز أن أمر مصر يجب أن يكون لمصر ، نزلوا هم عن شروط مصر ، ولم ينزلوها عند شروطهم ، وعلى أحكامهم .

كذلك يكون النضال . ونحن نعلم أنه طويل . ونحن نعلم أنه شاق . ونحن نعلم أنه مخفوف بالأذى ، ونحن نعلم أنه مملوء بالخطر ، ولكننا على ذلك كله ، ولذلك كله نعلم أنه النضال الذي يليق بالرجال ، والذي يمكن الأمة من أن تكون أمة حقا ، ويرغم الانجليز على أن يقدروا كرامتها ويرعوا حرمتها ويؤمنوا لها بحقها كاملا غير منقوص .

فليتعجل الحكم من لا يستطيع الصبر عن الحكم ، وليصبر على الأذى من يؤثر العزة والكرامة على الخوف من الأذى ، وليذكر أولئك وهؤلاء أن من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وإن الله لا يضيع أجر العاملين .

قلق

لست (١) أدري أقلق هذا يعبث بنفس رئيس الوزراء وزملائه ، أم هو شيء آخر أكثر من القلق ، وأشد منه هذا للنفوس وخلعا للقلوب وتشريدا للعقول والألباب ؟ ولست أدري أيصدر هذا القلق أو هذا الفزع أو هذا الجزع عن ضعف في أعصاب الوزراء بعد أن ألحت عليهم الحوادث المضنية ، وتعاقبت عليهم الأنباء المخيفة ؟ أم هو يصدر عن تقدير صحيح لموقف الوزارة واضطرابها المنكر بين اليأس والرجاء ؟ ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو أن الوزارة في هذه الأيام شديدة القلق إلى حد اليأس ، وأن الوزراء في هذه الأيام لا يتسمون بالحياة ، كما أن الحياة السياسية لا تبسم لهم . ولا ينظرون إلى المستقبل القريب مطمئنين كما أن المستقبل لا يبتهج بقدمهم عليه ودخولهم فيه . وإنما هو يغلق أبوابه في وجوههم قليلا قليلا ، ويوشك أن يحكم إغلاقها حتى لا ينفذ منها النسيم ... !

أخطأت الأهرام منذ أيام فنشرت رسالة برقية كانت موجهة للبلاغ ، وفسرتها بما تعلم من حقائق الأشياء ، وبما تأمل من ألوان الخيال . ولم تكذ تظهر الأهرام بالرسالة وتفسيرها حتى اضطرب الوزراء والمستوزرون ، أولئك هدهم الخوف ، وهؤلاء أحياهم الرجاء ! أولئك رأوا بيوتهم تستقبلهم عابسة مقطبة ، وقد خيم عليها حزن كاسف كثيف . وهؤلاء رأوا دواوين الوزارة تستقبلهم فرحة مرحة ، راضية مبتسمة لهم ، هذه الابتسامة الصفراء التي تبسمها دائما مكاتب الوزراء للوزراء حين يقباون عليها لأول عهدهم بالحكم ، وتدل بها على معان كثيرة أظهرها وأوضحها هذا المعنى الذي لا يفطن له وزير ، والذي يجب أن يفطن الوزراء جميعاً له ، وهو

أن النهوض بالحكم ليس تخليداً فيه . وأن الابتسام للحكم إنما هو مقدمة سيتبعها العبوس للاستقالة . ولكن الإنسان مغرور . وغروره يلتهيه عن واجبه ويورطه في كثير من الشر ، كان يستطيع أن يبرأ منه لو قدر أنه حين يدخل مكتبه زائر ، لا مقيم .

جزع الوزراء لنبا الأهرام ، وكان رئيسهم أشدهم جزعا ، فلم يكذ يتصل به النبا حتى خف وكان ثقيلًا ، وحتى نشط وكان فاتراً ، وحتى أسرع إلى التليفون فهز الهواء بين القاهرة ولندرة هذا كهربائيا عنيفا يلائم هذه الهزات التي أحدثها نبا الأهرام في نفسه ! وأزعج وزيرنا في لندرة ، وكلفه حركة ونشاطا ، وسعيا واضطرابا ، وبحثا واستقصاء فتحرك وزيرنا واضطرب ، وسعى وزيرنا ونشط ، وبحث وزيرنا واستقصى ، ثم عاد إلى التليفون فهز الهواء مرة أخرى بين لندرة والقاهرة هذا فيه شيء من السخرية ، وفيه شيء من اليأس الحزين .

وتحدث رئيس وزرائنا بعد ذلك إلى الصحف ليهديء الناس ، ويؤمن الأنصار ، فنشرت « الشعب » حديثه وجلة مذعورة ! ونشرت الأهرام حديثه متحدية متصدية ! وأحس الناس وجل « الشعب » وذاق الناس تحدى الأهرام . فألح الحائفون في الخوف ، وألح الراجون في الرجاء . والظاهر أن الوزراء لا يملكون أنفسهم ، ولم يستطيعوا أن يقرأوا قلوبهم في صدورهم فسألوا رئيسهم حين اجتمعوا إليه يوم الخميس ، وتحدث إليهم رئيسهم في هذا الاجتماع كما تقول الأهرام صباح اليوم ، حديثاً لعله هدا من روعهم بعض الشيء . وسرى عن نفوسهم بعض التسرية ، ثم لم ينقض ليل ويطلع نهار حتى جاءت الأنباء البرقية إلى الصحف عامة بنصيحة المورننج بوست إلى رئيس الوزراء وألحاحها عليه في أن يستريح ! فاشتد خوف الحائفين ، وعظم رجاء الراجين ، ولم يبق بد من إذاعة الحديث الذي كان بين الوزراء ورئيسهم في اجتماع الخميس لعله يخفف لوعة الملتاعين من الأنصار ، ويلقى شيئاً من الكآبة على آمال المؤمنين من عشاق الحكم

والمتلهفين على المناصب ، ولكننا تؤكد للذين أذاعوا هذا الحديث في الأهرام ، أو أوعزوا باذاعته أنه لم يخفف لوعة ، ولم يهدى روعة ، وأنه لم يبعث على آمال المؤمنين كآبة ولا تقطيبا ، ذلك أن هذا الحديث كما نشرته الأهرام أشبه شيء بهذه التعلات التي تقدم إلى الجائع ليصبر على الجوع ، وإلى الظمآن ليحتمل الظمأ ، وإلى الخائف ليأمن بعض الأمن ، ولكنها على كل حال لاتعلة تشبع جائعاً ، ولا تنقع صادياً ، ولا تؤمن خائفا مذعوراً .

زعم رئيس الوزراء لزملائه أن الأنباء التي أنبأ بها وزيرنا في لندن تدل على أن المندوب السامي عائد إلى مصر فقيم فيها غير منقول منها . وأكبر الظن أن هذا النبأ لم يكذب يقع في قلوب الوزراء حتى برقت أساريرهم ، وانبعثت من صدورهم تهديدات مريحة ، ولكنهم لم يفكروا في أن بقاء المندوب السامي إن صح لا يستلزم بقاء الوزارات . فصداقة المندوبين السامين في السياسة ليست ثابتة ولا مطمئنة . ولم يفكروا في أن تغيير الأعوان الذين يعمل معهم المندوب السامي في القاهرة يجب أن يدل على شيء . ومن الراجح جدا أن هذا الشيء ليس مما يحب الوزراء ، وليس مما يطيق الوزراء أن يفكروا فيه .

وزعم رئيس الوزراء لزملائه أن اللجنة الانجليزية المصرية لم تنجح فيما أرادت أن تحمل الحكومة الانجليزية عليه من تغيير السياسة البريطانية في مصر ، ومن توجيه هذه السياسة إلى تغيير النظام القائم ، لأنه لم يحقق ما كان ينتظر من العدل والإنصاف ، ولم يظفر بتأييد الكثرة المصرية له ، أو ميلها إليه .

ولكن رئيس الوزراء وزملاءه لم يفكروا في أن الأهرام ستنشر لهم هذا الكلام ، وستضيف إليه تعليقا ظريفا ، وتفسيرا طريفا ، وهو أن اللجنة قد ألفت وفدا منها ليلقى وزير الخارجية البريطانية ، ويرفع إليه رأيها في شئون مصر . وأن هذا الوفد لم يلق وزير الخارجية بعد ، ومعنى

ذلك عند الأذكىاء والأغبياء جميعاً أن من التسرع وتعجل الأمور أن يقال إن هذه اللجنة لم تنجح . وإنما يقال ذلك بعد أن يتم اللقاء بين الوفد والوزير ، وتظهر نتيجة هذا اللقاء .

ولم يقدر رئيس الوزراء وزملاؤه أن الأهرام ستضيف إلى هذا التعليق الظريف تعليقا آخر ليس أقل منه ظرفا ، وهو أن المندوب السامى نفسه لم يظفر بلقاء وزير الخارجية بعد . ومعنى ذلك أن كل تنبؤ بنجاح خطة سياسية دون خطة . سابق لأوانه كما يقولون . ومعنى ذلك أن شبح الخوف يجب أن يظل قائما أمام الوزارة وأنصارها . وأن وجه الأمل يجب أن يظل مشرقا أمام المستوزرين .

أما المفاوضات والمحادثات ، وأما الاتفاق والمعاهدة ، فقد أبت الأهرام إلا أن تعرض لها تطوعا منها واحتسابا لوجه الله عز وجل . فأنبأتنا بأن الحكومة البريطانية كانت قد أذنت في أول الشتاء بالحديث بين رئيس الوزراء ودار المندوب السامى حتى إذا انتهى إلى خير ، بدئت المفاوضات ، وبأن هذا الحديث كان قد بدأ بالفعل ولكن ما أصاب الوزارة من أزمة بعد قصة (١) البدارى لم يمكن من المضى فيه . وكلام

(١) كان عمدة البدارى قد أبلغ مأمور المركز عن أحمد جعيدى عبد الحق ، وعلى حسن أحمد أبى عاشور بأنهما خطران على الأمن فالزمهما مأمور المركز يرسف الشافعى بالمبيت بالمركز . وفى أثناء الليل كان يجرى عليهما أنواعا من التعذيب فصنع لجاما من الأليف لكل منهما .

وكان يدخل العصا فى طيازهم . فانتهزا فرصة مرور المأمور فى إحدى الجهات وأطلقا عليه النار فسقط قتيلًا . وقد حكمت محكمة جنات أسيوط على أحمد جعيدى بالإعدام شنقا ، وعلى زميله بالحبس مع الأشغال الشاقة المؤبدة . ولما عرضت القضية على محكمة النقض برياسة عبد العزيز باشا فهمى اعترف الشهود بأن المأمور كان يذق العصا فى طيازهم . (هكذا بالنص) .

وف. تبين لرئيس محكمة النقض أن الحكم الصادر من محكمة جنات أسيوط قد =

الأهرام هذا تجديد للتحدى الذى تقدمت به إلى رئيس الوزراء والذى لم يستطع رئيس الوزراء أن يرد عليه وسيقبل رئيس الوزراء هذا التحدى . وسيغض الطرف عنه ، وما أكثر ما يغض رئيس الوزراء عينه على بعض الأقداء .

ونتيجة هذا كله لا تسر ولا ترضى ولا تلاثم ما يحب المصريون أن يشعروا به من أنهم كرام على أنفسهم . نبأ يأتى من إنجلترا فتخلع له قلوب ، وتبتهج له نفوس ، ويختلف أولئك وهؤلاء فيما يذهبون إليه من تعليل وتأويل . أولئك يخافون على ما فى أيديهم ، وهؤلاء يطمحون إلى ما ليس فى أيديهم . أولئك يرتقبون المعونة من الانجليز ، وهؤلاء يلتمسون الأمل عند الانجليز . أولئك وهؤلاء يلعبون بالورق ، وموضوع لعبهم هو مصر ، وأبهم ربح فى اللعب نظر إلى مصر على أنها وسيلة لا غاية ، وعلى أنها تكأة لا أكثر ولا أقل ... !

ليس هذا مما يسر ، وليس هذا مما يشعر المصريين بكرامتهم وعزتهم ، وليس هذا مما يقرب الأمد بين المصريين وبين الاستقلال الصحيح .

فما أجدر الذين يخافون أن يخافوا من مصر ، وما أجدر الذين يرجون أن يرجوا الخير من مصر . وما أجدر أولئك وهؤلاء أن يعتمدوا على مصر وحدها ، وأن ينفقوا ما ينفقون من جهد لتمكين مصر العزيزة الكريمة من أن تظفر بحقها من الانجليز الغاصبين ، وما أجدر هذا القلق

أخطأه التوفيق ، وأرسل ملف القضية لوزير الحقانية على ماهر باشا لبحث إمكان إصدار عفو عن المتهمين . فدرس على ماهر ملف القضية ، وأعد بياناً رداً على سؤال لأحد أعضاء مجلس النواب ، ولكن إسماعيل صدق لم يوافق على بيان على ماهر ، وبذلك استقال هذا الأخير . وقد أحدثت هذه القضية ضجة هائلة ، وكانت فضيحة للحكومة الإنجليزية التى تدعى الحياد وجيشها يحتل العاصمة ، ومندوبها يشرف على سياسة مصر الداخلية والخارجية .

الذى يعبث بنفوس اليائسين والطامعين أن يكون قلقا على منفعة مصر واستقلالها ، لا على الاحتفاظ بالحكم والوثوب إليه .

(٤٢)

راحة

أما (١) القاهرة فغارقة في هدوء يشبه النوم ، هو هذا الهدوء الذى يألم فيه الضمير أشد الألم ، ويضطرب فيه القلب أشد الاضطراب ، وتظل فيه الحواس الظاهرة مطمئنة مستقرة كأن ليس من وراء هذا الاطمئنان والاستقرار الظاهرين ضمير فائر ، ولا قلب مضطرب .

وأما أقصى مصر فيتظان ، شديد اليقظة ، متحرك عنيف الحركة ، هائج عظيم الهياج . يشترك في يتلته وحركته وهياجه ضميره وشعوره ، وقلبه وحواسه الظاهرة جميعاً .

كان هادئاً مستقراً كالقاهرة أمس فاستيقظ واندفعت به يقظته إلى هذه الحركة العنيفة اليوم ، لأن زعيمين من زعماء الشعب قد سعيوا إليه يزوران ، ويجددان العهد به : هما صاحب الدولة الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد ، والأستاذ الكبير مكرم عبيد . ورئيس وزرائنا المريض يرى هدوء القاهرة فيرضى ويحس حركة الصعيد فيسخط .

لست أدري إلى أى حد تسمح له صحته بأن يحتمل ما يختلف على نفسه من آثار هذا الرضى الذى لا عمق له ولا ثبات ، ومن آثار هذا السخط الذى يشبه الخوف . ولست أدري إلى أى حد تسمح له صحته بأن يتدبر فلسفة هذا الهدوء الذى لا يريح ، وفلسفة هذا النشاط الذى لا يطمئن ،

ولكن الشيء الذى لا شك فيه هو أن الحياة السياسية لا تبسم لرئيس وزرائنا المريض عن ثغر عذب جميل . ولعل نظراته الهادئة الحزينة التى لا تخلو من وجل تقع من هذه الحياة السياسية على وجه فيه كثير من العبوس ، وعليه كثير من التقطيب ، لا حظ له من بشر الأمل ، ولا من هذه الغبطة التى تدل على القوة وحب البقاء والرغبة فى الاستزادة منه . فقد كانت طرائق رئيس الوزراء منذوثب إلى الحكم طويلة جداً ، شاقة جداً ، ملتوية جداً . لا يتقدم خطوة إلا اضطر إلى الوقوف ، ولا ينظر أمامه إلا اضطر إلى أن ينظر وراءه ، ولا ينحرف إلى اليمين إلا اضطر إلى أن يتحرف إلى الشمال . وهو كلما تقدم أمامه ، وأخذ منه الجهد وانتهى به الإعياء إلى أقصاه ، نظر فاذا الطريق أمامه ممتدة إلى غير أمد ، ملتوية فى غير نظام . فهو يمضى ويرجع ، وهو يأخذ عن يمينه ويأخذ عن شماله . وهو يطيل النظر إلى السماء ، ويطيل النظر فى الأرض . وهو يستمع بأذنيه جميعاً لعله يتبين شيئاً واضحاً من هذه الأصداء التى تصل إليه فلا يتبين شيئاً . ويؤثر هذا كله فى قوته المحدودة فتضعف ، وفى نشاطه فيفتر ، وفى صحته فتعتل . وينسى الطريق الطويلة التى أمامه ، وينسى الطرق القصيرة التى قطعها . وينسى العقاب والصعاب ، وينسى هذه الأصداء المختلطة ويغرق فى علته وآلامه حيناً فيستريح فى تعب ويهدأ فى قلق ، ثم يفيق ويسعى سعياً هيناً إلى الشفاء ، ويسعى الشفاء إليه سعياً هيناً أيضاً . ويؤوى إلى هذا الفندق فى ظل الأهرام ليستكمل حفظه من هذه الراحة المتعبة ، ويفتح عينيه لينظر أمامه فاذا الطريق ممتدة إلى غير أمد ، ولينظر وراءه فاذا هو لم يقطع إلا مسافة قصيرة ، قصيرة جداً . ويهبط إلى نفسه يلتمس فيها العدة والزاد لقطع هذه الطريق التى لا تنهى فاذا صحته ضئيلة فى حاجة إلى العناية . وإذا قوته نحيلة فى حاجة إلى الرعاية وإذا ما بقى له من الجهد أعظم ألف مرة ومرة مما عنده من نشاط ، وهو مكدود يغضب فى غير ثورة ، ويسخط فى غير هياج . وإذا ابتسامة كلها إذعان ترتسم على وجهه الشاحب وجبينه المنقبض .

كذلك يقضى رئيس الوزراء أيامه الآن فى ميناهاوس . قد قطع شوطا بعيداً شاقاً ، ولكنه ما زال فى أول الطريق . وليس لديه من أدوات السفر ما يمكنه من المضى فى طريقه . كل شىء من حوله ينبئ بأن سياسته قد فشلت وفشلت . فلا هو كسب تأييد الشعب . ولا هو كسب حيدة الشعب ، ولا هو حقق لهذا الشعب من آماله ما إن جحدته اليوم فقد يضطر إلى الاعتراف به غدا . ولا هو قادر على أن يصلح ما فات ويستأنف سياسة جديدة تمحو آثار سياسته القديمة كلها أو بعضها .

كل شىء من حول رئيس الوزراء فى السياسة قائم مظلم حتى فى بيئته الخاصة . أعوانه ضعفاء ، لا تستقل أكتافهم مهما تكن عريضة بحمل هذه الأثقال التى حملها وحده . والناس يحسون ذلك ويخوضون فيه فيسرفون والبرلمان يمشى فى طريقه مشياً رقيقاً ، لا نشاط فيه ولا خصب حتى تصفه الأهرام بأنه مريض مقعد ، والأمة تنظر إلى هذا كله فى سخط ملؤه هذه الكبرياء التى تظهر فى صورة الإشفاق والرحمة لهؤلاء الذين أفنوا فى الإساءة إنها والعبث بمصالحها قوة كان من الخير أن تنفق فى الاحسان إليها والتحقيق لآمالها .

هذه راحة رئيس الوزراء الآن فى ميناهاوس . ليست هى الراحة التى يستحقها المريض بعد أن أنهكه المرض ، وليست الراحة التى يستحقها المحاهد بعد أن أضناه الجهاد ، ولكن رئيس الوزراء هو الذى اختار طريقه إلى هذه الراحة ، فوقف من أتمته كلها هذا الموقف الذى لم يجد عليه خيراً ، ولم يعقبه إلا مرضاً وألماً وحزناً . وهو الذى بذل صحته كلها فى سبيل يشبه الإسراف ليحقق ما لا سبيل إلى تحقيقه ، ويبلغ ما لا أمل فى بلوغه . فلو أن أحدا استطاع أن يضطر النيل إلى أن يرجع أدراجه ويصعد إلى منبعه بدل أن يجرى هابطاً إلى البحر ، لاستطاع رئيس الوزراء أن يضطر الأمة المصرية إلى أن تعرض بوجهها عن آمالها ومثلها العليا فى الحرية الصحيحة والكرامة الصحيحة والاستقلال الصحيح . وإلى أن ترضى بالقليل من

مظاهر الحرية ، ومظاهر الكرامة وأعراض الاستقلال في ظل الأوصياء المعصومين .

سيجري النيل دائما إلى البحر ، وستجري مصر دائما إلى تحقيق آمالها وبلوغ مثلها العليا . وسيتعب دائما ويحقق دائما ، ويكتسب دائما كل أولئك الذين يقدرّون لأنفسهم من القوة أكثر مما تملك فيسلكون هذه الطريق الطويلة الشاقة المتتوية التي سلكها رئيس الوزراء .

(٤٣)

خطأ

يظهر (١) أن بعد الدار يؤثر في تصور الناس الأشياء وحكمهم عليها وإن كانوا من أعلم الناس بها ، وأفهمهم لدخائلها ، كما أن بعد أدوات الحص عن المحسوسات يضعف أثر الحواس بالأشياء .

فصديقتنا محمود عزمي من أعلم الناس بمصر ، وبما يحدث فيها من الحوادث ومن يضطرب فيها من الناس . وهو كذلك عالم حق العلم بطبيعة الحياة والأحياء في هذا البلد ، ولكن عهده بوطنه بعيد ، وداره عن وطنه نازحة ، فهو يتصور الأشياء من بعد ، وينتظر من الناس أكثر مما كان ينتظر منهم لو أنه حديث العهد بهم ، مقيم فيهم ، يراهم كل يوم ويتحدث إليهم كل يوم ، ويرى وقع الحوادث في نفوسهم ، ويسمع تعبير ألسنتهم عن وقع هذه الحوادث ، واضطراب أصواتهم بما تجد نفوسهم من لذة وألم ، ومن نعيم وبؤس ، ومن سرور وحزن . ويحس في أثناء هذا كله ما تخفيه الضمائر الخفية من رضى وسخط ، ومن رجاء وبأس ، إذن لا تنتظر من الناس غير ما ينتظر منهم الآن ، ولطلب إلى طبيعة الأشياء غير ما يطلب إليها الآن ،

فقد ابتسمت كاردنا صباح اليوم ابتسامة كلها مرارة وحزن عميق حين رأيت
ينتظر أن تكون الصحف الموالية للوزارة أشد من صحف المعارضة إلحاحاً
على الحكومة في تغيير نظام السجون بالقياس إلى جرائم الرأى . والإسراع
إلى تحسين حال صديقنا توفيق دياب في سجنه .

ابتسمت ابتسامة كلها مرارة وحزن عميق . لأننى عرفت أن عزمى بعيد
عن مصر ، لا يرى الناس فيها ، ولا يرى تأثير الناس بما يحدث من الحوادث
ولا فهمهم لهذه الحوادث ولا حكمهم عليها . وهو مع ذلك شديد التأثير
كما كان دائماً بحبه للمثل الأعلى في التعاون والتضامن والطموح إلى الخير ،
واحتمال التبعات في سبيلها . فهو إذن ينتظر من الصحف الموالية للوزارة
كما ينتظر الناس من الصحف الموالية للوزارات في أوروبا أن تذكر قبل كل
شئ أنها صحف وأن الصحف إنما أنشئت لتدعو إلى الخير ، وتلح فيه فتسرع
إلى الإلحاح على الحكومة في أن تقدر كرامة الرأى ، وتعامل توفيق دياب
كما يعامل أمثاله في البلاد التي تقدر الحرية وكرامة العقل . وهو إذن ينتظر
من الصحف الموالية للوزارة ألا تتردد في الاستفادة من موالاتها للوزارة
لستغل قربها من الحكومة فتوجهه في سبيل الخير ، وتتخذ وسيلة إلى تحقيق
العدل والبر والإنصاف الذى لا يختلف الناس فيه ، سواء كانوا من أنصار
الحكومة أو من خصومها ومعارضيه .

هو ينتظر هذا كله ، ومن حقه أن ينتظر هذا كله ، لأن طبيعة الأشياء
إذا استقامت وجرت على منهج معتدل من حب الحق والخير تقضى على
الصحف الموالية للحكومة أن تقف من توفيق دياب ومن نظام السجون هذا
الموقف الذى ينتظره منها صديقى عزمى ، ولكن طبيعة الأشياء قد التوت
في مصر ، والمنهج الذى تجرى عليه قد فسد واعوج . وصحف الوزارة لا تستطيع
أن تكون أسرع من صحف المعارضة إلى المطالبة بتغيير نظام السجون والإصلاح
من أمر توفيق دياب ، لأنها قبل أن تفكر في الخير لنفسه مضطرة إلى أن
تفكر فيما يمكن وما لا يمكن ، فيما يراد وما لا يراد . ثم فيما يقال وما لا يقال

هى مضطرة إلى هذا ، فليس من اليسير عليها أن تصارح الحكومة بالحق ، أو تلح على الحكومة فيما لا تحب . ولو قد فعلت لما لقيت من الحكومة خيرا ، ولأعرضت عنها وجوه تحب أن تقبل عليها ، ولا زور عنها أشخاص تحب أن يلقوها بالبشاشة والإيناس .

هى إذن مضطرة أن ترضى الحكومة قبل أن ترضى نفسها ، وقبل أن ترضى فكرة الصحافة . أتلام فى ذلك أم تعذر عليه ؟ أما أصحاب الأخلاق الذين لا يريدون إلا الفضيلة والفضيلة وحدها فيلومون لأن الحق والخير يجب أن يتقدم على كل شىء حتى على رضى الحكومة عن صحف المعارضة . وأما العمليون والذين يريدون أن يلائموا بين المنفعة والخلق بهذه الأوضاع الاجتماعية التى نسميها مجاملة ، فهم يعذرون ويكتفون من صحف الحكومة بأن تختار لنفسها مكانا وسطا فتجامل صحف المعارضة ، وترفق بالحكومة فلا تسرف عليها بالإلحاح والإلحاف .

ولعلك لم تنس أن وزيرا قائما اليوم كان (١) صحفيا أمس ، فكره أن يشارك الصحفيين فيما كانوا يطالبون به ، ولم يتخرج من إعلان ذلك والجمهور به ، لأنه يؤثر أهواء الأحزاب على الخير من حيث هو خير ، والحق من حيث هو حق . وعلى هذا العدل الذى يرتفع فوق خصومة الأحزاب كما يرتفع فوق المنافع كلها .

لو كان عزمى حاضرا أمر القوم وهم يجتمعون ويتجادلون لعرف أنه يسرف حين يطلب إلى الناس أكثر مما يستطيعون . نعم إن المنفعة المحققة لصحف الحكومة تقضى عليها بأن تبذل ما تملك من قوة وجهد لإصلاح نظام السجن والترفيه عن توفيق دياب لأنها موالية اليوم للحكومة ، ظافرة بعطفها ، آمنة بطشها . ولكن من قصر النظر أن تؤمن لهذه الوزارة بالخلود ، فستزول

(١) المراد محمد علام باشا ، وكان صاحب امتياز صحيفة الشعب وتنازل عنه بعد أن عين وزيراً للزراعة .

هذه الوزارة من غير شك ، وستؤول أمور الحكم إلى المعارضة . وستصبح
صحف الوزارة القائمة صحفا معارضة ، ومن يدري لعلها تجيد عن القانون ،
ولعلها تضطر إلى السجن .

أفليس من الكياسة أن تهىء لنفسها منذ الآن سجنا رقيقا لا تشقى به
إذا اضطرت إليه ؟ ولكنك تستطيع أن تقنع صحف الحكومة بكل شيء
إلا بأن وزارتها ستزول ، وأنها قد تتعرض لما تتعرض له الآن الصحف
المخاصمة للحكومة .

وليس يقف خطأ عزمي في تصور الأشياء والحكم عليها عند هذا الحد ،
فهو يذكر أن إدارة السجون في إنجلترا تصير صحيفة للمجرمين ، وكأنه يتمنى
أن تقرب حياة المجرمين السياسيين في سجون مصر من حياتهم في سجون
البلاد الأخرى. ولو كان عزمي في مصر ، ورأى الوزراء وسيرتهم ، واستمع
لأحاديثهم ولما يتحدث الناس به عنهم ، ورأى شجاعة النواب واستئسادهم
على الصحف المعارضة حين تقع بعض الجرائم ، ثم فتورهم وتحاذلهم حين
يطلب إليهم إصلاح نظام السجون لعرف أن الشاعر القديم لم يخطئ
حين قال :

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة (١) نار

كلا أيها الصديق ، لم تسرع صحف الوزارة ، ولن تسرع إلى ما أردت
أن تسرع إليه من الخير ، ولم تظهر الحكومة والبرلمان ما تمنيت أن يظهرها
من الرغبة في نظام إصلاح السجون ، والترفيه عن المسجونين في سبيل الرأي
وأكبر الظن أن الأمر سيبقى كما هو الآن حتى يدبيل الله من أحزاب لأحزاب
وحتى يولى الله أمور هذه الأمة قوما لا يتخذون الحكم وسيلة إلى التسلط

(١) هذا البيت من قصيدة لابن نباتة المصرى يرثى ابنه ، ومطلعها :
حكم المنية في البرية جارى ما هذه الدنيا بدار قرار

والقهر ، ولا يرون السجن أسلوباً من أساليب الانتقام ، ولا يفرقون في المعاملة بين الأولياء والخصوم ، ولا يعلنون في غير تورع ولا احتياط أن مصر قد بلغت من الرقي والحضارة ما بلغت غيره من الدول الراقية المتحضرة ثم يرون في الوقت نفسه في معاملة المصريين ، والمصريين وحدهم أساليب هي أبعد ما تكون أساليب الحكم عن الرقي والحضارة .

نعم وأكبر الظن أن توفيق دياب سيلقى ما يلقي في سجنه صابراً كما عرفته ، جلداً كما عرفته ، باسمًا للخطب كما عرفته ، حتى يغير الله حالاً بحال ، وحتى يجعل الله قوماً مكان قوم . فإذا لم يكن لك بد من أن تأمل وترجو ، وتنتظر الخير فاجعل أملك ورجاءك في الله وفي الأمة فاليها وحدهما يكون الأمل والرجاء ، ومنهما وحدهما ينتظر الخير .

(٤٤)

دعابة

زعموا (١) أن الفيلسوف الألماني العظيم « كنت » كان عود نفسه أن يخرج للرياضة كل يوم في ساعة معينة ، لا يتقدم عنها ولا يتأخر . وكان أهل مدينته قد تعودوا منه ذلك . ولما رأوه ذات يوم قد قدم موعد خروجه للرياضة دهشوا واستيقنوا أن حدثاً ذا خطر قد ألم بأهل الأرض ، أو بنجوم السماء . ولم تمض أيام حتى عرف أهل المدينة أن الأمر قد كان كما قدروا ، وأن اليوم الذي اضطرب فيه نظام الفيلسوف هو اليوم الذي شبت فيه نار الثورة الفرنسية ، واحتل فيه الفرنسيون حصن الاستبداد والظلم الذي كان يقوم في باريس وهو البستيل .

وقد لاحظنا أمس خروج الأهرام عن طورها المألوف ، وخطتها المرسومة فيما بينها وبين الحكومة من صلة قوامها المودة والعطف دون الخصومة

والمعارضة . وقلنا كما قال مواطنو الفيلسوف الألماني « لأمر ما قدم
الفيلسوف ساعة خروجه » ! أو كما قال العرب القدماء « لأمر ما جدع
قصير أنفه »

ثم لاحظت جريدة الوزارة مثل ما لاحظنا فداعت الأهرام وعاتبها ،
ثم لامتها وعنفها ، ثم طلبت إليها تصريحاً مكان تلميح ، وإعراباً مكان
إعراب . ثم استعانت الأيام على زميلتها الأهرام في كلام أقل ما يوصف به
أنه حلو حامض ، فيه استعطاف وفيه نذير .

وليس يعنينا ما يكون بين جريدة الوزارة وبين الأهرام من دعابة
حلوة مرة ، ومن عتاب خفيف أو ثقيل .

ولنأنا الذي يعنينا أن الأهرام تحرق الأشواط كما يقول الفرنسيون فهي
تتقدم بسرعة إسراع الجواد السابق من الدعابة الخفيفة إلى النقد العنيف .
وهي صباح اليوم تصارح الحكومة والإنجليز معاً بنخصومة لها ما بعدها إذا لم
تتداركها تلك أو هؤلاء .

ويكفي أن تعلم أن الأهرام قد أخذت الحكومة والإنجليز في مقال واحد
قصير غير طويل باثني عشر مأخذاً ، بدمسة كاملة كما يقولون ! ونحن نحصى
لك هذه المأخذ لتعلم أن الأمر جد ، لا هزل فيه إذا لم تتدارك الظروف
ما بين الأهرام والحكومة قبل أن يعم فيها الفساد .

١ - ليس يعنى الإنجليز من التعديل الأخير للوزارة إلا ما أصاب
وزارة الداخلية ، فالإنجليز لا يحفلون بوزارة الزراعة ولا بوزارة الأوقاف
(أى بالوزارتين اللتين أسندت أمورها إلى عضوين من أعضاء حزب
الشعب) وإنما يحفلون بوزارة الداخلية ، وقد حرص وزير الداخلية على
إرضائهم فاختار لهذه الوزارة وزيراً شهدت له المورين بوست بالخبرة
والدراية والكفاية وطول التجربة ، وهو رجل يعرف أين يضع الإنجليز
أنفسهم في مصر ، وأين يضع الوزراء أنفسهم من الإنجليز . وهذا الرجل

الذى اختاره صدق باشا ليرضى الانجليز هو صاحب السعادة القيسى باشا وزير الداخلية الجديد .

٢ - والانجليز يحرصون على أن تجرى السياسة العامة للدولة كما يحبون ويشتهون ، وعلى النحو الذى يحقق مآربهم ويرضى أهواءهم . وهم واثقون بذلك ، مطمئنون إليه ، لأن أمر هذه السياسة إلى رئيس الوزارة وحده ، والانجليز متفقون أتم الاتفاق وأمتنه مع رئيس الوزراء منذ أكثر من سنتين ٥

٣ - والانجليز يحرصون على أن تدفع الجزية إلى السودان ، وعلى أن ينفق السودان هذه الجزية كما يحب ويرضى دون أن يعترض البرلمان أو الوزارة على شىء من ذلك ، ودون أن يطلب البرلمان أو الوزارة إلى حكومة السودان تأدية الحساب عن شىء من ذلك . وصدق باشا محقق للانجليز ما يحرصون عليه من هذا كله .

٤ - والانجليز يكرهون أن يذكر البرلمان أو الوزارة ما لمصر على السودان من دين ، أو يطالب البرلمان الوزارة بقليل أو كثير من هذا الدين . وصدق باشا ضامن للانجليز أن يظل هذا الدين منسيا ما دام ناهضا بأعباء الحكم ٥

٥ - والانجليز يشفقون أن تطلب إليهم مصر تنفيذ قانون التعويضات الذى أنفقت بفضله ما أنفقت من المال عبثا . وصدق باشا ضامن لهم ألا تذكر مصر هذا القانون ولا تفكر فيه ، ولا تطالب بتنفيذه .

٦ - والانجليز حراس على أن ينشأ « بور فؤاد » ليكون محطة لخط الهند ، وعلى أن يوصل به الخط العسكرى الانجليزى فى سيناء . وصدق باشا ضامن لهم تحقيق ما يريدون من ذلك رغم ما يضيع على مصر من المنافع والحقوق !

٧ - والانجليز يخافون أن تتحول مقاولات السكك الحديدية وغيرها عن لندرا وعن الانجليز إلى غير لندرا وغير الانجليز . وصدقى باشا ضامن لهم أن لا تنحرف هذه المقاولات عن طريقها إلى لندرا وإلى الانجليز .

٨ - والانجليز يحرصون على أن تعتبر الشهادات الدراسية الانجليزية كالشهادات الدراسية المصرية . وصدقى باشا يحقق لهم من ذلك ما يشتهون .

٩ - والانجليز يرغبون في أن تساعد مصر الشركات الانجليزية التي تتعرض للافلاس أو الفقر من قريب أو بعيد . وصدقى باشا لا يأبى عليهم ذلك ولا يمانعهم فيه .

١٠ - والانجليز يريدون ألا تنقص عليهم مصر حياتهم بقصة الدين ، وارتباط النقد المصرى بالنقد الانجليزى واحتجاز بنك انجلترا للذهب المصرى . وصدقى باشا ضامن لهم ألا يروا في ذلك إلا ما يحبون .

١١ - والانجليز قد عقدوا مؤتمرهم الاقتصادى ، وراعوا من راعوا من الأمم ، وميزوا من ميزوا من الشعوب ، ولم يحفلوا بمصر . وصدقى باشا ضامن لهم ألا تغضب مصر من ذلك ولا تحتج .

١٢ - والانجليز يريدون أن تميز مصر في التعريف الجمركية ، فلا تغلو في فرض الضرائب على مايرد من بلادهم ليكون لهم الفوز في المنافسة التجارية . وصدقى باشا زعيم بأن يبلغوا من ذلك ما يريدون وفوق ما يريدون .

فإذا ترى في هذه الدسطة من المآخذ ؟ الست تحس معنى أن الأمر بين الأهرام والحكومة قد تجاوز التراشق بالأزهار إلى التقاذف بالأحجار ؟ وليس المهم في ذلك أن يفسد ما بين الأهرام والحكومة ، وإنما المهم أن

فساد ما بين الأهرام والحكومة لا يأتي عبثاً ، ولا يكون سدى ، وإنما هو شيء يدل على ما وراءه من أشياء . وتختتم الأهرام ملاحظاتها بملاحظة عامة تختصر كل ما تقدم وهي : إن الانجليز إنما يحرصون على أن تكون إشارتهم أمراً لا يخالف ، ولا يخرج عنه وزير أو غير وزير . وهم واثقون بأن ذلك سيتم لهم ما بقي صدقي باشا في الحكم . ومعنى هذا أن الأهرام ترى أن صدقي باشا قد تحالف مع الانجليز على أن يحكم بأمرهم في مصر ، وعلى أن يرعى مصالحهم ولو عرض ذلك مصالح مصر للخطر والضياح . ومعنى ذلك أن بقاء صدقي باشا في الحكم خطر على حقوق مصر ومصالحها .

فإذا كنت تعرف معارضة شرا من هذه المعارضة فحدثني عنها ، أما أنا فيخيل إلي أن الأهرام فكرت وقدرت ، وبحثت ونقبت ثم نثرت كنانها بين يديها كما يقول الحجاج ، واختارت من سهامها أمضاها وأنفلها وأكثرها سما ، ثم رمت بها في صدر صديقها الوزارة .

وقد كانت جريدة الوزارة معاتبة صباح اليوم ، وستكون مغاضبة صباح غد إلا أن تجرى الرياح بما يهدى ويريح .
فلننتظر ولننتظر باسمين دائماً .

(٤٥)

مدرسة

أما ناظرها (١) فحضرة صاحب الدولة إسماعيل صدقي باشا ، وأما طلابها فينقسمون إلى ثلاثة أقسام : طلاب مرشحون وهم هؤلاء المستوزرون من أعضاء البرلمان ومن غير أعضاء البرلمان ، لا يشترط فيهم إلا شرط

واحد نعرفه جميعاً ونقره جميعاً ، وهو ألا يكونوا من المعارضة ، أو من أنصار المعارضة ! وإنما يظهر فيهم ظهوراً واضحاً استعداد حسن لتأييد الوزارات مهما تكن ، وتأييد صاحب الدولة صدقياً باشا بنوع خاص .

وطلاب عاملون وهم حضرات أصحاب المعالي والسعادة والعزة الذين يختارهم رئيس الوزراء بالفعل ، ويعهد إليهم بتدبير أمور الدولة تحت إشرافه البارع ، وفي ظل سياسته الحكيمة .

وطلاب مفصولون ، إما لأنهم أسرفوا في النجاح ، أو لأنهم أسرفوا في الإخفاق أثناء وقت الدراسة والتمرين ، وهم هؤلاء الوزراء الذين ينقلون أو يقالون أو يستقيلون . فمنهم من يعمل في سفارات الدولة . ومنهم من يستريح في بيته . وأولئك هؤلاء ينتظرون أن يحتاج رئيس الوزراء إليهم ، فيردهم إلى المدرسة ليستفيدوا من كفايته ، أو ليدرّبهم ويمرّنهم مرة أخرى .

وأما هيئة التعليم في هذه المدرسة ففرد واحد ، جمع الله فيه أفراداً ، وشخص واحد ألفه الله من أشخاص ، وكفاية واحدة صاغها الله من كفايات . وهذا الفرد المتحد المجتمع ، وهذا الشخص المؤتلف المختلف ، ذو الكفاية المحصورة المثورة هو حضرة صاحب الدولة رئيس الوزراء ... وقد يعينه أساتذة مساعدون كما يقول الجامعيون ، وقد يعينه مدرسون أيضاً . وهؤلاء الأعوان يختلفون ، فبعضهم من المصريين ، وبعضهم من الإنجليز ، وبعضهم من الأوربيين بوجه عام .

وأما أمد الدراسة في هذه المدرسة فيختلف طويلاً وقصراً ، ويختلف عرضاً وضيقاً باختلاف ما يستمتع به الطلاب من استعداد للنجاح والتفوق ، أو للإخفاق والعجز . فمنهم من يقضى في المدرسة شهراً ثم ينقل ، ومنهم من يقضى في المدرسة عاماً ثم يوكل إليه عمل آخر . ومنهم من يقضى في

المدرسة عامين ثم يخرج ، ومنهم من يقضى شهرين ثم يستقيل . وكذلك أراد الله لمصر المستقلة أن تنشأ فيها هذه المدرسة الغربية التي لم تسبقنا إليها أمة من الأمم إلا الأمة الإيطالية الصديقة ، والتي لم يؤسسها قبل رئيس وزرائنا إلا زعيم إيطاليا العظيم السنيور موسوليني . فقد لاحظ الناس جميعاً ، وتحذت الصحف الأوروبية المختلفة أن الزعيم الإيطالي قد أنشأ مدرسة للحكم ، يهيء فيها الإيطاليين لفهم النظام الإيطالي الجديد ، فهو يجمع الوزراء ويفرقهم ، وهو يقرهم ويقلقهم ، وهو يريد أن يهيء للفاشسم أجيالا من الوزراء ، إذا خلا منهم جيل خلفه جيل آخر .

ولم يقلده في هذا النحو من التعليم إلا رئيس وزرائنا العظيم !

أما هتلر فقد نهض بأعباء الحكم في ألمانيا ، وأمامه مثلان ، يستطيع أن ينظر إلى إيطاليا فينتفع ، ويستطيع أن ينظر إلى مصر فيستفيد . وأكبر الظن أنه سينظر إلى البلدين جميعاً ، فكلاهما خليق أن يعلم فيحسن التعليم .

ليقل الساسة والصحفيون ما يشاءون في تفسير هذا التوقيع الذي أحدث في الوزارة صباح أمس . ليعلله بعضهم بنسيم يهب من اليمين ، أو ريح تعصف من الشمال . ليلتمس بعضهم تفسيره في عناد حزب الاتحاد ، أو في طمع حزب الشعب . أما أنا فلا أفسره إلا بشيء واحد : هو أن رئيس الوزراء قد أنشأ مدرسة للحكم ، فهو يحكم من ناحية ، ويعلم الحكام ويخرجهم من ناحية أخرى !

ورئيس الوزراء لم يذهب إلى روما في الصيف عبثاً ، ولم يلق زعيمها العظيم عبثاً ، ولم يثن على أساليبه في الحكم عبثاً . ولم يعد بأنه سيستفيد من هذه الاساليب عبثاً . فلم يكده يعود من أوروبا ويستقر في مصر أشهراً حتى أظهر أنه قد انتفع بلقاء الزعيم الإيطالي العظيم ، فأبعد عن الوزارة وضم إليها . ثم لم يكده يستقر بعد ذلك شهرين حتى أقصى عن الوزارة وأدنى منها رغم ما ألم به من مرض ، وما احتمال من ألم وسقم .

هى إذن خطة خطها رئيس الوزراء لنفسه فى تسيير سفينة الوزارة ،
وهذه السفينة قد يواتها النسيم فتعتدل وتستقيم ، وقد تعصف بها الريح
فتترجح وتضطرب إلى أن يأذن الله لها فتستريح وتريح .

وقد تضيق بهذا النحو من التفسير والتأويل ، وتسألنى أن أذهب مذهب
غيرى من الكتاب فأجد فى الفهم والتفسير ، ولكن ما رأيت فى أنى لا أحب
هذا الجدل ولا أميل إليه ، ولا أستطيع أن أكره نفسى عليه ، وكيف تريدنى
على أن أكتب جادا فى السياسة المصرية إذا لم تكن هذه السياسة نفسها جادة
ولا محبة للجد ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يزعم أن سياستنا جادة وهى تقوم
على إهمال الشعب وإنكاره ، والإعراض عما يحب ، والإقبال على ما يكره ،
والانصراف عما يريد ، والتهاك على ما يأتى ؟ وكيف تريد أن تكون
سياستنا جادة ورئيس وزرائنا لا يتخرج من أن يقول فى كتابه الذى رفعه
إلى حضرة صاحب الجلالة الملك إنه انتهى من إقرار النظام ، فهو يستطيع
أن يدع وزارة الداخلية إلى وزير آخر ؟

أحق إنه يترك وزارة الداخلية لأنه قد أدى مهمته وأقر النظام ؟ أم
الحق أنه يدع هذه الوزارة لأنه لا يستطيع منذ اليوم أن ينهض بأعبائها مع
ما ينهض به من الأعباء الأخرى ؟ وأخيراً كيف تريد أن تكون سياستنا
جادة ، وقد جمع رئيس الوزراء إليه الهيئة البرلمانية لحزبه فأبلغها أنه قرر
وأنفذ تعديل الوزارة ، فسمعت الهيئة وتأثرت وهنأت ثم انصرفت لتجدد
التأثر والتهنئة والشكر فى مجلس النواب !

لا ، إنما تجد سياستنا يوم تكون أمور الشعب إلى الشعب ، ويوم يقضى
فى أمور الشعب جهرة ، ويوم تستشار الهيئات البرلمانية ، ولا يقتصر على
تبليغها والاستماع لما تقدم من تحية وتهنئة وشكر وثناء .

فالى أن يأتى هذا اليوم الذى تجد فيه السياسة المصرية فتضطربنا إلى أن
نجد فى فهمها وتفسيرها ، بل فى بذل ما نملك من جهد لتقويمها إن

اعوجت ، وتوجيهها إن انحرفت . إلى أن يأتي هذا اليوم يحسن أن نعبث
مع سياستنا العابثة .

ستسألني : ومتى يأتي هذا اليوم ؟ فمن يدري ؟ لعله يكون أقرب
مما تظن وأظن . فلنتظر باسمين .

انتهى

فهرس الأعلام

(أ)

٨٨	أحمد إبراهيم وكيل الحقوق
٦	أحمد أمين
٢١٨	أحمد جعيدى عبد الحق
١٤	أحمد حافظ عوض
٨٨	أحمد شوقى
٩٣	أحمد الشريف السنوسى
١٦١	أحمد عبد الوهاب باشا
٦	أحمد العوامرى
٩٢، ١٤، ١٣، ١٢، ١١، ١٠، ٨	أحمد لطفى السيد
٩٠	أحمد نصر شيخ المالكية
١١١	الأصمعى
١١٠، ١٠٩	الأفريكان ورلد

(ب)

٣٩، ٣٨، ٣٧	باريس
٢١٧	البدارى
٧٤	بشارة أندراوس

(ت)

٢٢٣، ١٥٥، ١٥٤، ١٥٣، ١٥٢، ١٥١، ١٥٠، ١٦	توفيق دياب (محمد)
---------------------------------------	-------------------

(ج)

١٦٢، ٩٩، ٥٧، ٥٢، ٢٦	جبل الأولياء
٩٦، ٩٤	جمال عبد العناصر

(ح)

٨، ٧	حافظ إبراهيم
١٦٢، ٣	حافظ رمضان

حسن بغدادى طالب بالحقوق ٨٨

حمد باشا الباسل ٢١١

(س)

السنهورى (عبد الرزاق أحمد) ٨٨

سلفان الممثل ١٩٩

(ع)

عبد الحميد بدوى باشا ٨٩

عبد الحميد حسن ٦

عبد الحميد سعيد ١٦٢، ٩٥، ١٣، ٧، ٦، ٥، ٤، ٣

عبد العزيز فهمى باشا ٢١٣، ١٥١، ٨٩

عبد العزيز الصوفانى ١٦٢، ٣

عبد المجيد سليم شيخ الحنفية ٩٠

عبد الوهاب عزام ٨٩

عدلى يكن باشا ١٢

عزيز فهمى ٧

العقاد (عباس محمود) ٩٢، ١٦، ١٤، ١٢، ٨، ٧

على إبراهيم باشا ٨٩

على حسن أحمد أبو عاشور ٢١٧

على عبد الرازق ١٦٦

على ماهر باشا ٢١٨، ٨٩

على يوسف ١٦

عنتره العيسى ٥٥

(ف)

فؤاد (الملك) ٩٠، ٨٩، ٨٨

فاطمة إسماعيل (الأميرة) ٨٩

فوربس بك (الأمير لاي) ١٨

(م)

١٩٩	مارتیه الممثل
١٤، ١٣	الملازنی (إبراهيم عبد القادر)
٨٩	محمد توفیق رفعت باشا
٦، ٣	محمد حسنین الغمراوی بك
٧	محمد حسین هیکل باشا
٣	محمد حلمی عیسی باشا
١٨	محمد الشناوی بك
١٦٢	محمد شفیق باشا
٢٢٤	محمد علام باشا
١٧	محمد محمود باشا
٤٤	محمد موسی الأقصری
٢٢٥، ٢٢٤، ٢٢٣، ٢٢٢	مخود عزمی
٢٣	مراد سید أحمد باشا
٨٨، ٧	مصطفی عبد الرازق باشا
١٥، ١٨، ٦١، ٧٤، ٩٦، ١١٠، ١٢٤،	مصطفی النحاس باشا
٢١٩، ١٢٥	
٢١٩، ٧٤	مكرم عبيد باشا
٧	ملك (الأنسة)
٢٣٢، ٢٠٧، ٢٠٦	موسولینی
١٩٩	مولیر
ل ، ه ، و	
١٨	لوکاس بك (القائمقام)
٢٣٢، ٢٠٧، ٢٠٦	هتلر
٦٠	وهیب دوس بك

تحت الطبع

غراييل

لطفه حسين

تحقيق وتقديم

محمد سيد كيلانى

رقم الايداع ٢٩٠٦ / ٨٣



General Organization of the National Library (GOAL)
المنظمة العامة للمكتبة الوطنية

دار غريب للطباعة

١٢ شارع نوبار (لاظوغلى - القاهرة)

هـ ٠ ب ٥٨ (الدواوين) - تليفون : ٢٢٠٧٩

دار محريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاطوقلى) القاهرة
ص ٠ ب ٥٨ - تليفون : ٢٢٠٧٩